الجامعة الاردنية

كلية الآداب/ قسم التاريخ

رسالة ماجستير

بعنوان :

الحياة السياسية في بلاد الشام في خلافة معاوية بن ابي سفيان

اعداد

طلال صالح غرايبة

باشراف الاستاذ الدكتور عبد الكريم غرايبة

قدمت هذه الرسالة استكمالا

لمتطلبات الحصول على درجة

الماجستير عام ١٩٧٦م

عمان

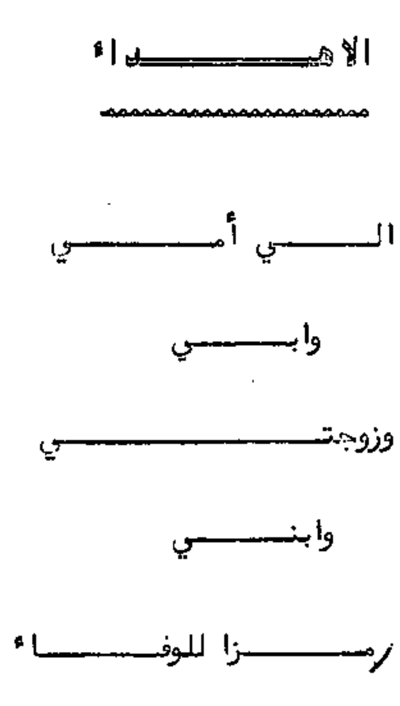
اللجنــــــــة المناقشــــــــة :

١. الاستـــــاذ الدكتــــــور عبد الكريـــم غرايبـــــــة "مشرفـــا"

٢. الاستـــــاذ الدكتــــــور عبد العزيـــــز الـــــدوري

٣. الاستـــــاذ الدكتــــــور نبيـــــــــة عاقـــــل

٤. الدكتـــــــــــور محمـــــد عبـــــــده حتاملـــــة



الاهداء

الى أمي

وابي

وزوجتي

وابني

رمزا للوفاء

شكـــر وتقديــــر

يسرني اكبارا واعزازا أن أتقدم بوافر شكري وخالص تقديري لاستاذي الفاضل الدكتور عبد الكريم غرايبة الذي أكرمني بوقته وجهده في ابـــداء توجيهاتـــه وارشاداته وملاحظاته خلال الدراسة على حساب راحته الشخصيه ووقتــه الخـــاص.

ويسرني أن أتقدم بوافر شكري ومحبتي للاستاذ الدكتور عبد العزيـــز الدوري والدكتور محمد عبده حتامله والدكتور عدنان البخيت والدكتور عوض خليفات والدكتور صالح حمارنه لما قدموه لي من مساعدات وارشادات ساهمـــت في بناء هذه الدراســه .

ولا يفوتني أن أشكـر السيد نوفان الحمود أمين مركـز الوثائق لمـــا قدمه لـــي من معونـــة في الاستفاده في محتويات المركز ، وأخص بالشكر الساده عــزت زاهده وفوزي شبيطه وفاروق شنيور ومحمود الزاغـــة من اعضاء الهيئـــة الاداريـــة لمكتبة الجامعة الاردنيـــة لما قدموه لي من تسهيلات في استعمال المـــواد المكتبيـــة .

المحتويـــــــــات

هـ) الفصل الرابع : النظام السياسية والادارية والمالية في بلاد الشام في خلافـــة معاويـــة . (ص١٥٢ - ص٢٣٤)

أ) مؤسسة الخلافـة : سلطات الخليفة وحدودها . ص١٥٢ - ص١٥٧

١ . منصب الخليفة في عهد معاويـــة . ص١٥٢

٢ . البلاط والمراسـم . ص١٦٦

ب) الادارة والدواويـن . ص١٧٦ ، ص١٩٣

جـ) التدابير الماليـة في خلافة معاوية . ص٢٠٤

د) القضاء على خلافـة معاويـة . ص٢٢٠

و) الفصل الخامس : خاتمـــــــــــة . (ص٢٣٤ - ص٢٤٠)

تقييـم لخلافـة معاويـة وشخصيتـة واثرها على بلاد الشام . ص٢٣٤

ز) المصادر والمراجـع المستعملـة في البحـث . (ص٢٤٩ - ص٢٥٩)

دراسة تحليلية للمصادر والمراجع

استندت الدراسة الى مصادر ومراجع متعددة الأنواع والأساليب، وقد ساهمت هذه المصادر في رسم هذه الصورة عن هذه الفترة من تاريخ بلاد الشام ، وتفاوتت هذه المصادر في معلوماتها ،فكانت كل فئة منها تتناول بالتركيز جانبا أو أكثر ، من جوانب البحث في المعلومات ،وستحاول هذه الدراسة تقييم المصادر حسب ما أفاد منها البحث .

ويمكن تصنيف المصادر الى عدة مجموعات رئيسية حسب مادتها التاريخية أو حسب أسلوب عرضها للأحداث ، وهذه المجموعات هي : كتب الحوليات التاريخية وكتب التراجم والسير والأنساب،بالاضافة الى كتب الفقه والنظريات السياسية الاسلامية ، وكتب الجغرافيا التاريخية .

ومن أبرز كتب الحوليات التاريخية الكبرى* كتاب " تاريخ الرسل والملوك " لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) ، وهذا الكتاب منجم من مناجم المعلومات في التاريخ الاسلامي ، وقد تناول تواريخ الأمم قبل الاسلام حتى البعثة النبوية ، وبعد هاتنزل لسرد أخبار الدولة الاسلامية حتى أواخر عهد الدولة العباسية ، ونظرا لاتساع المدة الزمنية التي تعرض لها الطبري ، فانه يزودنا بمعلومات مختلفة في مجالات السياسة والادارة والحكم ،بالاضافة الى بعض الاشارات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

ونظرا لأن الفتنة وما تلاها من أحداث ، تشكل حلقة كبيرة من حلقات التاريخ العربي الاسلامي ، فان هذا الكتاب يغني القارئ عن سير الأحداث العسكرية والسياسية في البلاد العربية الاسلامية ، ومن خصائص هذا الكتاب بالنسبة لموضوع البحث أنه من أقرب المؤلفات زمنيا الى موضوع الرسالة ، الأمر الذي يجعله يحمل صفة شبه المعاصرة للأحداث.

وقد تناول أحد المؤرخين المتأخرين تكملة لما وصل اليه الطبرى في "كتاب تكملة تاريخ الطبرى" لصاحبه محمد بن عبد الملك الهمداني (٥٢١/ ١١٢٧م) وسار فيه على نفس النهج والأسلوب .

وقد شارك الطبرى في مثل هذا النمط من الكتابة التاريخية عدد من المؤرخين يعودون الى قرون مختلفة ، ومن أبرزهم الدينورى (٢٧٦هـ) واليعقوبي (٢٩٢هـ/ ٩٠٥م) وخليفة بن خياط ، وتأخرهم في فترة متأخرة ابن الأثير الجزرى (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) .

فكتاب تاريخ خليفة بن خياط يركز على الحوادث السياسية البارزة ، فيتناول تاريخ الخلفاء حسب تسلسلهم الزمني مستعرضا أهم الأحداث في عهدهم من الفتوح والثورات والفتن ، ويلقي أضواء قليلة على نواحي الادارة ، ويفتقر الى المعلومات عن النواحي الاجتماعية والحياة العامة ، ويسير في تنظيمه على الأسلوب الحولي ، والروايات الواردة في مسنده .

واليعقوبي في تاريخه أيضا ، يركز على التاريخ السياسي والعسكري ، ويبدي اهتماما خاصا بفترة الفتنة الأولى ، ويتناول تاريخ الخلفاء على السنوات ، ويبدى من خلال كتابه ميولا شيعية واضحة .

أما كتاب " الكامل في التاريخ " لابن الأثير ، فيعتمد اعتمادا كليا في القرون الثلاثة الأولى على كتاب " تاريخ الرسل " للطبرى ، ويتبع نفس الأسلوب في ايراد المعلومات ، ولا يعطي شيئا يزيد عما أعطاه الطبرى عن الفترة المدروسة .

ومن الكتب التاريخية التي تسير على التاريخ حسب السنين ، نجد من أبرزها في مجال البحث كتاب " أخبار العباس وولده " ويعود الى القرن الثالث الهجرى ولا زال مجهول المؤلف ، ويركز الكتاب على الدعوة العباسية وقيامها ،

ويستعرض الكتاب مواقف العداء بين بني العباس بن عبد المطلب وأولاده وأنصارهم من جهة ، وبين الأمويين من جهة أخرى ، ومن ضمنهم الخليفة الأموي الأول ، وهو يمثل اتجاها علويا في ميوله ، ويتعاطف مع بني العباس ، ويؤكد على قدراتهم ومواهبهم ويبين فضائلهم على بني أمية .

وتلي هذه المصادر زمنيا حوليات عديدة تتفاوت في تواريخ تأليفها ومنها كتاب من نوع خاص وهو كتاب " تاريخ مختصر الدول " لابن العبري (١٢٢٦ - ١٢٨٦م) ويمثل نمطا آخر من المصادر ، اذ أنه يرى التاريخ العربي الاسلامي من وجهة نظر مسيحية ، والكتاب يتصف بصفة عنوانه من حيث الاختصار نظرا لطول المدة الزمنية التي يتناولها ، فهي تشمل تاريخ دول العالم القديم حتى فترة حياته في القرن الثالث عشر الميلادي ، ويلقي بعض الضوء على علاقة معاوية بالمسيحيين .

ومن التواريخ الحولية المختصرة كتاب " مختصر اخبار البشر " لأبي الفدا (٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) ، ويعود الى القرن الثامن الهجري ، ومعلوماته مأخوذة في معظمها عن الكتب التي سبقته زمنيا .

وتلي هذه المجموعات الحولية كتبا أخرى متأخرة زمنيا ، وتشكل نوعا من النضج في الكتابة التاريخية ، فقد أصبحت المؤلفات تميل الى نوع من التخصص في تصنيف المعلومات ، فبعضها يتناول تاريخ الخلفاء بشكل خاص ، دون النظر الى الجوانب الأخرى من التاريخ الاسلامي ، وقد يكون الدافع من هذا النهج في الكتابة التاريخية راجعا الى الخلفاء انفسهم عن طريق استمرار بلاطهم للأدباء والعلماء والمؤرخين .

ومن أبرز كتب هذه الفئة كتاب " دول الاسلام " للذهبي (٧٤٨هـ/١٣٤٨م) وكتاب " تاريخ الخلفاء " للسيوطي (٩١١هـ) ، وكتاب " مآثر الانافة في معالم الخلافة " للقلقشندي (٨٢١هـ) ، وكتاب " تاريخ الخلفاء " لمؤلف مجهول من القرن

ـ الحادى عشر الهجرى ، وهذه المجموعة تتناول الخلفاء على أسلوب واحد ،ومن خلال مادتها تلقي ضوءاً على تطور مؤسسة الخلافة الاسلامية منذ ولادتها حتى أواخر أيام الخلفاء العباسيين في دورهم الثاني .

ويشار في هذا الموضع أن معظم ما ذكر من المصادر لها ميولاً علوية ، لذا فان الحذر ضرورة حتمية في تناول رواياتها خاصة ما يتعلق منها بالتاريخ الأُموى .

والنوع الآخر من المصادر المستعملة هو كتب السير والمغازى والفتوح . وتعود أهمية هذه المصادر الى أنها كتبت في فترة مبكرة وقريبة من الأحداث، ومن أبرزها كتاب " المغازى " للواقدى (٢٠٧هـ) ، وهذا المصدر كتب في خلافة الرشيد ، وهو في جملته جزء في سيرة الرسول الكريم ، ويمتاز بدقته في الاسناد ،ويعطي تفاصيلاً واسعة للأخبار عن صدر الدعوة ـ الاسلامية ، ويعتمد في أسلوبه عبارات تنتقد المعلومات ، ويحاول أن يثبت ما يعتقد بأنه حقيقة .

ويفيد هذا الكتاب في تزويدنا عن المعلومات حول البيت السفياني في حياة الرسول والخلفاء الراشدين من بعده ، ويشار في هذا الموضوع الى كتب السيرة النبوية المنسوبة الى ابن هشام ، وكتاب " امتاع الأسماع " للمقريزى (٨٤٥هـ) وتطور عن هذا النمط في مجال السيرة كتاب في أصول القانون الاسلامي المستمد من قواعد التشريع الاسلامي ،وهو كتاب " شرح كتاب السير الكبير) للشيباني (١٨٩هـ) .

ومن ضمن كتب السير كتاب " الاستيعاب في معرفة الأصحاب " لابن عبد البر (٤٦٣هـ) ، والذى يتناول سيرة الصحابة ومن ضمنهم معاوية منذ ولادته حتى وفاته .

وقد تفردت كتب أخرى لتتناول تراجم حياة الشخصيات البارزة من الصحابة والخلفاء وأشراف العرب ، وخير هذه الكتب قاطبة كتاب " أنساب الأشراف " للبلاذري (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) ويشكل هذا الكتاب منجما من مناجم المعلومات في التاريخ الاسلامي ، فهو كتاب موسوعي ضخم يتناول أنساب العرب وقبائلهم وتفرعاتهما ، وقد استند اليه موضوع البحث في مختلف الموضوعات التي طرقها ، وبشكل خاص : فانه يبدي اهتماما بتوزيع القبائل ومساكنها ، بالاضافة الى الاشارات الواردة عن مجالات الادارة والنواحي المالية من خلال ترجمته لأصحاب الوظائف والمهمات .

ويمتاز هذا الكتاب أنه يتحدث بلغة العصر التي سادت في خلافة معاوية خاصة وفي عهد بني أمية عامة ، وذلك بالتركيز على القبائل ، واعتبار التوزيع القبلي عنصرا هيكليا للكتاب ، ويتناول علاقة هذه القبائل مع بعضها البعض ومن ضمن هذه العلاقات علاقة الامويين ببني هاشم ، قبل وبعد خلافة معاوية .

ومن كتب الأنساب كتاب " اللباب في تهذيب الأنساب" لابن الأثير (٦٣٠هـ ١٢٣٢م) ، وهو مصنف حسب الحروف الأبجدية ، ويترجم لأبرز الشخصيات العربية والاسلامية ، ويقدم وصفا لبعض نواحي الحياة الاجتماعية ، وقد استند البحث اليه في استقراء بعض ملامح الصراع القبلي بين القيسية واليمنية ، ويشار الى أن هذا الكتاب ترجمة داخلية للشخصيات من خلال كتابه " الكامل في التاريخ " .

وكتاب " الطبقات الكبير " لابن سعد مثل آخر على كتب الأنساب التي لها دلالتها على النظرة الاجتماعية للقبيلة ، ودورها في المجتمع والحياة السياسية للمسلمين .

وقد كتب مصادرا أخرى في الأنساب تبنت قضايا معينة ، وأبرزتها من خلال ذكر علاقة الدم بين القبائل العربية ، وتناولت في ثناياها أبرز المشاكل والأحداث التي عانى منها المسلمون ، ومن أبرز هذه الكتب كتاب " جمهرة نسب قريش " للزبير بن بكار (١٧٢ـ ٢٥٦هـ) ، وكتاب " المحبر " لابن حبيب (٢٤٥هـ) ، وكتاب " جمهرة أنساب العرب " لابن حزم (٣٨٤ـ ٤٥٦هـ) .

ولعبت كتب الفتوح دورا كبيرا وهاما في نقل كثير من المعلومات ، خاصة في مجال الادارة المالية والتدابير التي اتبعت في المناطق المفتوحة منذ أيام الفتح الأولى ، وتلقي بعض الأضواء على تطور الأوضاع في الفترات التالية للفتح ، ومن أبرز هذه الكتب " فتوح البلدان " للبلاذري ، و " فتوح الشام " للواقدي ، وكتاب " الفتوح " لابن أعثم الكوفي (٣١٤هـ/ ٩٢٦م) ، و " فتوح الشام " للأزدي الذي عاش في القرن الثاني الهجري .

ونظرا لكون معاوية من القادة المشاركين في الفتح برفقة أخيه يزيد بن أبي سفيان ، فان هذه المصادر تعطي معلومات أساسية عن علاقة السفيانيين ببلاد الشام في أوائل أيامها ، ونستقرئ من خلالها بعض المعلومات عن بدايات تولي معاوية لولاية الشام من قبل الخليفة عمر بن الخطاب ، وتساعدنا أيضا في فهم سر الروابط بين معاوية وسكان هذه المناطق .

والمصادر الأدبية تحتل جانبا رئيسيا وهاما بين المصادر الاسلامية عامة ، وهي تمتاز بأنها لا تقتصر على النواحي السياسية والعسكرية ، بل تشمل معلومات عن مختلف نواحي الحياة ، كما أن المعلومات في هذه المصادر تكون أكثر واقعية وصدقا ، لأنها غالبا ما تكون وصفا حيا لمجريات الأمور ، نستطيع من خلالها فهم معالم الواقع ، خاصة فيما يتعلق منها بالنواحي الاجتماعية

والماليـة والادارية ، بعكس المصادر التاريخية التي تهتم بالمشاكل السياسية والفتن والحروب .

ومن أبرز المصادر الأدبية المستعملة كتاب " الأغاني " لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ) ، فهو من كتب الموسوعات الأدبية التي تناولت جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والادارية والفكرية من خلال الأعمال الأدبية شعرا أو نثرا أو مناظرة ، ويستطيع القارىء أن يتبين بعض الحقائق عن مواطن القبائل العربية ومواطن استقرارها .

ومن هذه المصادر أيضا كتاب " شرح نهج البلاغة " لابن أبي الحديد (٦٥٦هـ) ، وهو كتاب في الأدب السياسي الذي نستطيع من خلاله فهم المبادىء السياسية ، والتي تبناها كل من الطرفين المتخاصمين علي و معاوية ، من خلال الخطب التي كان علي بن أبي طالب يلقيها على أنصاره من العراقيين .

ويبدو من خلال الكتاب تعاطف المؤلف مع علي ، الى جانب اهتمامه ببلاغة خطب علي السياسية ، والتي فتحت مجالا لمقارنة الوضع السياسي لأهل العراق من جهة ، وأهل الشام من جهة أخرى ، ومعرفة أسباب الظواهر السياسية البارزة آنذاك .

ومن الكتب الأدبية الهامة كتاب " نقائض جرير والأخطل " لأبي تمام والذي يعكس الأوضاع القبلية السائدة ، وعلاقات القبائل القيسية واليمنية في بلاد الشام من خلال مواقف الشعراء البارزين تجاه بعضهم البعض ، علما بأن هؤلاء الشعراء ينتمون الى هذين الفرعين من القبائل في الشام ، وتجلت هذه النقائض في فترة الصراع القيسي اليمني في الفتنة الثانية في مرج راهط .

ومن المصادر الأدبية الهامة رسائل الجاحظ التي أرسلها الى عدد من الشخصيات العربيــة ،وقد عاش الجاحظ حتى نهاية النصف الأول من القرن الثالث الهجــري ، وتناولت رسائله معلومات متنوعة في الأدب والسياسة ،والتي يضعها في قوالب الجــد والهزل والطرافــة ، ونجد من خلالها بعض الآثار الفكريــة التي خلّفهــا معاويــة فــي بــلاد الشــام بعــد وفاتــه .

وهناك مصدران آخــران في الأدب والتاريــخ ،لهما كبير الأثر في تسليط بعض الأضــواء على اهتمامات معاوية الشخصية وحياتــه الخاصــة فــي البــلاط ، ومن خلالهما يمكن التعرف على بعض جوانب علاقاته بالعمال والولاة داخل الشــام وخارجها ، وهذان الكتابان هما : " العقــد الفريــد " لابن عبــد ربــه (٣٢٧هـ) ، وكتاب " صبح الأعشى في صناعة الانشــا " للقلقشندى (ت ٨٢١هـ) ، ويبدو من خلال المصدر الأخــير بعض جوانب التطــور الادارى ،ودور الشخصيات التي ساهمت في هــذا التطــور ، ولمعاويــة بن أبي سفيــان دور كبــير فــي هــذا المجــال ،الأمر الذى حــدى المؤلف للتحدث عنــه .

ومن ضمن المصادر التي استفاد منها البحث ، كتب الفقه والفرق الاسلاميــة ، وتعكس هذه النوعية من المصادر تطور الفكر السياسي الاسلامي ،وفق النضــوج الزمني للفرق الاسلامية ومؤسسات الدولة ، وقد احتوت النتــاج الفكــرى والسياسي والادارى على ضــوء الشــرع الاسلامــي ،واجتهادات الفقهاء والمفكريــن المسلمين .

ومن أبرز كتب الفقه الاسلامي كتاب " الخــراج " لأبي يوسف (١٨٢هـ) ، وكتاب " الأمــوال " لأبي عبيد (٢٢٤هـ) ، والتي استند اليها البحث في معرفــة الأحوال الاقتصاديــة والماشيــة في الفترة موضــوع البحــث ، كما أنها تلقــي الأضــواء على ما استحدث معاويــة فــي مجــال الضرائــب والعطــاء والقطائــع .

وهناك جانب آخر من كتب الفقه تتناول الامامة والحكم الاسلامي ، وتناقش هذه المصادر مؤسسة الخلافة منذ ولادتها وتطورها عبر السنين ، وقد ساهمت هذه المصادر في تسليط الأضواء على هذه المؤسسة ومشاكلها ووضح التطور فيها ، ومن أبرز هذه المصادر كتاب " الامامة والسياسة " المؤلف من القرن الثالث الهجري ، وكتاب " الأحكام السلطانية " للماوردي (٤٥٠ هـ) .

أما المصادر المتعلقة بالفرق الاسلامية والتي تعكس اتجاهاتها الدينية والسياسية ، فقد زودتنا بمعلومات عن تطور الفكر السياسي لدى هذه الفرق منذ بدايتها الأولى ، وموقفها من الخلافة والخلفاء ، ومن ضمنهم خليفتنا معاوية بعد نجاحه في الوصول الى الخلافة .

ومن أبرز هذه المصادر كتاب " النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم " للمقريزي (٨٤٥هـ) ، وكتاب " الفرق بين الفرق " للبغدادي (٤٢٩ هـ) ، وكتاب " العواصم من القواصم " لأبي بكر بن العربي ، ويمثل اتجاها سنيا في أفكاره ومبادئه السياسية .

وقد استندت الدراسة الى مصادر تاريخية متعددة ، تختلف في اسلوبها عن المصادر السابقة ، واتخذت هذه الكتب أسماء تدل على ما تحتويه من أخبار ، مثل كتاب " الأخبار الموفقيات " للزبير بن بكار (٢٥٦هـ) وكتاب " أخبار القضاة " لوكيع (٣٠٦هـ) ، وكتاب الولاة وكتاب القضاة لأبي عمر بن يوسف (٣٥٠هـ) ، وكتاب " الوزراء والكتاب " للجهشياري (٣٣١هـ) ، ولهذه المصادر أهمية بالغة في اعطاء معلومات عن النظم الادارية الاسلامية ومن ضمنها القضاء بشكل خاص ، وهذه المجموعة تمثل نوعا من النضج في الكتابة التاريخية الاسلامية ، وذلك بسبب اتجاه العلماء والكتاب الى ضروب من التخصص في الكتابة في مجالات محددة .

وكتب القضاة الموجودة تتبع أسلوب الترجمة لحياة أبرز الشخصيات القضائية الاسلامية ، منذ نشأة القضاء وحتى نهاية القرن الرابع الهجري، ومن خلال هذه التراجم يستطيع الباحث أن يستقرىء معالم هذا الجهاز الهام في تاريخ النظم الاسلامية .

ويشار في مجال هذه الدراسة الى أن بلاد الشام عموما تفتقر الى المعلومات التاريخية التفصيلية في المصادر الاولية لعدة أسباب أهمها : أن الكتابة التاريخية قد بدأت بالظهور والتطور بعيد القضاء على الدولة الأموية التي اتخذت من بلاد الشام مركزا لها ، لهذا فان حركة الكتابة التاريخية برزت في بداية الأمر في اقليمين اسلاميين : هما العراق والحجاز ، مما أدى الى افتقار بلاد الشام في عهد الخلافة العباسية الى حركة التأليف والكتابة التاريخية .

ومن الجدير بالذكر أيضا أن بلاد الشام في فترة تاريخ صدر الاسلام تفتقر الى كتب التاريخ المحلية نظرا لأن حركة التأليف والكتابة دعمت دعما كبيرا من قبل الخلفاء العباسيين الذين ركزوا على العراق .

وقد استندت الدراسة الى عدد من الكتب المحلية في بلاد الشام تعود الى فترة متأخرة نسبيا ، ومن أبرز هذه المصادر كتاب " تاريخ دمشق " للمؤلف السوري المشهور ابن عساكر (٥٧١هـ) ، فقد حاول في هذا الكتاب استقصاء تاريخ دمشق منذ أيام الفتح الأولى حتى مطلع القرن السادس الهجري ، ووضع وصفا لمدينة دمشق وأراضيها ومبانيها وأنهارها ، وقد وضع تراجما لحياة أبرز مشاهير هذه المدينة ومن ضمنهم الخليفة معاوية .

وله كتاب آخر ضخم عن تاريخ بلاد الشام وهو " تهذيب التاريخ " ويتناول فيه تاريخ بلاد الشام ، وهو من الكتب الهامة في معلوماته عن جوانب الحياة العامة في بلاد الشام ، خاصة في مجال العلاقة التي ربطت معاوية بهذه البلاد ، ويمكن استقراء بعض المظاهر للحياة القبلية هناك خلال ما يتوفر فيه من معلومات .

ومن كتب التاريخ المحلي في بلاد الشام والتي تعود الى فترات متأخرة ترجع الى عهد الصليبيين والايوبيين والمماليك ، كتاب ابن القلانسي (٥٥٠هـ) المسمى " ذيل تاريخ دمشق " ، وابن الاثير (٦٣٠هـ) في كتابه " الباهر في الدولة الاتابكية " ، وكتاب ابن شداد (٦٣٢هـ) " النوادر السلطانية " وكتاب ابن العديم (٥٥٨=٦٦٠هـ) " زبدة الحلب في تاريخ حلب " ، وهذه المصادر المتأخرة تحوى عددا من الاشارات البسيطة عن الوضع السياسي في بلاد الشام في الفترة موضوع البحث .

وفي ميدان آخر من ميادين التأليف ، برز عالم محلي مشهور في بلاد الشام وهو ياقوت الحموى صاحب كتابين هما : " معجم البلدان " و " معجم الادباء " ، وقد توفي عام ٦٢٦هـ ، وفي كتابه الاول وهو من كتب الجغرافيا التاريخية أولى بلاده اهتماما بالغا بوصف أرضها ومناخها وسكانها وأنهارها ، وذكر عددا من شخصياتها البارزة ، وقد أدى هذا الكتاب خدمة هامة في معرفة مواطن سكن القبائل الشامية في بداية العهد الاموى .

ومن كتب الجغرافيا الهامة في هذا المجال كتاب " البلدان " لليعقوبي (٢٨٢هـ) والذى نستطيع من خلاله معرفة العناصر السكانية التي قطنت هذه البلاد ، ونتبين علاقتها بالسكان الاصليين ، كما أنه يعطي معلومات عن التوزيع القبلي في بلاد الشام .

وكذلك كتاب " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " للجغرافي المحلي المشهور المقدسي ، وقد أعطى بعض المعلومات الهامة عن الأردن وبعض النواحي الاقتصادية الأخرى .

وهناك مؤلف جغرافي تاريخي يسمى " الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة " لابن شداد ، ويعطي اشارات قليلة عن تاريخ صدر الاسلام نظرا لأنه يعود الى الربع الثالث من القرن السابع الهجري .

وقد استفاد البحث من كتاب الهمذاني (٣٣٤هـ) " صفة جزيرة العرب " والاصطخري (في النصف الأول من القرن الرابع الهجري) في كتابه " المسالك والممالك " في اعطاء اشارات عامة عن مواطن القبائل الشامية وتحركاتها .

أما بالنسبة للدراسات الحديثة ، فانها تتركز حول ترجمة شخصية وحياة الخليفة معاوية . مع بعض التلميح للواقع الذي استند اليه معاوية ، وانطلق ليحقق ما وصل اليه ، ويغلب على هذه المؤلفات أسلوب السرد التاريخي القصصي كعنصر مشوق للقراءة ، واذا جاز الحكم فان معظمها لا يعطي صورة حقيقية عن الحياة السياسية في خلافته الا بالقدر الذي تثبت فيه هذه المؤلفات الدور البطولي لمعاوية دون النظر الى الامكانيات التي أتاحت له الوصول الى الخلافة ، وسيرد ذكرها في آخر هذه الدراسة .

من أبرز المراجع المستعملة في البحث الموسوعة الاسلامية في سبيل حصر هيكل المعلومات الأساسية ، ثم الانطلاق من خلال المصادر الأولية الى التفصيلات الجزئية ثم الاعتماد عليها في حصر المصادر الاولية المرجوع اليها ، ومن ابرز المقالات التي استعملت مقالة " معاوية بن أبي سفيان " للمستشرق الفرنسي لامانس ، وغيرها .

وقد أفاد البحث من مقالة " العرب والأرض في بلاد الشام " للدكتور عبد العزيز الدوري، من حيث المنهج في دراسة الأراضي والضرائب والنواحي المالية التي جرت في خلافة معاوية، وهذه المقالة منشورة في مجلد خاص صدر عن مؤتمر تاريخ بلاد الشام سنة ١٩٧٤ .

وفي مجال النظم الادارية والمالية اعتمدت الدراسة على كتب عديدة أبرزها كتاب " مقدمة في التاريخ الاقتصادى الاسلامي " للدكتور عبد العزيز الدورى، وكتابه (النظم الاسلامية) ، ومثيلاته من الكتب لابراهيم العدوى، وصبحي الصالح .

ثم أن هناك كتبا تتناول التاريخ الأموى ساعدت في وضع معالم هذه الدراسة من أبرزها : كتاب " خلافة بني أمية " للدكتور نبيه عاقل، ويبحث في تحليل التاريخ السياسي للخلافة الأموية، ويناقش عامة الظروف التي عاشتها الدولة في ميادين السياسة والادارة والفتوح، ويتناول الجوانب القبلية المتعلقة بالصراع بين قبائل قيس واليمن في الشام .

ومن المراجع الحديثة التي أفادت في مجال التاريخ المحلي لمدينة دمشق، كتاب " غوطة دمشق " لمحمد كرد علي، ويتناول فيه تاريخ دمشق في العهود الاسلامية الأولى، بالاضافة الى بعض المعالم الجغرافية والاقتصادية وتعرض لبعض النواحي الاجتماعية، ويتخلله اشارات عابرة عن علاقة معاوية بهذه المدينة .

وهناك مراجع عامة في التاريخ الاسلامي والعربي، ومن خلال مادتها تتعرض الى خلافة معاوية بشكل جزئي يفيد في استنباط بعض التحليلات ويفتح مجالا للمناقشة، ومنها كتاب " المجتمعات الاسلامية في القرن الأول -

- الهجري " لشكري فيصل ، وكتاب " تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين " لفيليب حتي ، الذي يركز على دور المسيحيين في خلافة معاوية وعلاقته معهم .

أما المراجع الحديثة التي تناولت الخليفة معاوية والمشار اليها سابقا منها كتاب " معاوية بن أبي سفيان الذي أنشأ دولة " لمؤلفه عمر أبو النصر ، وهو من سلسلة تاريخية عنوانها " العرب والاسلام " ، ويتناول المؤلف عصر الفتنة وأسبابها وما تمخض عنها بين علي ومعاوية من القتال في صفين ، والكتاب يعتبر الاقتباس المباشر وسيلة لطرح المدلولات دون شرح أو تحليل أو مناقشة .

ومن هذه المجموعة أيضا كتاب " معاوية الذي أنشأ دولة " لابراهيم الابياري ، وهو أيضا من سلسلة تاريخية عنوانها أعلام العرب ، وأسلوبه يتمشى مع الأسلوب القصصي ، ويركز على جوانب شخصية الخليفة ، وتكمن قيمته في كثرة المعلومات عن حياة معاوية .

وكتاب من هذا القبيل يتناول شخصية معاوية بالتحليل والمناقشة ، فيتلمس أبرز صفاته كالحلم والحزم والدهاء والحيلة ، ثم يحاول وضع تقييم لمعاوية في اطار المنطق السياسي والوضع الديني للدولة ، والكتاب هو (معاوية بن أبي سفيان في الميزان) لعباس محمود العقاد .

ولعل من أبرز مشاكل البحث هي محدودية هذه الدراسة ، من الناحيتين الزمانية والمكانية ، وترتب على ذلك قلة المعلومات في عدد من جوانب البحث ، وتكمن المشكلة في حلها الذي يقتضي في عدد من المواقف تعميم بعض المعلومات والمواقف على فترة الدراسة نظرا لعاطين

هما : المعاصرة أو التقارب الزماني أو المكاني ، ومن أمثلة ذلك ما ينطبق على مجالات الادارة ، فلا نجد في بلاد الشام الا النزر اليسير عن الادارة المحلية في الأجناد ، الأمر الذى يؤدى بنا الى استقراء ملامح الادارة المحلية عن العراق ، ومحاولة تطبيقها على بلاد الشام بالقدر الذى تتوفر فيه اشارات بسيطة عن هذه البلاد .

ومن المشاكل الرئيسية أن التاريخ الاسلامي في الفترة المدروسة يشكل منعطفا بالغ الحرج والخطورة. من حيث تبدل الكثير من المفاهيم والنظم السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية ، وتفاوت امتزاج هذه الأنظمة بالشرع وتعاليم الديانة الاسلامية ، وما ترتب على ذلك من ظهور الاتجاهات والفرق الاسلامية المتعددة .

وقد أدرك من عايش تلك الفترة من التاريخ الاسلامي خطورة الأوضاع وتبدلها بشكل كبير ، والتي لم يعد بوسع الناس تبين الخطأ من الصواب في خضم صراع المفاهيم والمبادئ ، ولعل في بيت الشعر الذى خاطب به أحد الأعراب الخليفة معاوية بقوله :

سموت ولم تكن أهلا لتسموا

ولكن دهرنا دهر انقلاب

دليل على الانقلاب الذى حدث في ظل الظروف الجديدة ، على الرغم من محاولة الشاعر التقليل من قيمة معاوية .

وهناك مشكل آخر يرتبط بمنهج البحث نظرا لكثرة الظروف والأوضاع التي أدت الى تولي معاوية للخلافة ، وبسبب التحولات في مختلف الميادين ،

وتعدد العناصر السياسية والاجتماعية والعسكرية ، فانه من الصعوبة بمكان أن يدرس عنصر واحد من عناصر هذه الفترة دون النظر الى السوابق والظروف المحيطة ، وذلك بسبب الارتباط العضوى الوثيق بين هذه العناصر. على الرغم من وجود التناقضات والمنافسات التي وصلت في صورها الى صراعات دامية بين المسلمين .

ومن هذا المنطلق كان لا بد من التعرض لعدد من نواحي تاريخ الأمويين منذ أيام البعثة النبوية الأولى ، بالاضافة الى التطلع الى علاقتهم مع الخلفاء الراشدين ، وذلك في محاولة لاعطاء صورة متكاملة عن الحياة السياسية في خلافة معاوية .

ولعلنا نجد مبررا آخر للتعرض للفترة الأولى من تاريخ صدر الاسلام في حياة بني أمية ، كوسيلة تعكس أبعاد الفكر السياسي لديهم منذ حياة الرسول ، وما تلاها من علاقات ربطت بينهم وبين الخلفاء الراشدين ، الأمر الذى يكشف بعض التساؤلات عن سياسة معاوية وتصرفاته بمؤسسة الخلافة الاسلامية خاصة ، وباقي أجهزة وأرجاء الدولة الاسلامية عامة ، كما أن ذلك يعطي فكرة عن تفكير بني أمية السياسي والذى كانت أبرز ثماره تولي معاوية الخلافة .

كما أن الوضع السياسي الذى تعايش من خلاله الأمويون مع الدولة الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين ، جعل لهم تركيبة سياسية مميزة ، كان انتصار معاوية الثمرة جنوها من خلال تبنيهم لقضية الخليفة عثمان بعد مقتله .

الفصـــــــل الأول

١- الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام :

كانت الحياة القبلية في بلاد الشام بطبيعتها لا تعرف الحدود والحواجز. وقد بدأت فكرة ايجاد الحدود الجغرافية تتبلور أثر تنافس وتضارب مصالح السكان على مصادر الرزق التي تتوفر لهم عن طريق الاشتغال بالأرض والارتباط بها، خاصة في ظروف البادية الشامية التي توفر مجالا اوسع للاشتغال بفلاحة الأرض.

ونظرا لما تمتاز به حياة القبائل من محاولة الحركة والتوسع لزيادة مساحة أراضيها لخدمة أغراض الرعي واستغلالها في مجال الزراعة. لذا فان فكرة الحدود في مثل هذا الجو تظل قلقة وغير مستقرة، وتظل مرهونة بما ينتاب البقعة الجغرافية من أخطار خارجية أو داخلية تبعا لقوة القبائل المقيمة فيها أو ضعفها.

وبناء على ما سبق فانه يصعب الخروج بصورة عامة عن الجغرافية السكانية لبلاد الشام في صدر الاسلام. فقد كانت القبائل العربية آنذاك في تلك البلاد في وضع القبائل شبه المستقرة، بالرغم من أنها احتفظت بمظاهر البداوة المختلفة. فقد كانت الحدود بين الأقاليم والمناطق السورية غير ثابتة خاصة في مناطق البادية. حيث كانت الطرق التجارية هناك تجتذب القبائل اليها خاصة في ظل توفر مصادر المياه والمراعي .

كما ان الحدود الجغرافية لبلاد الشام عامة مع ما يحيطها من البلاد. فان المصادر الاساسية لا تهتم بها اهتماما مباشرا وانما تعرض لها من قبيل الاشارة العابرة او التلميح العارض فقط بالقدر الذى يكون لهذه الحدود علاقة بالاوضاع السياسية في المنطقة.

كما ان المعلومات المتوفرة في المصادر الادبية تقتصر على اشارات قد تنطبق على مرحلة زمنية محددة . وقد تكون الاوضاع قد تغيرت لاحقا وفق الظروف الحياتية المتغيرة بسبب الحروب والغزوات الداخلية والخارجية وحركات

الاعراب وغـزواتهـم .

وخير ما يسعفنا من المصادر في الخوض في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام هي كتب الجغرافيا والرحلات التي تلقي بعض الاضواء على الحدود بشكل غير دقيق ، وينتاب الاستفادة من هذا النوع من المصادر عيب واضح في الحس الزمني في معلوماتها عن هذه البلاد ، والتي تعود في معظمها الى فترات متأخرة زمنيا . وتفتقر هذه المصادر الى المعلومات الجغرافيه عن القرن الاول الهجري

ومن امثلة المعلومات المتوفرة في هذا المجال عن جغرافية بلاد الشام ، ما يرد في كتاب المسالك والممالك للاصطخرى عن كور الشام ، دون النظر الى حدود هذه الكور مع بعضها البعض من جهة ، أو النظر الى حدودها الخارجية مع المناطق المجاورة لبلاد الشام من جهة أخرى فيقول : (وكور الشام هي جند فلسطين وجند الاردن وجند حمص وجند دمشق وجند قنسرين والعواصم والثغور . وبين ثغور الشام وثغور الجزيرة جبل اللكام وهو الفاصل بين الثغرين ، وجبل اللكام هو جبل داخل في بلاد الروم ، ويقال انه ينتهي في بلاد الروم الى نحو مائتي فرسخ ، ويظهر في بلاد الاسلام بين مرعش والهارونية وعين زربة فيسمى اللكام الى ان يجاوز اللاذقية . ثم يسمى جبل بهراء وتنوخ الى حمص ثم يسمى جبل لبنان ، ثم يمتد على الشام حتى ينتهي الى بحر القلزم) (١)

والاصطخرى كغيره من الجغرافيين المسلمين والعرب يركز اهتمامه على المراكز الرئيسية والمدن الكبرى في بلاد الشام ، ويصفها هؤلاء الجغرافيون من حيث طبيعة الارض والسكان والمناخ ، ويشير في بعض المواضع الى بعض مواطن القبائل الشامية ويلاحظ ايضا ان الاهتمام ينصب على حدود التماس مع الدولة البيزنطية ، نظرا لما لهذه الحدود من علاقة بحياة الناس بسبب كثرة الحروب والغزوات عليهـا .

---

(١) الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ٤٣ ، المقدسي ، احسن التقاسيم ، ١٥٤

أما المصادر التاريخية فانها تعطي معلومات أقرب الى الدقة من الناحية الزمنية رغم قلة المعلومات الجغرافية فيها . ويمكن ان نستشف هذه المعلومات من خلال الاخبار الواردة عن المعارك والاحداث ، خاصة على الحدود الشمالية مع الروم، خاصة وان المصادر الاسلامية تزخر باخبار الحروب والفتن .

وبناء على ذلك فان من السهل التعرف على معالم الحدود بين الدولة الاسلامية في بلاد الشام والمتاخمة للدولة البزنطية في الشمال، بينما يجد الباحث صعوبة في تحديد الجهات الاخرى من الجنوب والشرق . ويمكن الخروج في النهاية بصورة عن حدود بلاد الشام عن طريق المصادر الاوليه والمراجع الحديثة (٢) على النحو التالي :

من الناحية الطبيعية فان هناك فواصل طبيعية تفصل بلاد الشام عن غيرها خاصة من الجهة الغربية حيث يحدها البحر الابيض المتوسط. وقد شكل هذا البحر نقطة من نقاط التماس مع الدولة البزنطية عن طريق الاساطيل البحرية . الأمر الذى فرض على الدولة الاسلامية سياسة معينة في التوطين والاسكان على المناطق الساحلية بالاضافة الى بناء المدن والموانيء المحصنة في خلافة عثمان ومعاوية . وتعتبر صحراء النقب ومن خلفها صحراء سيناء فاصلا طبيعيا مكملا لامتداد البحر الابيض المتوسط من الجهة الغربية .

ومن جهة الشرق فان حدود بلاد الشام تمتد بين بالس وايله مرورا بمعان وسلمية وتدمر والخناصرة والرصافة ، ومشارف الفوطة المتاخمة للبادية ويشكل نهر الفرات أحد الفواصل الطبيعية التي تفصل بلاد الشام عن منطقة السواد من الشرق والشمال الشرقي .

أما من الجهة الشمالية فان الحدود كانت غير مستقرة تبعا لقوة كل من الدولة الاسلامية او الدولة البزنطية وبسبب كثرة الحروب والغزوات بين الطرفين. وقد حصنت الدولة الاسلامية الحدود الشمالية لمنع بزنطة من التوغل في دار

---

(١) انظر مقالة الدكتور نقولا زيادة ، مؤتمر تاريخ بلاد الشام لسنة ١٩٧٤ . وكتاب فالح حسين ، الحياة الزراعية في بلاد الشام .

الاسلام وسميت المدن على الحدود الشمالية باسم الثغور أو العواصم وكان من أبرزها ملطية ومرعش وطرسوس . (١)

ويتساءل المرء عن السبب في وجود هذه الثغور على الحدود الشمالية بينما لا نجد مثلها على جبهات التماس مع باقي الدول والمناطق المجاورة للعالم الاسلامي . وقد يكون التفسير لهذه الظاهرة هو قرب أقوى وأخطر الأعداء لعاصمة العالم الاسلامي دمشق ، في الوقت الذي كانت فيه باقي حدود الدولة الاسلامية متحركة في خضم المد الاسلامي في المشرق والمغرب ، بينما توقف هذا المد عند جبال طوروس .

أما من الداخل فقد قسمت بلاد الشام الى مناطق عديدة أطلق عليها اسم أجناد ، كانت هذه الاجناد تشكل مراكزا لادارة المناطق المحيطة بها لخدمة أمور الحكم . وهذه الاجناد هي جند دمشق وجند حمص وجند الاردن وجند فلسطين . (٢)

ولا يعرف الكثير عن اصول هذه التقسيمات ، ويشار في هذا المجال الى ان هناك تقسيمات ادارية قديمة مماثلة لهذا التقسيم وتعود الى حضارات عاشت في هذه البلاد قبل الحكم الاسلامي ، مع وجود بعض الفوارق التي كانت تخدم اغراضا معينة للدول التي تعاقبت عليها . (٣)

وبناء على ما تقدم فان هذه التقسيمات كانت موجودة في الفترة البزنطية . وعندما خرجت الجيوش الاسلامية من جزيرة العرب لفتح بلاد الشام ، كان لا بد لكل جيش من هذه الجيوش ان يتجه الى المراكز الرئيسية التي كانت مراكزا من مراكز الادارة البزنطية ، وتمكن كل جيش من فتح المنطقة التي توجه اليها اما عن

---

١) الطبري ، التاريخ ، ج ٧ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ٣١٢

٢) اليعقوبي ، البلدان ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤

٣) فيليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩١

طريق الصلح او عن طريق الحرب . (١) واصبحت هذه المناطق المفتوحة مناطق لادارة البلاد ، وبذلك تكون قد احتفظت بصفتها التي ورثتها عن العصور السالفة. واطلق على كل مركز من هذه المراكز اسم جند واستمر هذا الوضع الى فترات متأخرة من التاريخ الاسلامي .

وقد أضيف الى هذه الاجناد جند آخر وهو جند قنسرين والذى شكل نقطة انطلاق للقوات التي خرجت من بلاد الشام لفتح الجزيرة الفراتية . واصبح هذا الجند قسما اداريا جديدا في بلاد الشام . (٢)

وقد ضمت أجناد بلاد الشام جميعها لمعاوية في خلافة عثمان . وكانت بلاد الشام من اكبر الوحدات الادارية في الدولة الاسلامية ؛ وقد كانت ولاية معاوية عليها سببا من أسباب النقمة على عثمان كجزء من سياسته في تقريب الشخصيات الاموية والاعتماد عليها في الحكم .

وانقسمت هذه الاجناد الى وحدات اخرى صغيرة اطلق على الواحدة منها اسم (كورة) وكانت الكور على نوعين الاول وهو الكور المطلّة على الساحل والنوع الثاني هو الكور الداخلية من بلاد الشام . (٣)

وقد تألف جند دمشق من عدد من الكور اهمها البقاع ومركزه بعلبك ، وكورة حوران ومركزها بصرى وكورة البثينة ومركزها أذرعات وكورة الظاهر ومركزها عمان . وكورة الغور ومركزها أريحا . وكورة الجولان ومركزها بانياس وكورة

---

١) اليعقوبي ، البلدان ، ٨١ .

٢) البلاذرى ، الفتوح ، ١٧٨ ، المقدسي ، احسن التقاسيم ، ١٥٤ ، انظر مصطفى الحيارى ، الامارة الطائية ، ٢٠ .

٣) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ٤١ .

الشراة ومركزها أذرح . (١)

أما كور جند الاردن فهي كورة صور وكورة عكا وكورة القدس وكورة بيسان وكورة فحل وكورة جرش . (٢)

وكور جند حمص هي كور اللاذقية وبانياس وانطرطوس وكلها على الساحل أما في الداخل فهناك كورة معرة النعمان وكورة البارة وكورة أفامية وكورة شيزر وكورة كفرطاب .

٢ - القبائل العربية في بلاد الشام

تعاني المصادر الرئيسية من نقص كبير في المعلومات عن القبائل العربية في بلاد الشام من حيث اماكن سكناها وتحركاتها واحوالها . كما ان هذه المصادر لا تعطي هذه القبائل دورها الحقيقي في الاحداث التاريخية التي تتناولها ، وكانت هذه الاحداث تقتصر على فاعلية القادة أو الخلفاء .

كما ان المعلومات المتوفرة عن القبائل - على قلتها - لا تعير العنصر الزمني اهمية كبيرة فهي عند ما تعرض لاخبار القبائل لا تحدد الفترة الزمنية ولا تظهر التغيرات والتطورات التالية التي حدثت مع مرور الزمن في علاقاتها مع بعضها البعض ، وتحركاتها ونزعاتها السياسية والقبلية والعوامل المؤثرة عليها .

ويتركز اهتمام هذه المصادر على القبائل بذكر انسابها واصولها وفروعها . بالاضافة الى صلة القرابة او النسب التي تربط هذه القبائل بالبيت النبوي ، وتبدى المصادر من خلال ميول مؤلفيها اهتماما بذكر الامجاد والتفاخر بالسابقة بالاسلام .

---

١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ٤١

٢) اليعقوبي ، البلدان ، ٨٤ .

ولعل ذلك متأثرا بالاسس التي اتبعت في سجلات الديوان ، والتي اعتمدت القرابة من الرسول والسابقة في الاسلام وسيلة لتحديد أعطيات المسلمين المسجلين في الديوان ، كما ان هذه الاسس حددت المكانة الاجتماعية للقبائل بين الناس في كنف الدولة الاسلامية .

والمصادر التي توضح هذه الامور بشكل جيد هي : كتب الفتوح وكتب الانساب والتراجم بالاضافة الى كتب الجغرافيا التاريخية والكتب والمصادر الادبية على اختلاف انواعها . وكل مجموعة من هذه المجموعات تقدم معلومات من زاوية معينة ، وذلك حسب طبيعة كل منها . وتقدم لنا هذه المصادر صورة معقولة لوضع القبائل العربية من حيث موطنها وكبر حجمها وقوتها وعلاقاتها مع غيرها من جهة ، وعلاقتها مع الدولة من جهة أخرى .

ويمكن التعرف على القبائل التي ساهمت في الفتح ، والقبائل التي استوطنت في بلاد الشام قبل الفتح الاسلامي عن طريق المصادر المختصة بالمعلومات عن الفتوح الاسلامية ، والتي تبين دور هذه القبائل في عمليات الفتح كما انها تعطي معلومات عن اماكن استيطان هذه القبائل في بلاد الشام .

أما المصادر المهتمه بالانساب فان جل أهتمامها يتركز على علاقة الدم والقرابة بين القبائل . وتتناول اصولها وفروعها ونزعاتها ومفاخرها بالامجاد من خلال الغزو والمعارك . وتتوفر فيها بعض المعلومات عن مواطن هذه القبائل .

وتتوفر في كتب الجغرافيا التاريخية معلومات جيدة نسبيا عن مواطن القبائل وتوزيعها في البلاد الشامية خاصة والعالم الاسلامي عامه . ومعلوماتها تنقسم الى قسمين : فالاول معلومات مباشرة عن القبائل وتوزيعها ، والقسم الثاني هو معلومات غير مباشرة يمكن استنتاجها من خلال نسبة مكان ما الى قبيلة معينة او نسبة قبيلة معينة الى مكان ما . والمعلومات فيها عن القرن

الاول الهجرى قليلة نظرا لأنها كتبت في فترة متأخرة نسبيا اذا ما قورنت بغيرها من المصادر .

أما المصادر والكتب التاريخية والادبية فان معلوماتها عن القبائل على قلتها اكثر دقة من غيرها من الناحيتين الزمانية والمكانية ،لأن معلوماتها تكون في الغالب مُباشِرة عن القبائل ،خاصة في حياة معاوية ،ويمكن ان نستشف من خلال الروايات اسماء القبائل ودورها في الاحداث وعلاقاتها مع الخليفة اوذلك عن طريق تتبع أحاديث الخليفة في مجالسه وخطبه وتدابيره العملية . كما ان المصادر الأدبية تعطي معلومات أوفر عن النواحي الاجتماعية والاقتصادية والادارية الى جانب ما تحتويه من معلومات سياسية وعسكرية .

وجدير بالذكر أن دراسة القبائل الشامية في نطاق هذا البحث، تعتبر دراسة محدودة من الناحيتين الزمانية والجغرافيه ،كما ان أوضاع هذه القبائل في خلافة معاوية كانت وليدة تطور يعود في جذوره الى فترات قديمة تعود الى ما قبل البعثة النبوية . مما يقتضي التطرق الى فترات قديمة نسبيا للتعرف على اوضاع هذه القبائل في خلافة معاوية .

وقد يعود الوجود العربي في بلاد الشام الى الالف الاول قبل الميلاد (١)، وقد توالت عملية الاستيطان بعد ذلك التاريخ على مدى القرون. وقد كانت العلاقة بين سكان الجزيرة العربية وبين بلاد الشام طبيعة اقتصادية تتراوح بين طلب المرعى والمتاجرة.ومن خلال هذه العلاقات وبموافقة الظروف السياسية في المنطقة تمكن عدد من القبائل العربية من الاستيطان في هذه البلاد .

---

١) الدكتور عبد العزيز الدورى" مقالة العرب والارض في بلاد الشام " مؤتمر تاريخ بلاد الشام ،عمان ، ١٩٧٤ .

وقد كانت هذه العلاقات بين سكان جزيرة العرب وبلاد الشام علاقات متغيرة حسب الاوضاع السياسية في الدولة البزنطية. ومن خلال هذه العلاقات أتيح المجال امام العرب لايجاد كيانات سياسية قوية في بلاد الشام لعبت دورا بارزا في التاريخ السياسي في تلك المرحلة ،وهذه الدول هي دولة الغساسنة ودولة المناذرة ودولة تدمر .

ونتيجة لقدم الارتباط بين عرب الجزيرة العربية وبلاد الشام ،نجد أن عددا من المناطق الشامية تنسب الى قبائل عربية . (١) فمثلا نجد في منطقة الجزيرة الفراتية بعض الاماكن التي تنسب الى هذه القبائل مثل ديار بكر وديار مضر وديار ربيعة . كما ان المصادر تكثر من ذكر اسماء القبائل التي سكنت بلاد الشام قبل الفتح الاسلامي مثل غسان ولخم وجذام (٢) وعامله وقضاعه (٣) والتي كانت خاضعة للحكم البزنطي .

وقد ساهمت بعض القبائل المتنصرة في بلاد الشام بمساعده اخواتها من قبائل العرب المسلمين التي خرجت من الجزيرة العربية لفتح المناطق المجاورة ونشر الاسلام فيها . (٤) وقد يكون الدافع في مساعدة هذه القبائل للمسلمين هو التخلص من السيطرة والنفوذ البزنطي ،اضافة الى رابطة الدم والقرابة بين هذه القبائل وبين القبائل المسلمة التي خرجت من الجزيرة العربية لنشر الاسلام. (٥)

---

1. J.Sourdel - Thomin. Art, "DiorBakr" Encycl. of Islam . Second Edition Vol .II P.p 343.

CL. cohen .Art"Diar Mudar" Encycl .of Islam second Edition Vol.II P.p 347.

٢) الواقدى ،فتوح الشام ،ج ١ ، ٥٤ ،ابن حبيب ،المحبر ، ١٢١ ،

٣) الازدى ،فتوح الشام ، ١٣٠ ،ابن حبيب ،المحبّر ، ٣٧٠ / ٣٧١ ،انظر شكرى فيصل المجتمعات الاسلامية ، ٢٦ / ٢٩ .

٤) الازدى ،فتوح الشام ، ٤٤ ، ٧٢ ، ٨٢ ، ١٣٠ (٥) المصدر السابق ، ٤٤

والمعلومات المتوفرة عن توزيع القبائل العربية في بلاد الشام قبل الفتح الاسلامي نجدها في معظم الاحيان في كتب الفتوح واخبار المعارك والغزوات التي قام بها المسلمون الاوائل . فترد رواية تبين ان بني تغلب والنمر كانوا يقيمون بأُليس على طرف بادية الشام فأغار عليهم خالد بن الوليد في احدى غزواته . (١) وهناك أشارة اخرى تذكر ان قسما من قبيلة طي قد هربت من الجزيرة في حياة الرسول واستوطنت في الشام . (٢) وأشارة اخرى تبين ان خالد بن الوليد قد أغار على أناس من الغساسنة بالقرب من مرج راهط فقتل وسبى منهم واخيرا صالح بقيتهم واسلموا . (٣)

ومن خلال أخبار معارك الفتوح ترد أسماء القبائل العربية المتنصرة في سوريا وأماكنها وأدوارها في الفتح . ومن أمثلة ذلك، رواية تذكر ان عددا من هذه القبائل كانت تقاتل الى جانب الروم في معركة فحل وهي قبائل لخم وجذام وغسان وقضاعة وعاملة . (٤)

ويلاحظ في بلاد الشام ظاهرة مميّزة في استيطان القبائل. وهذه الظاهرة هي ظاهرة "الاخلاط" . حيث سكنت القبائل المختلفة في مكان واحد الى جانب بعضها البعض. والمتتبع للروايات يجد ان كلمة (أخلاط) قد استعملت كثيرا في بلاد الشام للدلالة على التمازج بين القبائل . كما ان هناك عددا من الكتل القبلية الكبيرة والبارزة لم تكن في اصلها الا مجموعة من البطون اجتمعت لتشكل تحالفا قبليا أطلق عليه اسم موحد مثل كل من غسان وتنوخ . فالغساسنة بطون متعددة من الأزد نزلت بالقرب من ماء يسمى غسان فسميت باسمه . وتنوخ اسم لعشر قبائل اجتمعت فسميت بهذا الاسم لاجتماعها . (٥) وهذا النوع من

---

١) الأزدي ،فتوح الشام ، ٧٢ (٢) ياقوت، معجم البلدان ،ج ٢ ، ١٨٥

٣) الأزدي ،فتوح الشام، ٨٢ (٤) الأزدي ،فتوح الشام، ١٣٠

٥) القلقشندي ،نهاية الارب ،الالوسي، بلوغ الارب، ج ٣ ، ١٩١ ،عبد المنعم الغلامي ،الانساب والاسر، ج ١ ، ٩٤

التمازج والاندماج في الاستيطان في بلاد الشام كان مغايرا للتقسيمات القبلية في كل من الكوفة والبصرة،والتي حفظت القبائل في كتل قبلية متمايزة عن بعضها البعض،وذلك لخدمة أغراض الجهاد وتسهيل النواحي الادارية في تسجيل المقاتلين في سجلات الديوان .

وقد لعب أسلوب الاستيطان عن طريق الاختلاط في سوريا دورا كبيرا في خلق جو من التجانس والانسجام بين العناصر السكانية . كما ان ذلك ساعد في عدم عزل السكان العرب المسلمين عن غيرهم من السكان المحليين في سوريا.مما أتاح للعرب الاستفادة من خبرات السكان المحليين خاصة في مجال الموانيء والملاحة . (١)

وقد كان لطبيعة الاستيطان في بلاد الشام دور هام في فتح آفاق جديدة أمام العرب في حياتهم الجديدة ،واطلعوا من خلال تعاملهم مع السكان المحليين على انظمة جديدة تختلف عما اعتادوا عليه في حياتهم في الجزيرة العربية.وقد سهلت تجربتهم الجديدة .على الخليفة معاوية ادارتهم وضبطهم من خلال دولته . ولم يعد المرء يلمس مظاهر البداوة بصورها الاولى . وأصبح الجو يميل الى مظاهر التمدن والاستقرار بسبب التأثير المتبادل بين السكان .

ومن امثلة التوطين في سوريا بعد الفتح ما حدث في مدينة حمص التي تمكن أبو عبيدة من فتحها صلحا ،فأمّن اهلها على انفسهم واموالهم . ثم قسمت حمص خططا بين المسلمين وسكنوها في كل موضع جلا أهله عنه،أو سكنوا في المناطق غير المأهولة في المدينة . (٢) والقبائل التي شاركت في فتوح الشام هي قيس

---

١) البلاذري ،الفتوح ،ق ٢ ، ١٦٠ / ١٦١ ،اليعقوبي ،البلدان ، ٨٣ ،ابن عساكر تهذيب التاريخ ،ج ٦ ، ١٨٣ / ١٨٤ ،الهمداني ،صفةجزيرةالعرب ، ١٢٩ .

٢) ياقوت،معجم البلدان ،ج ٢ ، ٣٠٣ .

وكنانة ولخم وجذام وخثعم وغسان وقضاعة وعاملة (١) وحمير وطي والأزد وقليل من ربيعة وتميم وأسد. وذهب القسم الاكبر من القبائل الثلاثة الاخيرة الى العراق والمشرق. (٢) وشاركت بطون من قبائل همدان وخولان وكندة وحضرموت (٣) وزبيد (٤) وعك. (٥)

والمعلومات المتوفرة عن هذه القبائل لا تعطي مزيدا من التفاصيل عن حجمها واعدادها المشاركة او مراكزها الجديدة الا من قبيل التلميح العارض او الاشارة العامة. فمثلا نجد الازدى يقول من باب المفاخرة بقبيلته : " وخرج الناس على راياتهم وفيها أشراف العرب وفرسانهم ومن رجالهم وقبائلهم، ومنها الأزد وهم ثلث الناس وفيها حمير وهم عظم الناس".

ونلاحظ كما يلاحظ الأزدى ان معظم القبائل التي شاركت في فتح بلاد الشام كانت من القبائل اليمانية، بينما كانت القبائل المضرية - غرب الشمال - قليلة العدد وغالبيتها من قبيلة قيس. وهذا الوضع دفع القبائل اليمانية الى الشعور باهميتها وقوتها في فترة الاستقرار التي تلت عملية الفتح. (٦)

وقد يفسّر تجمع القبائل القيسية في الجزيرة الفراتية بسبب ان عددا من هذه القبائل سكنت في الجزيرة قبل الفتح الاسلامي، الامر الذى دعا اقرانها من

---

١) الأزدى، فتوح الشام، ٢٢٦/٢٢٧.

٢) المصدر السابق، ١٦٠.

٣) الأزدى، فتوح الشام، ٢١٨.

٤) المصدر السابق، ٢٢٣.

٥) ابن أعثم، الفتوح، ج ٣، ٢٦٣.

٦) الأزدى، فتوح الشام، ١٦٠، ٢١٨.

القبائل القيسية الجديدة الى الالتحاق بها والسكن الى جانبها . وذلك تحت تأثير المد القبلي اليماني الكبير ،في محاولة للاحتفاظ بهويتها عن طريق التحالف بينها والتجمع في منطقة محدودة . (١) خاصة وأن الخليفة عمر بن الخطاب قد أمدّ الجيوش الاسلامية في الشام بمقاتلين من اليمن ، وفضّلهم على غيرهم من الناس باعتبار بلاد الشام أرض أسلافهم من قبل (٢) .

ومن أقرب الروايات المباشرة عن القبائل الشامية هي تلك الروايات التي تعرض بالتفصيل لاحداث الصراع بين علي ومعاوية في صفين.والتي تفيد في التعرف على اسماء القبائل التي ساندت معاوية في تلك المعركة وهي تشكل الغالبية العظمى لقبائل بلاد الشام . وتبين هذه الروايات مدى مساهمة هذه القبائل في الاحداث بناء على قوتها واعتماد معاوية عليها ،كما ان الروايات هذه تنسب بعض القبائل الى أماكن سكناها .

ومن أمثلة هذه الروايات رواية هامة تذكر أسماء القبائل المساندة لكل من علي ومعاوية وتنسب هذه الرواية كل قبيلة منها الى موطنها فتقول" .....وعلى قيس دمشق حسان بن بحدل وعلى قضاعة مصر بن عباد بن يزيد الكلبي ، وعلى كنده دمشق ابن حوى السكسكي ،وعلى كنده حمص يزيد بن جبير السكوني وعلى الحضرميين ابن عفيف ،وعلى قضاعة الاردن حبيش بن دلجة ،وعلى كنانة فلسطين شريك الكناني وعلى مذحج الأردن مخارق بن الحارث الزبيدي وعلى جذام فلسطين ولخمها نائل بن قيس الجذامي وعلى همدان الاردن حمزة بن مالك وعلى خثعم ولخمها فلان بن عبد الله الخثعمي وعلى غسان الاردن يزيد بن أبي النمس ."(٣)

---

١) الطبري ،التاريخ ،ج ٥ ، ٢١٦/٢١٧ ،الاصفهاني ،الاغاني ،ج ١٢ ، ٢٠٥ .

٢) عبد الامير دكسن ،الخلافة الاموية ، ١٤٠ .

٣) ابن خياط ،التاريخ ،ج ١ ، ١٧٨/١٧٦ .

نستخلص من الرواية السابقة ان معظم اهل الشام المناصرين لمعاوية هم خليط من القبائل القيسية واليمانية،لكن الاغلبية هي من القبائل اليمانية التي استطاع معاوية ان يسيطر عليها ويضبطها لخدمة أغراضه . وتكمن أهمية الرواية السابقة في أن معركة صفين هي معركة فاصلة ،ويتحدد على ضوء نتيجتها مصير الطرفين المتنازعين (١)لذا فان كل طرف جند لهذه المعركة كل طاقاته .(٢)

ومن خلال استعراض الشخصيات البارزة التي ساندت معاوية ،نجد ان قوة هذه الشخصيات مستمدة من قوة قبائلها ،وهذا الامر ينسجم مع الجو القبلي المبني على أساس أن قوة الشخص تنبع من قوة قبيلته ،فنرى مثلا على ميسرته حبيب بن مسلمه الفهرى وعلى أهل حمص عامة ذو الكلاع الحميرى وعلى أهل قنسرين الميمنة زفر بن الحارث وهو من مشاهير قبيلة كلب ،وعلى اهل الاردن ابو الاعور السلمي وعلى رجال أهل فلسطين الحارث بن عبد الأزدى ،وعلى ميمنته كلها حابس بن سعد وهو من قبيلة طي . (٣)

ويلاحظ ان معاوية في الوقت الذى جند فيه القبائل اخلاطا.جند أيضا قبيلة حمير لتقاتل اكبر القبائل العراقية وهي قبيلة ربيعة ، (٤)كما أن الرواية تعكس قوة الانسجام التي اوجدها معاوية بين هذه القبائل.فنرى القبيلة تحارب تحت لواء وقيادة قبيلة أخرى ،وهذه الظاهرة غريبة على المجتمع القبلي في الظروف العادية . ونستشف من هذا الوضع دور القبائل وفعاليتها في الأحداث .

ولعل استراتيجية معاوية في ترتيب القبائل في معركة صفين يفيد ما ذكر

---

١) البلاذرى ،الانساب ،ط١ ،ج٢ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ،الطبرى ،التاريخ ،ج٥ ، ١٣ ، ١٥ ،الدنيورى ،الاخبار الطوال ، ١٦٧ .

٢) ابن خياط ،التاريخ ،ج١ ، ١٧٨/١٧٩ .

٣) الطبرى ،التاريخ ،ج٥ ، ٣٤/٣٦ .

سابقا عن الاخلاط ،فنرى القبيلة الواحدة ،تتوزع في مساكنها بين دمشق وحمص والاردن وفلسطين . وبالتالي فانه من السهل التعامل معها بهذا الواقع من قبل الخليفة او الدولة . كما ان خطورة تشكيل كيان سياسي قبلي يظل بعيد الاحتمال في هذه المرحلة . (١)

ويصعب على الباحث الخروج بخريطة سكانية دقيقة لبلاد الشام بسبب سكن القبائل المختلفة على شكل أخلاط في مختلف المناطق والمدن ،بالاضافة الى صعوبة حصر المده الزمنية للمعلومات المتوفره عن هذه القبائل على قلتها ولعل هذه الدراسة تستطيع الخروج بتصور عام عن هذه القبائل .

يشار ابتداء الى قسمين كبيرين من القبائل وهما عرب الشمال - ومن فروعها القبائل المضرية والتي من أشهرها قيس وعرب الجنوب - وهي التي يطلق عليها اسم القبائل اليمانية ومن اكبر فروعها قبيلة قضاعة. وكما أشير سابقا فأن بلاد الشام اصبحت مكانا لهجرة القبائل اليمانية بفعل سياسة الخليفة الراشدى عمر بن الخطاب الذى اعتبر هذه البلاد موطنا لقبائل اليمن .

والمصادر تشير الى القبائل القيسية واليمانية وكانها في صراع مستمر ولكن هذا الصراع لم يكن واضح المعالم في حياة معاوية وتمشيا مع طبيعة المعلومات فسيتناول البحث كل قسم على حدة :

القبائل اليمانية :

من أبرز القبائل اليمانية الكبرى في بلاد الشام قبيلة قضاعة والتي شملت عددا من الفروع الكبرى.واهمها قبيلة كلب التي لعبت دورا اساسيا كبيرا في الحياة السياسية في بلاد الشام في حياة معاوية خاصة،وفي العهد الاموى عامة .

---

١) الطبرى ،التاريخ ،ج ٥ ،١٤٠ ،الهمداني ،صفة جزيرة العرب،١٢٩ .

وتركز المصادر على قبيلة كلب باعتبارها حاملة لواء قبائل قضاعة في الشام، الامر الذى حدا الهمداني ليقول : (وأما كلب ومساكنها السماوة لا يخالط بطونها أحد في السماوة ......) (١)

والروايات المتوفرة عن هذه القبيلة تعكس انتشارا واسعا لها في المناطق السورية. وقد سكن القسم الاكبر منها في بادية السماوة وحوران ، وسكن بعضها في بادية تدمر . (٢) وتشير رواية الهمداني الى ان مناطق انتشارها شملت سلمية والعاصمية وحمص وحماة وشيزر . (٣)

ونظرا لضخامة قبيلة كلب وصفها ابن حزم بأن بطونها كبيرة ومتعددة ومنها بنو عدى وزهير وعليم وبني جناب . (٤) وقد ساهمت عملية المصاهرة التي تمت بين الخليفة عثمان بن عفان وبين هذه القبيلة في رفع مكانة قبيلة كلب بين اقرانها من القبائل الشامية . فقد تزوج عثمان نائلة بنت الفرافضة الكلبية . وجاء معاوية بعده ليقوى الصلة بينه وبين الكلبيين بأن تزوج ميسون بنت بحدل الكلبية(٥) وقد ساهم معاوية ايضا في رفع مكانة قبيلة كلب في الشام ، فاصبحت هذه القبيلة قطبا بارزا من اقطاب الفتنه الثانية في مرج راهط . (٦)

ومن الجوانب السياسية الهامة التي تخطر على البال الدور الذى لعبته نائلة بنت الفرافضة بعد مقتل زوجها الخليفة عثمان ، فقد استطاعت ان تستثير القبائل الشامية بأن ارسلت قميص زوجها المقتول الملطخ بدمائه مرفقة به اصابعها

---

١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ١٣١ ، الاصفهاني ، الاغاني ، ٢٥٠ ، الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ٢٥ .

٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ١٢٩ ، البلاذرى ، الانساب ، ط١ ، ج٢ ، ١٢١ .
الاصفهاني ، الاغاني ، ج١٦ ، ١٥٠ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ٢٢٧ .
القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج١ ، ٣١٦ ، الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ٢٥ ،

٣) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ١٣٢ .

٤) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ٤٥٦ ، ابن خلدون ، العبر ، م٢ ، ٥١٧ .

٥) الاصفهاني ، الاغاني ، ج١٦ ، ٢٤٩ / ٢٥٣ .

٦) ابو تمام ، نقائض جرير والاخطل ، ٦ ، ٧ ، ٧٧ .

التي قطعت اثناء محاولتها الدفاع عن زوجها . فأخذ معاوية يروج لتلك الحادثة واستطاع بواسطتها استقطاب القبائل الشامية الى جانبه . (١)

ولم يقف الامر بمعاوية عند هذا الحد ، بل انه طلب الزواج من أرملة عثمان والح عليها الطلب ، لكنها رفضت وفاء واخلاصا لزوجها المقتول . وقد كسرت أسنانها وأرسلت بها الى معاوية كناية عن شدة رفضها لطلبه . وتأتي هذه المحاولة من قبل معاوية لتبين شدة اهتمامه بتبني قضية الخليفة عثمان وشرعية الطلب بدمه . وقد ساهم ذلك في حفز القبائل على الاستمرار في الوقوف الى جانبه . (٢)

ويشار في هذا المجال الى ان معاوية عندما كسب ود الكلبيين . فهو بالتالي استطاع ان يكسب ود الكثير من القبائل اليمنية المجاورة والموالية لهذه القبيلة نظرا لما تتمتع به هذه القبيلة من قوة واحترام بين القبائل الشامية .

واصبح الكلبيون يشعرون بفضلهم على الدولة في خلافة معاوية نظرا لثقلهم السياسي والعسكري الكبير . ومن هنا يمكن تفسير محاولة حسان بن بحدل الكلبي ادعاء الخلافة بعد وفاة معاوية الثاني بعدة ايام . ثم عاد ليتنازل بها الى الامويين من جديد . فتعرض للوم أقربائه الكلبيين الذين قالوا له : " ما له أخزاه الله لم ير نفسه ولا قومه لها أهلا " . (٣)

وبالرغم من ان معاوية لاقى نجاحا كبيرا في سياسته وتعاطفه مع قبيلة كلب والقبائل اليمنية الاخرى ، الا ان ذلك خلف آثارا سيئة على وضع القبائل الشامية بعد وفاته اذ ان هذه القبائل اصبحت محورا جديدا للصراع على الخلافة .

---

١) الاصفهاني ، الاغاني ، ج١٦ ، ٢٤٩/٢٥٣ .

٢) ابن حبيب ، المحبّر ، ٣٩٦ .

٣) مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ٨٣ ، ٨٥ .

وكانت محورا أساسيا من محاور الفتنة الثانية مرج راهط بعد ان اصبحت قبيلة كلب تتمتع بمكانة مرموقة،وانتشرت في معظم المناطق الشامية في كنف العطوة التي اولاها اياها معاوية ومن خَلَفَه من الامويين . (١)

وقد ضمت قبيلة قضاعة الى جانب كلب فروعا أخرى مثل بلي وجهينة (٢) . والمعلومات عن هاتين القبيلتين في بلاد الشام قليلة جدا وتقتصر على ذكر اسميهما عرضا دون تفصيل.ومن بطون قضاعة أيضا بنو وبرة وبنو الذئب بن أسيد وبنو القين وبنو كعب وبنو مالك . (٣)

ومن خلال الاحداث نجد ان القبائل الشامية وقفت تحت لواء هذه القبيلة في كثير من المناسبات،فترد رواية مفادها ان قضاعة كلها اجتمعت تحت رياسة وقيادة رجل كلبي هو حميد بن حريث الكلبي . وقضاعة دمشق كلها تحت قيادة حسان بن مالك في صفين . (٤) الامر الذي يعكس مدى قوة هذه القبيلة بين أقرانها من القبائل الشامية. ومن هنا يرى الباحث ان اسمها طغى على معظم القبائل اليمانية في المصادر.

ومن القبائل اليمانية الاخرى في سوريا قبيلتي لخم وجذام،وهما من القبائل التي سكنت في هذه البلاد قبل الفتح الاسلامي ،وقد ساعدت العرب المسلمين في فتح بلاد الشام . (٥) وقد سكنت قبيلة لخم في المنطقة المتاخمة للساحل بين

---

١) الاصطخري ،المسالك والممالك، ٥٢ ،ياقوت،معجم البلدان ،ج ٥، ١٢٢ ،ابن شداد ،الاعلاق الخطيرة، ٣٨ ،انظر عبد الامير دكسن ،الخلافة الاموية، ١٤٢/ ١٤٣

٢) الهمداني ،صفة جزيرة العرب، ١٣١ ،ابن الاثير ،اللباب في تهذيب الانساب، ٤٣

٣) المغيري ،المنتخب في ذكر قبائل العرب، ٣٦ ،انظر سمير القطب ،انساب العرب، ١٢٨

٤) ابن عساكر ،التاريخ الكبير ،ج ٤، ١٤٥.

٥) الاصطخري ،المسالك والممالك، ٦٢.

الرملة ومصر . وسكنت أقسام من هذه القبيلة في الجولان وحوران والبثنية ونوى وأطراف جبال الشراه . وسكنت أعداد منهم على شكل أخلاط مع قبائل أخرى في بادية الشام . (١) وقد كبرت هذه القبيلة وتفرعت الى عدة بطون ومن بطون قبيلة لخم في سوريا قبيلتي جزيلة ونمارة وتفرع عنهما في سوريا والعراق بنو عامر وبنو حبيب وبنو هاني . (٢)

أما قبيلة جذام فقد استوطنت في كورة بيت جبرين وهي من ضمن جند فلسطين . (٣) وسكن قسم منهم في المنطقة الواقعة بين مدين وتبوك الى أذرح ، ووجد أحد افخاذها بجوار طبرية من أرض الاردن حتى منطقة عكا على الساحل . (٤) ومن بطون هذه القبيلة عدد من القبائل الصغيرة هي جشم وزيد وحرام والتي لا ترد عنها أية تفصيلات في المصادر . (٥)

ويلاحظ أن قبيلتي لخم وجذام قد وقفتا مع معاوية تحت قيادة ناتل بن قيس الجذامي في صفين ، وذلك نظرا للقرابة التي تربطهما في الدم وتجاورهما في المسكن . وشأن هاتين القبيلتين شأن مختلف القبائل المسيحية التي لا تعيرها المصادر اهتماما كبيرا في الوقت الذي تركز فيه المصادر اهتمامها بالقبائل المسلمة التي ساهمت في الفتح .

---

١) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ٢٦ .
٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ١٦٦ / ١٦٧ ، المغيري ، المنتخب في ذكر قبائل العرب ، ١٢٥ .
٣) اليعقوبي ، البلدان ، ٨٤ ، ٨٥ ، القلقشندي ، نهاية الارب ، ٢٩ .
٤) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ١٢٩ .
٥) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ١٦٨ ، المغيري ، المنتخب في ذكر قبائل العرب ، ١٢٦ / ١٢٧ .

ومن القبائل اليمانية البارزة في بلاد الشام قبيلة عاملة وهي أحد بطون قبيلة كهلان . وفروعها في فلسطين عدة قبائل هي :بنو معاوية وبنو مشعل وبنو عجل . (١) وتجمع الروايات بأن قبيلة عاملة هذه سكنت في منطقة الجليل وسمي جبل الجليل باسمها فاصبح يدعى " جبل عاملة" . (٢) وهي من القبائل المسيحية والتي سكنت في بلاد الشام قبل الفتح الاسلامي ،وقد ساهمت في معركة فحل في مساعدة المسلمين . وقد شاركها في مساكنها في الجليل أخلاط من القبائل العربية الاخرى .

وهناك قبيلة كندة وهي أيضا من القبائل اليمانية وانتشرت في عدد من المناطق، اهمها دمشق وحمص (٣) وانطرطوس (٤) على الساحل الشامي ،وقد ساهمت مساهمة جيدة الى جانب معاوية في صفين .

أما قبيلة غسان اليمانية المشهورة فهي من القبائل القديمة في سوريا ،وقد أتيح لها أقامة كيان سياسي في هذه المنطقة في كنف الدولة البزنطية وقد أقام الغساسنة في منطقة مرج راهط (٥) وسكن قسم منها في المنطقة الواقعة بين حمص ودمشق وهم هناك يسمونها باسم (آل جفنة) (٦) وسكن قسم منهم في دمشق .

---

١) ابن عبد ربه ،العقد الفريد ، ٩٦،المغيري ،المنتخب في ذكر قبائل العرب ، ١٢٥ .

٢) الهمداني ،صفة جزيرة العرب ، ١٣٢ ،اليعقوبي ،البلدان ، ١٨٢ ،ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ٤١٩ .

٣) البلاذري ،الانساب ،ط١ ،ج ٥ ، ١٢٢ ،ابن خياط ،التاريخ ،ج ١ ، ١٧٨/١٧٩ .

٤) الازدي ،فتوح الشام ، ٨٢ ،ياقوت ،معجم البلدان ، ج ٢ ، ٨٥ .

٥) الهمداني ،صفة جزيرة العرب ، ١٣٢ .

٦) اليعقوبي ،البلدان ، ٨٢/ ٨٣ .

وقد ظل معظمهم على نصرانيتهم بعد الفتح .

ونظرا لوجود ظاهرة الاختلاط في المناطق الشمالية فسنحاول فيما يلي التعرف على السكان في المدن الرئيسية .

في حمص سكنت أخلاط من طي وكندة وحمير وكلب وهمدان ، وفي منطقة الرستن سكنت بهراء وتنوخ وصوران وقسم من اياد وسكن قسم من تنوخ في معرة النعمان وفي أفامية سكنت أخلاط من عذراء وبهراء ، وفي اللاذقية أخلاط من سليم وزبيد وهمدان ويحصب. (١) وبين السهل الساحلي وحمص سكن قسم من بهراء وسكنت معظم تنوخ بينهم وبين البحر. (٢) وفي جبلة أقام جماعة من قيس واياد . (٣) وفي جبل لبنان سكنت اخلاط من قريش مع القبائل اليمنية الاخرى . (٤)

وقد تعايش مع القبائل الشامية عدد من الاقليات غير العربية بالاضافة الى وجود أعداد كبيرة من المسيحيين نسبيا . بالاضافة الى اليهود الذين استقروا فيها قبل الفتح الاسلامي .

وقد كانت تجمعات النصارى في المناطق الشمالية من بلاد الشام وهم في الغالب من الأرمن . (٥) وقد سكن قسم منهم في المدن السورية مثل بيت المقدس

---

١) اليعقوبي ، البلدان ، ٨٠ / ٨١ .

٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ١٣٢ .

٣) اليعقوبي ، البلدان ، ٨٠ / ٨١ .

٤) المصدر السابق ، ٨٢ / ٨٣ .

٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ٢٨٦ .

وبيت لحم نظرا لمكانتهما الدينية عند المسيحيين ، ومن ابرز القبائل المسيحية العربية الغساسنة آل جفنة . (١) وقبيلة تغلب التي احتفظت بنصرانيتها بعد الفتح . (٢)

القبائل القيسية :

تزخر المصادر بأخبار القبائل المضرية وعلى رأسها القبائل القيسية في الفترة التي تلت معركة مرج راهط ، اذ ان التنافس بينها وبين القبائل اليمانية غدا على أشده في الصراع على المصالح الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

أما في الفترة الاولى من الدولة الاموية - خلافة معاوية - فان الصراع لم يكن واضح المعالم في هذه المرحلة لكن البدايات الاولى لهذا الصراع بدأت بالظهور اثر تزايد اعداد القبائل اليمانية بعد الفتح والركون الى الاستقرار .

فقد تفرعت القبائل القيسية عن قبيلة مضر الحجازية والتي خرج منها فرعان كبيران هما خندف وقيس ، وتفرع عن الاخيرة بطونا عديدة ، مثل غني وباهلة وغطفان ومره ونبهان . (٣) واتجهت هذه القبائل شمالا وسكن قسم منها في بلاد الشام وكان اقواها قبيلة قيس في الجزيرة الفراتية مع اخلاط من القبائل القيسية الاخرى مثل غني وبني سليم وكلاب . (٤) وقد سكن قسم من هذه القبائل غوطة دمشق واذرعات وبصرى

---

١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ١٣٢ ، انظر فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ١٢٨ ، سمير القطب ، أنساب العرب ، ١٤٠ . المغيري ، المنتخب في ذكر قبائل العرب ، ٥٧ .

٢) يحيى بن آدم ، الخراج ، ٦٢ ، البلاذري ، الفتوح ، ٧٥ ، ١٨١ / ١٨٢ .

٣) ابن خلدون ، العبر ، م٢ ، ١٠٦٤ .

٤) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ١٣٢ ، ابن حبيب ، المحبر ، ٢٥٥ ، ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ٢٤٧ ، الاصطخري ، المسالك والممالك ، ٥٥ .

وأريحا وعمان . (١) وسكنت ايضا قبيلة كلاب (٢) القيسية في قنسرين وجاورتها هناك تغلب وتنوخ وقشم (٣) وربيعة وبني هائلة . (٤)

ويشار في هذا المجال الى ان معاوية وهو من قبيلة قريش القيسية (٥) استطاع ان يستقطب القبائل اليمانية ويوجهها لدعم اركان دولته رغم قيسيته . وسيحاول البحث في الفصول اللاحقة معرفة الاساليب التي اتبعها معاوية في سبيل تطويع القبائل الشامية وكسب ولائها .

وقد جاور العرب في بلاد الشام أقلية فارسية خاصة في المناطق الساحلية في صور وصيدا وجبيل . (٦) وقد انتهج معاوية سياسة في استقدام الاقليات للاستفادة من خبراتها في مجال الملاحة البحرية وبناء الموانيء والسفن . وترد روايات تذكر وجود العجم دون تحديد اجناسهم او المناطق التي سكنوها . (٧)

---

١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ١ ، ٢٩ / ٣٠ .

٢) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ٤٥٣ .

٣) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ٢٥ .

٤) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، ج ٥ ، ٢٩٤ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٧٧ / ٨٠ .

٥) ابن خلدون ، العبر ، م٢ ، ٦٣٠ ، انظر حمد بن ابراهيم الحقيل ، زهرة الأدب ، ١٣ .

٦) اليعقوبي ، البلدان ، ٨٣ ، ابن حبيب المنمق ، ٣٩٦ .

٧) اليعقوبي ، البلدان ، ٨٤ / ٨٥ .

الفصـــل الثانـــي

١- علاقـــة البيت السفياني بالرســـول :

كان لبني أمية عامة — ومن ضمنهم السفيانيين — دور كبير فـــي النشاط التجارى في الحجـــاز، باعتبارهم ركنا هاما من قبيلة قريش، التـــي كانت تتمتع باحترام باقي القبائل العربية في الجزيرة العربية، وعلـــى أطـــراف باديـــة الشـــام .

وقد تمكن القرشيون مـــن السيطرة على اقتصاد القبائل العربية فـــي الحجاز، وسخرت هذه القبائل لتمهيد الطرق أمام قوافل قريش مقابل مبالـــغ يدفعها القرشيون لها . وقد استفاد القرشيون من خلال نشاطاتهـــم التجاريـــة في التعرف علـــى البـــلاد المجاورة لجـــزيرة العـــرب خاصـــة بـــلاد الشـــام .

وتزعم قريش في هذه المرحلة عدد من الشخصيات البارزة، والتي كان مـــن واجبها الاشراف على تنظيم العلاقات مع القبائل المجاورة والمنتشرة على الطـــرق التجارية، بالاضافة الى تأمين عصب الحيـــاة الاقتصاديـــة عن طريـــق التحالف مع القبائل التي تسكن على طول الطرق التجارية، لضمان وصـــول القوافـــل المحملة بالبضائع من اليمن ومن الحجـــاز ذهابا وايابـــا .

وبمجرد بزوغ فجر الدعوة الاسلامية ببداية نزول الوحي، بـــدأ القرشيـــون وعلى رأسهم أعيان بني أمية حملة قوية ضد الرسول ومن تبعـــه من المسلمـــين الأوائل، فقد اعتبروا ما جاء به النبي بدعة يجب القضـــاء عليها، انطلاقـــا مـــن شعورهم بأن المبادئ الجـــديدة قد تأتي على المزايا التي كانوا يتمتعـــون بهـــا في المجتمع الحجازى في الجاهليـــة، وبـــدأت المنافســـة بين الطرفـــين بشكل غير متكافئ، من حيث العـــدد والقـــوة والمكانـــة .

وقد ساعدت الظروف على بروز نجم الأمويين في تصديهم للرسول خاصة وأن أقرباءه الهاشميين استنكفوا عن الوقوف ضده بسبب رابطة الدم والقربى ، كما أن عددا من هؤلاء الهاشميين قد أسلموا (١) ، وهاجر منهم حمزة عم الرسول الى المدينة بعد هجرة الرسول اليها ، وقد تزعم أبو سفيان القرشيين في التصدى للرسول والمسلمين .

وناصب أبو سفيان وأقرباؤه الأمويين العداء للرسول في المدينة ، وظلوا يتتبعون أخبار المسلمين الذين ظلوا في مكة ، ويعاملونهم معاملة سيئة ويقفون حائلا دون استمرار الهجرة الى المدينة (٢) .

وحرص أبو سفيان والقرشيين في مكة على عدم الاعتراف للرسول بأية صفة سياسية في المدينة ، فعندما كان أبو سفيان يضطر للتفاوض مع أهل المدينة ، كان ينكر وجود الرسول بينهم ، والدليل على ذلك أنه عندما اعتدت قبيلة بني بكر على بني كعب ، ذهب أبو سفيان الى المدينة لحل الخلاف ، فلم يذهب الى الرسول ولم يقابله ، فذهب الى أبي بكر للتفاوض معه ، لكن أبو بكر رفض مفاوضته وأخبره بأن الأمر بيد الرسول لا بيده ، فذهب الى عمر بن الخطاب ، فأجابه بمثل ما أجابه الصديق ، وذهب الى غيرهما فلم يجبه أحد الى مطلبه ، فاضطر أخيرا لمقابلة الرسول ومفاوضته (٣) ، الأمر الذى يؤيد محاولة أبي سفيان لعدم الاعتراف بأية سلطة أو صفة سياسية للرسول .

وقد تزعم أبو سفيان عددا من المناوشات العسكرية بين مكة والمدينة ، مثل غزوة السويق التي شنها الرسول أثر اعتداء أبو سفيان على عدد من المسلمين ، وسرية رابغ التي بعثها الرسول فتصدى لها أبو سفيان ، وكانت هذه السرية أول لقاء رمي به بسهم في الاسلام (٤) ، ولكن سرعان ما تطورت الأمور

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، م١ ، ٥ .
(٢) الواقدى ، المفازى ، ج١ ، ٧٣ .
(٣) أبو يوسف ، الخراج ، ٣٠ .
(٤) الواقدى ، المفازى ، ج١ ، ١٨١ ، الطبرى ، التاريخ ، ج٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ .

فأصبحت نظرة أبي سفيان أكثر واقعية تجاه الرسول والمسلمين في المدينــــة بعد غزوة بدر، اذ أن قريشاً أدركت قوة مسلمي المدينة المتزايدة بسبـــب ازدياد عددهم بانضواء قبائل جديدة تحت لواء الاســـلام .

كانت غزوة بدر أول تجربة عسكرية قوية بين الطرفين ، ولعب أبــــو سفيان دورا بارزا فيها ، حيث أن القافلة التي خرج الرسول مع أصحابه للتعرض لها والاستيلاء عليها كانت برئاسته ، وكانت محاولة المسلمين هــذه هي السبب المباشر في وقوع المعركـــة (١) ، وكانت النتيجة هي انتصار المسلمين على قريش، حيث خرج القرشيون لحماية تلك القافلة .. لكن القافلة نجت بحيلة من أبي سفيـان دون الحاجة الى القوة العسكرية التي خرجت لحمايتها .

وترتب على انتصار المسلمين في معركة بدر ، ظهور المنافسة على أشدها بين مكة والمدينة ، وقرر القرشيون اعداد جيش جديد للانتقام من المسلمين ، فأرسلت قريش رسلا لجمع المقاتلين من قبائل ثقيف وكنانة ، وتقرر أن يتم تمويـــل هذا الجيش بأموال القافلة التي نجاها أبو سفيان من أيدي المسلمـــين (٢) .

وأعدت مكة جيشا كبيرا نسبيا بقيادة أبي سفيان ، وخرج برفقـــة المقاتلين عدد من نساء قريش ، ومن أبرزهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيـــان ، وتمكن القرشيون من تحقيق نصر عسكرى على الرسول والمسلمين ، ولكن أبا سفيـان لم يكن مقتنعا بذلك النصر ، بدليل أنه أرسل الى المدينـــة رسلا ليثبطـوا مـــن عزائم المسلمين ، لمنعهم من القيام بأى عمل انتقامي ضد مكـــة (٣) ، وذلك ادراكا منه أن الصــراع اتخـذ طابعا مصيريا يتحدد بموجبــه مستقبـــل أحـــد الطرفين المتصارعـــين .

---

(١) الواقـــدى ، المغازى ، ج ١ ، ٤٣ / ٤٥ .

(٢) البلاذرى ، الانساب ، ج ١ ، ٣١١ / ٣١٢ ، الواقدى ، المغازى ، ج ١ ، ١٩٨ / ١٩٩ .

(٣) الواقـــدى ، المغازى ، ج ١ ، ٣٢٧ .

وحاولت قريش تأليب أعداء الرسول والتعاون معهم ضده، خاصة يهود المدينة، وقبائل غطفان وبني مرة، وبني فزارة، وذلك للقضاء على الرسول (١)، وعلم الرسول بمسير هؤلاء القرشيين مع حلفائهم الى المدينة. فتحصن المسلمون في مدينتهم بعد أن حفروا خندقا لمنع أعدائهم من الدخول اليها، ونجحوا في ذلك، واقتصرت المواجهة على بعض المبارزات بين فرسان الطرفين، ثم عادت الأحزاب المتحالفة ضد المدينة، ولم تحقق الهدف الذى خرجت من أجله.

ويستدل من محاولة الرسول لأداء العمرة بعد غزوة الخندق أن المسلمين قد أصبحوا يثقون بقوتهم ويرون أنهم ندا قويا أمام قريش، لكن فكرة العودة الى القتال كانت مستبعدة الوقوع من قبل المسلمين، فقد خرجوا من المدينة وأعلنوا أنهم خرجوا معتمرين لا محاربين (٢).

وبالمقابل نجد قريشا تقبل المهادنة من خلال صلح الحديبية الذى عقد بين الطرفين، وقد كانت شروط هذا الصلح في معظمها في صالح قريش، لكن هذا الصلح يشكل أول اعتراف سياسي بكيان الرسول من جانب قريش.

وكان فتح مكة نهاية المطاف في تزعم أبي سفيان لقريش ووقوفه ضد الرسول والمسلمين (٣)، وكان انتصار الرسول مدعاة لتسليم أبي سفيان والقرشيين بالامر الواقع، وقد حافظ الرسول على كرامة أبي سفيان وعامله معاملة حسنة عززت نفسه وميزته عن باقي رجالات مكة، باعتباره زعيما مهزوما، فقد اعتبر الرسول دخول أى رجل من قريش في بيت أبي سفيان سببا في

(١) الطبرى، التاريخ، ج٢، ٥٦٦.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ٦٢٤.
(٣) البلاذرى، الأنساب، ج١، ٣٥٥؛ ابن حبيب، المحبر، ٤٧٣؛ ابن خلدون، العبر، م٣، ٥.

حصوله على الأمان على حياته(١) ، مقرنا أهمية بيت أبي سفيان بأهمية الكعبة التي جعلها الرسول أيضا ملاذا للحصول على الامان ، وكان لهذه المعاملة دور في اجبار أبي سفيان علي المسالمة ، وبالتالي فان باقي رجالات قريش حذوا حذوه في ذلك .

وبعد فتح مكة تحولت طبيعة العلاقة بين الرسول والقرشيين — بما فيهم بني أمية — من العداوة الى المسالمة والرضى بالواقع(٢) ، فبعد أن كانوا خصوما وأعداء للرسول وللمسلمين ، أسلموا وحسن اسلام غالبيتهم ، واستمر الرسول في الحفاظ على مستوى جيد من المعاملة مع أبي سفيان بعد الفتح ، في محاولة لتقريبه من الاسلام ، وانتزاع الحقد والضغينة من قلبه ، فكان أبو سفيان من الرواد الذين كانوا السبب في وجود فكرة " المؤلفة قلوبهم " في الاسلام . فقد كان الرسول يخص أبا سفيان بالأموال الكثيرة ، وجعله يشارك في عدد من الغزوات مثل غزوة القردة التي كانت بقيادة زيد بن حارثة(٣) ، كما أن الرسول أعطاه من غنائم غزوة حنين-وكان معه ولديه يزيد ومعاوية-مبلغ ماية وعشرون وقية من الفضة ، وثلاثماية من الابل(٤) ، في سبيل تألف قلبه ، كمايشير عدد من الروايات .

وتحسنت العلاقات بيت الرسول وأبي سفيان ، وتزوج الرسول ابنة أبي سفيان مما يدل على انفراج العلاقة واتساع نطاق الثقة بين الرسول وأبي سفيان ، وكان لعلاقة المصاهرة هذه دور في تمتين الروابط بين الرسول ومعاوية فيما بعد ، وقد روى معاوية عددا من الأحاديث عن أخته أم حبيبة زوج الرسول(٥) .

---

(١) البلاذري ، الأنساب ، ج ١ ، ٣٥٥ ؛ ابن حبيب ، المحبر ، ٤٧٣ .

(٢) المقريزي ، النزاع والتخاصم ، ٢ / ٣ ؛ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ٧٩ .

(٣) الطبري ، التاريخ ، ج ٢ ، ٤٦٢ / ٤٦٣ ؛ الواقدي ، المغازي ، ج ١ ، ٣١ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ج ٢ ، ١٢٣ .

(٤) الواقدي ، المغازي ، ج ٣ ، ٩٤٥ ؛ ابن حبيب ، المنمق ، ٥٣٢ ؛ المقريزي ، امتاع الأسماع ، ج ١ ، ٤٢٣ .

(٥) ابن حبيب ، المحبر ، ٨٦/٨٧ ؛ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ٢٦٦ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢ ، ١٢٣ .

وترد روايات أخرى في كتب التراجم والسير عن علاقة الرسول بأبي سفيان وولديه يزيد ومعاوية ، ومن ذلك أنهم كانوا يسايرونه في مواكب الحج ، كما أن الرسول أردف معاوية على راكبته في افاضته من منى الى مكة في حجة الوداع (١) .

أما زوج أبي سفيان هند بنت عتبة والتي كانت قبل الفتح من ألد أعداء الرسول ، فقد أسلمت بعد الفتح ، وقابلت الرسول في جملة من نساء قريش فصفح عنها على ما فعلت قبل اسلامها (٢) .

وكانت علاقة الرسول بمعاوية امتدادا لعلاقة أبيه بالرسول بعد الفتح ، ويرد في سيرة الرسول أن معاوية كان كثيرا ما يجالس الرسول ، ويكتب له بعض معاملاته ، ويدوّن بين يديه ما يريد (٣) ، فقد كتب معاوية للرسول كتبا أرسلها الى شيوخ القبائل ، يدعوهم فيها الى الاسلام (٤) ، وقد شاركه في عمله هذا عدد من أبناء بني أمية كمروان بن الحكم ، وعثمان بن عفان (٥) ، وهذا يعكس مدى نضوج الشخصيات الأموية وأهليتها لشؤون الادارة في فجر الدولة الاسلامية .

---

(١) المقريزي ، امتاع الأسماع ، ج ١ ، ٥٢٤ .

(٢) ابن الطقطقا ، الفخرى في الآداب السلطانية ، ١٠٤ .

(٣) البلاذري ، الأنساب ، ج ١ ، ٥٣٢ ؛ اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٨٠ ؛ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ١١١ .

(٤) اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٨٠ .

(٥) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ٦٤ .

ويبدو أن ازدياد الثقة والالفة بين الرسول ومعاوية دعته لأن يستكتبه على الوحي (١) ، وهذا أبعد ما يمكن أن يعكس ثقة الرسول به، كما أنه كان يستشيره في بعض أموره العامة ويدخله في أمور الشهادة على منح واقطاعات الرسول لبعض المؤلفة قلوبهم من العرب (٢) ، وبحكم الصلة بين الرسول ومعاوية ، يوصف معاوية بأنه من رواة الحديث عن الرسول .

وبالرغم من شبه الاجماع بين كتب السيرة والتاريخ على اعتبار معاوية من رواة الحديث وكتاب الوحي (٣) ، الا أن المستقصي للروايات يجد بعضها يقف موقفا سلبيا من معاوية وعلاقته بالرسول ، فمثلا يرد على لسان الحسن بن علي قوله (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اذا رأيتم معاوية يخطب على الاعواد فاقتلوه") (٤) .

وينسب للرسول أيضا أحاديث مشابهة للحديث المذكور، ولا شك أن لبني العباس دور كبير في رواية هذه الأحاديث بسبب عدائهم لمعاوية والأمويين .

---

(١) ابن خياط، التاريخ، ج ١ ، ٦٤ ؛ ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ٢٣٤ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ٨١ ؛ الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ١٢ .

(٢) القلقشندي ، معالم الانافة ، ج ٣ ، ٢١١ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ٨٤ ؛ ابن عساكر، التاريخ الكبير، ج ١٠ ، ٤٦٥ / ٤٦٦ .

(٣) ابن خياط، التاريخ، ج ١ ، ٥٩ ؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ١١١ .

(٤) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٠٨ .

ومن هنا فان أبرز مشاكل البحث هي كثرة الروايات المعاديـــــــة للأمويـــين ، خاصة وأن الكتابة التاريخية قد نضجت في العصـــر العباسي ، الأمـــر الـــذى يقتضـــي الحـــذر في تناول هـــذه الروايـــات .

٢ . بنو أبي سفيان وعلاقتهم بالخلفاء الراشدين :

ارتبطت الفاعلية العسكرية والسياسية للأمويين بزخم الأوضاع العسكرية والسياسية للدولة الاسلامية الناشئة ، وقد عملت الدولة على الاستفادة من كفاءة القبائل العربية المسلمة على أوسع نطاق ، وسخرت الكفاءات المتيسرة لنشر الديانة الاسلامية .

وقد كان للأمويين عامة ، والسفيانيين خاصة دور هام في الفتوح ونشر الاسلام ، وقد تم تعيين يزيد بن أبي سفيان نائبا للقائد العام في الجبهة الشامية أبو عبيدة عامر بن الجراح ، ورافق يزيد في هذه الحملة أخوه معاوية ، وقد أوكل لمعاوية عدد من المهام العسكرية والتي تمكن من انجازها بنجاح (١) .

ولم يكن أبو سفيان بعيداً عن الأحداث ، فقد رافق ولديه في هذه الحملة وكان يشغل وظيفة في الجيش ـ وهي البت في الخصومات والقضايا بين جنود المسلمين في معركة اليرموك (٢) .

وقد تعززت نفسية الأمويين في مشاركتهم في فتوح الشام ، وأصبحوا يرون في أنفسهم ركنا هاما من أركان الدولة الاسلامية الناشئة ، وكانت مساهمتهم هذه مدعاة لأن ينظر معاوية لنفسه ولقومه بأنهم من الرواد الأوائل في قيام الدولة ، وكان ذلك مدعاة للتفاخر بهذا المجد الذى حققه الأمويون .

---

(١) البلاذرى ، الفتوح ، ق ٢ ، ج ٤ ، ١٥٠ .

(٢) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، ج ٦ ، ٣٨٨ .

وبعد وفاة يزيد بن أبي سفيان ،فتح المجال أمام معاوية ، وأعطي فرصة جديدة في الارتقاء في منصبه العسكري ، فقد كلفه الخليفة عمر بن الخطاب بأن يتولى مهام أخيه يزيد في قيادة جيوش المسلمين في بلاد الشام (١) .

وكان سبب اعتماد الخليفة عمر على معاوية هو أن معاوية أبدى مواهبا قيادية وعسكرية عديدة في بلاد الشام ، ومن أهمها فتح كل من مدن عسقلان (٢) ،وقيسارية (٣) ، وحصن عرقة (٤) .

وساهمت هذه التجارب العسكرية الناجحة في اشهار معاوية على صعيد الدولة ، وعلى صعيد القبائل والمقاتلين في بلاد الشام، وأصبح معاوية يحتل مكانة جيدة في نفس عمر .

---

(١) البلاذري ، الفتوح ، ق ٢ ، ج ٤ ، ١٩٢ .

(٢) اليعقوبي ، البلدان ،٨٤ ، التاريخ ، ج ٢ ، ١٥٧ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ١١٢ .

(٣) البلاذري ، الفتوح ، ق ٢ ،ج ٤ ، ١٦٢ ؛ اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ١٥٠/ ١٥١ ؛ ابن خياط ،التاريخ ، ج ١ ، ١١٢ ؛ الازدي ، فتوح الشام ، ٢٨٣ ؛ سعيد بن البطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ٢٠ .

(٤) البلاذري ، الفتوح ، ق ٢ ،١٣٣ ؛ ابن شداد ،الاعلاق الخطيرة ، ٩٢ .

ويلاحظ أن عمرا عندما أنشأ الديوان جعل بني عبد شمس في مصاف أهل الشرف ، ووضعهم في المرتبة الثانية في الاعطيات بعد رهط النبي من بني هاشم من البدريين ، وكان عطاء معاوية خمسة آلاف درهم (١) .

ثم استقرت الامور في الشام، بعد أن تم فتح المدن الرئيسية بعد معركة اليرموك ، بينما استمر الفتح في الجبهة الشرقية والغربية في مصر وشمال افريقيا ، وفي هذه المرحلة بدأ معاوية يتصرف في الشام في سياسة شبه مستقلة تحت مرأى من الخليفة عمر ، وبشكل لم يجعل عمر يمانع أو يتدخل في هذه السياسة (٢) .

وقد بدأت معالم التمايز والاختلاف بين الشام وباقي الولايات العربية من حيث الادارة والحكم في ارتباطها مع الخليفة ، بالاضافة الى أنها امتازت في شكلها من خلال مراسم معينة تضفي على معاوية صفة تميزه عن باقي الولاة العرب .

فقد استعمل الوالي معاوية مواكبا رسمية خاصة بما يتبعها من مظاهر الابهة والسلطان ، وكان ذلك سببا في تعرض الخليفة عمر له ، فسأله عن هذا الابتذال والتبذير مع وجود الناس ذوي الحاجات يقفون في باب معاوية ، فبرّر ذلك بأنه متاخم في ولايته للروم ، ولا بدّ أن يظهر لهم جانب العز والمنعة في دار الاسلام (٣) .

---

(١) ابو يوسف ، الخراج ، ٤٧/٤٨ ؛ اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ١٥٣ .
(٢) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٢٥ .
(٣) ابن خلدون ، العبر ، م ١ ، ٣٦٠ .

ولم يكن الخليفة هو المعترض الوحيد على هذه التصرفات ، فقد تعرض لانتقادات الناس من حوله ، فوصفوه بأنه انما يفعل ذلك تشبها بملك الفرس وأطلق عليه لقب كسرى العرب ، وكانت هذه التصرفات من ضمن خصائصه في محاولته لمواكبة العصر الذى يعيش به رغم كل الانتقادات الموجهة اليه .

وقد فتح المجال أمامه على مصراعيه في عهد الخليفة الراشدى عثمان بن عفان ، وقد أصبح الخليفة الجديد يعتبر نفسه قيّما على مصالح أقربائه من بني أمية ، بالاضافة الى كونه قيّما على مصالح المسلمين عامة .

وقد اعتمد عثمان على معاوية في مواجهة عدد من المشاكل الادارية(١) والسياسية ، وقد جمع عثمان لمعاوية امارة الشام كاملة ، حيث ضم له قنسرين وما يليها من الجزيرة الفراتية سنة ٣١هـ ، فوجد متنفسا لمواهبه الكثيرة ، ومخططاته السياسية ، وشعر بأهميته وقوته في البلاد الاسلامية .

ومن خلال علاقة عثمان بمعاوية تفتقت فكرة انشاء الاسطول الاسلامي وغزا قبرص ، وعددا من جزر البحر الأبيض المتوسط .

وكان معاوية قد طلب هذا المطلب من الخليفة عمر(٢) ، لكنه رفض بسبب خوفه من اقحام المسلمين في تجربة ليس لهم فيها خبرة ولا مراس .

وبدأت تظهر في بلاد الشام تدابير ادارية جديدة ، تمخضت عن سياسة معاوية هناك ، فقد ازداد اهتمامه بمراسيم الولاية ، وأصبح يهتم اهتماما بالغا بالحكم ، وبذل جهدا كبيرا في سبيل المحافظة عليه ، ويبدو

---

(١) مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ٢٩/١ - ٣٠ ، ابن خلدون ، العبر ، م ٢ ، ق ٢ ، ١٠٣٧ .

(٢) اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ١٦٦/ ١٦٩ .

- ذلك من خلال اجراءاته في فرض اقامة جبرية على المعارضين في بعض المناطق ، كما أنه عمل على طرد من يرى فيهم خطرا على بلاد الشام والشاميين(١).

وما لبثت سياسة الخليفة عثمان تجاه أقربائه الأمويين ،أن تحولت نقمة عامة عليه في الأمصار وفي المدينة نفسها وهي مقر الخلافة ، لكن الشام لم تكن لتعاني من الاضطراب أو النقمة ، والفضل يعود الى سياسة معاوية بصفته أحد أقرباء الخليفة ، والذى استنّ في الشام سياسة فرضت احترام الناس له وللخليفة ، في الوقت الذى كانت فيه باقي البلاد تتخبط في بدايات الفتنة ، وتعود أسباب هذا التباين الى عدة عوامل امتازت بها بلاد الشام ، وسيعرض لها البحث في الفصل القادم المتعلق بالقبائل الشامية وعلاقتها بمعاوية .

وتدور حول الفتنة وأسبابها وأبعادها أسئلة كثيرة من ابرزها : ما يتعلق بدور مروان بن الحكم فيها ، وما هي فاعلية معاوية ودوره في الأحداث؟ وهل كانت محاولاته جادة في انقاذ الخليفة وما هو موقف الصحابة ، خاصة الهاشميين منهم وعلى رأسهم علي بن أبي طالب ؟ وما هي مبررات تصرفاته خلال وقوع الفتنة ؟ وما مدى جدّية دفاعهم عن الخليفة المحاصر في منزله ؟ .

والمصادر لا تعطي اجابة كاملة أو واضحة عن هذه التساؤلات ،بل أن هذه المصادر تعكس جوا من الغموض حول الفتنة ودقائق احداثها ،وسرعان ما أفاق المسلمون على أنفسهم بعد مقتل الخليفة ، ليخيم عليهم جوا عاما من

---

(١) ابن خلدون ، العبر ،م ٢ ، ١٠٣١ .

- الندم دفعهم الى خوض غمار فتنة سياسية عسكرية كلفتهم الكثير من الدم والجهد والمال ، وتعكس المعلومات الواردة عن موقف علي بن أبي طالب موقفا قلقا وغامضا تجاه القتلة ، الامر الذى عزز موقف معاوية في صراعه مع علي .

أما عن دور معاوية وموقفه تجاه الخليفة ، فالمعلومات قليلة ، ولا تعطي صورة واضحة عن هذا الدور ، فالمصادر تركز اهتمامها على فترة الصراع بينه وبين علي في صفين وما تلاها من أحداث .

ومن ضمن الروايات المتوفرة عن موقف معاوية قبيل الفتنة رواية (١) تذكر أنه قابل عثمان في المدينة قبل محاصرته ، وكان كلا منهما يشعر بالخطر ، وطلب الخليفة منه أن يشير عليه بما يصنع ، فنصحه معاوية بأن يقتل علي وطلحة والزبير ، فرفض عثمان مشورته . هذه واستغرب منه هذا الرأى بحجة أن هؤلاء من كبار صحابة رسول الله .

ومن ضمن مشورته للخليفة ، أن طلب منه أن يجعل له حرسا من أهل الشام وأن تكون أعطياتهم من بيت المال المركزى في المدينة فرفض ذلك ، فعرض عليه أن يقوم بتفريق الصحابة في الامصار لكي يضمن ابعاد خطرهم عن الخليفة ، فرفض عثمان انطلاقا من مبدأ أن هؤلاء هم من أهل الشورى فلا يفرقهم ويباعد بينهم وبين أهليهم وأولادهم .

وأخيرا تبين الرواية أنه طلب من الخليفة أن يعينه أو يعتبره وصيا عليه في حال قتله ، وأن يكون هو المفوض بالطلب بثأره ، فتذكر الرواية بأنه سمح له بذلك ، وفحوى هذه الرواية يتفق مع المنطق العام للخليفة عثمان ، كما أن الاقتراحات التي طرحها معاوية تتفق مع نفسية معاوية ، وقد أصبحت هذه المقترحات تدابير فعلية اتخذها معاوية بعد أن أصبح خليفة .

(١) مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ٣١ .

وتتوالى الظروف ويتفاقم الوضع في المدينة أثناء حصار الخليفة، ويتوافد عليه الثائرون من الأمصار، ويقتحمون بيته ويقتلوه، وتترد اشاعة عن قدوم نجدة أرسلها معاوية من أهل الشام، وقوام هذه القوة أربعة آلاف فارس بقيادة يزيد بن أسيد (١) .

وترد رواية أخرى مفادها أن عثمان نفسه قد أرسل يطلب النجدة من معاوية، وتعكس هذه الرواية جوا من القنوط واليأس الذي انتاب الخليفة حول وصول هذه النجدة في الوقت المناسب وقبل وقوع المحذور (٢)، كما أنه أرسل الى عامله عبد الله بن عامر في البصرة يطلب منه النجدة (٣)، وقد اقترح عليه المغيرة بن شعبة أن يغادر المدينة الى الشام لكنه رفض ذلك (٤) .

وفي ظل هذه الظروف حصلت أول وأكبر فتنة في التاريخ الاسلامي، وتم ترشيح علي بن أبي طالب للخلافة، وكانت هذه هي فاتحة عهد جديد من الصراع بين العرب المسلمين .

وينتاب الباحث شعور بضرورة البحث عن اجابات عدد من الأسئلة منها ما يتعلق بدور علي في المدينة خلال حصار عثمان وقتله (٥)، وهل كانت فكرة الخلافة تراود معاوية في هذه المرحلة ؟ وان لم يكن الأمر كذلك، فما

---

(١) مؤلف مجهول، الامامة والسياسة، ٣٩ .

(٢) المصدر السابق، ٣٧ .

(٣) ابن أعثم، الفتوح، ج ٢، ٢١٧ .

(٤) مؤلف مجهول، الامامة والسياسة، ابن خلدون، العبر م ٢، ١٠٤٠ .

(٥) ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ٨٥/ ٨٦ .

- هي الدوافع التي تقف وراء موقف معاوية ؟ فهل كانت محاولته للثأر فقط؟أم هي محاولة لاسترجاع مجد بني أمية الذى افتقدوه ؟ وما هي أبعاد مطامع معاوية الشخصية للوصول الى الحكم ؟ .

ويمكن للقارئ من خلال التحليل والمقارنة أن يستشف قدرا من الاجابة على تلك الأسئلة يمكن أن يزيل بعضا من الغموض الذى يكتنف هذه المرحلة من التاريخ الاسلامي .

فقد بويع علي خليفة للمسلمين ،وقد رشحه عدد من الصحابة البارزين ولكن الأمر لم يكن من الاستقرار ،بحيث تستتب الأمور كما كان يحدث في المرات السابقة ، فما لبث أن خرج عليه طلحة والزبير ، واتصلا بعائشة وأعلنوا عدم الرضا بامارة علي بن أبي طالب للمؤمنين ،وهم أول من طرح فكرة الثأر للخليفة المقتول ، وقد احرزوا سبقا على معاوية في هذا المجال .

وعندما علم الخليفة الجديد بالأمر ، أعلن عزمه على قبض زمام الأمور بالقوة والحزم ، وعزم على تجريد السيف ضد طلحة والزبير[1]، في الوقت الذى لم يبد فيه معاوية رأيا سياسيا واضحا في الشام .

وقد تمكن الخليفة من وضع حد لطلحة والزبير في موقعة الجمل ،وعن دور معاوية في هذه المرحلة ،ترد رواية تؤكد أنه حاول الوقوف جانب طلحة فكتب اليه يبايعه بالخلافة ، ومن بعده الزبير ،بالاضافة الى أن الأمويين ساهموا في اللقاء في موقعة الجمل ، وأعدوا لهذه الموقعة بعد ثمة ارسال أمير البصرة من قبل علي بعد أن نتفوا لحيته وشعره الى

---

(١) ابن الطقطقا ، الفخرى في الآداب السلطانية ، ٨٥/ ٨٦ .

- الخليفة (١)، كما أن طلحة والزبير رأوا في موقف معاوية في الشام عونا لهم في خروجهم على الخليفة (٢).

وبعد معركة الجمل، ضمن الخليفة بيعة مختلف البلاد الاسلامية ما عدا الشام، فعندما وصل نعي عثمان الى دمشق (٣)، بدأ معاوية حملة اعلامية وسياسية واسعة شملت دمشق وباقي أنحاء بلاد الشام، لاستثارة القبائل للطلب بدم عثمان.

وقد اعتمد معاوية على أسلوب عاطفي في استمالة الشاميين، وذلك بأن عرض قميص عثمان الملطخ بدمه ومعه أصابع زوجته المقطوعة، والتي قطعت أثر محاولتها الدفاع عنه (٤)، كما أنه شنّ حملة واسعة ضد الخليفة علي، واعتبره من المحرضين على قتل عثمان، أو ممن تثاقلوا عن الدفاع عنه ونصرته أثناء حصره على الاقل.

وقد عمل معاوية في هذه الفترة على توثيق علاقته مع أهل الشام، عن طريقة التعبئة الفكرية والسياسية التي انتهجها بينهم، وقد عمل أيضا على ربط مصالح هؤلاء الشاميين وتوحيدها مع أهدافه ومطامحه الشخصية، وزرع في نفوسهم اعتبار أن استمرار وجوده بينهم هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق أهدافهم. وسيعرض البحث العلاقات بين الشاميين ومعاوية في فصل لاحق.

---

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ١٠٥/ ١٠٦.
(٢) البلاذري، الانساب ط ١ ج ٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٥٦.
(٣) الدينوري، الاخبار الطوال، ١٥٥، الذهبي، سير أعلام النبلاء ج ٣، ٩١.
(٤) ابن الاثير، الكامل، ج ٣، ٢٧٦/ ٢٧٧.

وتناول عدد من الروايات موقف علي اتجاه معاوية ، والذي اتخذ طابـــع التشكك والحذر في البدايـة ، لذا فانه أجل النظر في بيعة أهل الشام لـــه حتى ضمن بيعة باقي الولايات والامصار ، ومرد تلك الحيطة عائد لعدة أسباب أولها صلة القرابة بين معاوية والخليفة المقتـول ، وثانيهما هو موقـف معاوية المسانـد لطلحة والزبير أثناء خروجهما على الخليفـة .

وقد شاور علي المقربين اليه ، وتداول معهم الآراء بشأن بلاد الشـام وواليها ، فأشار عليه البعض أن يقرّ معاوية على عمله ، لكي يضمن عدم معارضتـه والطلب بدم عثمـــان (١) .

وكثرت المراسلات بين الخليفة علي وبين معاوية في هذه المرحلة ، وكـان الخليفة يطلب من معاوية البيعة بالخلافة ، بينما كان الأخير يرفض ، ويبرر رفضه هذا بسبب موقف علي من قتلة عثمان (٢) .

ويعكس عدد من الروايات الواردة عن معاوية مطامحة في الوصـــول الى الخلافة ، وتتهمه هذه الروايات بأنه من المتباطئين عن نصرة عثمان لكي يحقق أغراضه ، ومن هذه الروايات رواية تذكر: أن ابن عباس قد طلب من معاوية وعمـــر بن العاص أن لا يدعّيا الطلب بدم عثمان ، واتهم معاوية بأنه كان سببا من أسباب النقمة على عثمان ، وذلك بأنه كان يزين له ما يصنع ، حتى ضاقت عليه صـدور

---

(١) البلاذري ، الأنساب ، ط١ ، ٢٠٨/٢ ، ٢٠٩ .

(٢) جمعت هـذه المراسـلات والخطـب فـي كتاب نشـره ماهـر حماده وهـو بعنـوان " الوثائـق السياسيـة والاداريـة فـي الدولـة الأمويـة " .

ـ الناس ثم أنه تباطأ عن نصرته وخذله لكي يتم قتله ، وأما عمرو بن العاص فيصفه ابن عباس بأنه كان أحد الذين أضرموا المدينة على عثمان نارا ، ثم هرب الى فلسطين ، وأخذ يحرض المسافرين عليه (١) .

ويتبين القارئ من خلال مجالس معاوية أن هذه الاتهامات قيلت بحضرة معاوية في مجالسه ، وكان معاوية لا يبدي اعتراضا على الاتهام ويكتفي بالسكوت ، كما أن تحالفه مع عمرو بن العاص ، أكبر دليل على صحة هذه التهم ، فقد كان عمرو من ألد أعداء عثمان في حياته ، ومن المحرضين على عثمان قبل قتله (٢) .

وقد ساهمت الظروف السياسية في تشجيع معاوية على موقفه من الخليفة علي بن أبي طالب ، ومن هذه الظروف خروج طلحة والزبير ، اذ أنهما من خلال حركتهما السياسية كانا حافزا قويا ومشجعا له في الخروج على علي ، ويدلنا على صحة ذلك أن معاوية قبل خروجهما أرسل زياد بن الأشهب الكلبي ليبلغ عليا بالصلح والبيعة مقابل توليه الشام واقراره عليها (٣) ، لكن خروجهما أزال تردده في ذلك .

وتجدر الاشارة الى أن حركة طلحة والزبير ، كانت سابقة خطيرة في الطعن في خلافة أمير المؤمنين من قبل أفراد يرون في أنفسهم جدارة وحقا في الخلافة ، الأمر الذي يسّر على معاوية الخوض في غمار صراعه مع الخليفة .

---

(١) البلاذري ، الأنساب ، ق١ ، ج٤ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ٧٨ ، مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ٢٠٠ ، اليعقوبي ، التاريخ ، ج٢ ، ١٧٥ .

(٢) البلاذري ، الأنساب ، ط١ ، ج٢ ، ٢٨٢ / ٢٨٣ .

(٣) المصدر السابق ، ٣٩٩ / ٤٠٠ .

ويشار هنا الى أن معالم شخصية سياسية أموية جديدة بدأت بالظهور ، ممثلة بمروان بن الحكم ، فقد لعب دورا غامضا في حادث مقتل عثمان ، ثم أنه كان يغري بين طلحة والزبير قبيل معركة الجمل ليوقع بينهما العداوة والبغض ، لكن أصحاب الجمل تداركوا الموقف ووضعوا حدا لتدخله (١) ، كما أن سياسة معاوية في الظروف الجديدة لم تتح لمروان أن يصل الى أهدافه بسبب عدم وجود ركيزة جغرافية وبشرية يستند اليها ، وقد نجح في ذلك في فترة متأخرة بعد أن تحققت له هذه الركائز .

(١) البلاذري ، الأنساب ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥٦ .

٣ـ معاوية وبلاد الشـــام :

لا بدّ قبل الخوض في الحديث عن الحياة السياسية في بلاد الشام ، أن نتناول العلاقة التي ربطت معاوية بهذه البلاد وأهلها ، ولا بدّ أيضا من التعرف علـــى السرّ في هذا التوافق والتحالف العضوي الفريد من نوعه في التاريخ الاسلامي بيـــن الطرفيـــن .

والعلاقة بين الأمويين وبلاد الشام ، تعود الى فترة قديمة ، تسبق البعثـة النبوية ، فقد كانت هذه البلاد هدف " رحلة الصيف " التي كانت تسيّر فيها قريـــش قوافلها التجارية الى بلاد الشام ، وقد كانت هذه البلاد موطنا هاجرت اليه القبائـل العربية منذ الألف الأول قبل الميلاد (١) . نظرا لخصوبة أرضها وجودة مناخها .

وقد نشأ معاوية نشأة عسكرية في ربوع هذه البلاد ، وأبدى براعة في مواقفـــه العسكرية والســـياسية خـــلال فترة الفتوح الاسلامية أيام خلافة عمر وعثمان (٢) ، ونتيجة لنبوغه في هذه المجالات بدأ يحتل مكانة جيدة بين قادة الفتح ،ومن ضمنهم أخيـــه يزيد بن أبي سفيان .

وبعد وفاة أخيه يزيد والذي كان قد خلف أبا عبيدة عامر بن الجراح في إمـــرة جيوش الفتح بعد إصابته بالطاعون ووفاته . تمكن معاوية من تولّي هذا المنصب واصبـح من ابرز قادة المسلمين آنذاك . وقد وجد في ذلك متنفسا لمواهبه وطموحه في تســيير الأمور في تلك المنطقة وفق سياسة محكمة ودقيقة .

وما يميز معاوية عن غيره من الولاة العرب ، هو أنه كان يتصرف بروح شـــبه مستقلة في بلاد الشام ، ويحاول دوما وقدر استطاعته أن يتحلل من الالتزامـــات التي يسيّر وفقها الخليفة باقي الولاة العرب في ولاياتهم (٣) .

(١) الدكتور الدوري ، مقالة "العرب والارض في بلاد الشام" في الكتاب الصادر عن موءتمر تاريخ بلاد الشام ، عمان ، ١٩٧٤ .

(٢) البلاذري ، الفتوح ، ق٢ ، ١٠٥ ، اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ابن خياط ، التاريخ ، ج ١ ، ١١٢ ، الدينوري ، الاخبار الطوال ، ١٢٦ .

(٣) ابن الطقطقا ، الفخري في الآداب السلطانية ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ابن خلدون ، العبر ، م١ ، ٣٦٠ .

وقد كان لقيامه بعدد من الاعمال العسكرية الناجحة ، دور في رفع مكانتـــــه بين المسئولين المســــلمين من جهة ، وبين عامة الجند والقبائل الشامية هناك . فقد تمكن مع فتح عدد من المدن السوريّة . وأصبح يرى في هذه الأعمال وسيلة لاشـــتهـــاره بين الناس ، وبدأ يشعر بأهميته كقائد عسكري وسياسي ، وأصبح في نظر الشـــاميين وغيرهم بطلا جديرا بالاهتمـام[1] .

وجدير بالملاحظة ان لسكان بلاد الشام مميزات خاصة عن غيرهم من العــــرب ساهمت في نجاح معاوية في خلق رابطة قوية مع هؤلاء السكان . وفي سبيل حصــــر هذه المميزات والخصائص لا بدّ من مقارنتهم مع سكان العراق ، للوصول الى الاســباب التي ساهمت في نجاح معاوية[2] .

فقد خضعت بلاد الشام قبل الفتح الاسلامي للحكم البزنطـــي ، وقد كـــان لهذا التعايش بين القبائل العربية والبزنطييـــن ، دورا كبيرا في اضفاء بعض مظاهــر الرقي والتمدن عليها ، وتخليصها من بعض مظاهر البداوة . وقد أدّى ذلك الى تــرك هذه القبائل لعادة الترحال المستمر ، واصبحت أكثر ميلا للاستقرار.ومن الطبيعـــي أن الاستقرار يساعد في سهولة انقياد هذه القبائل لأية سلطة مركزية .

ومن هنا فاننا قلما نسمع عن حركات معارضة بين القبائل الشامية ضد معاويـة أو غيره ممن تلاه من الخلفاء الأمويين . نتيجة لانضباط السكان وانضوائهم في ظــــلّ السلطة الحاكمة في دمشق .

ومن خصائص المجتمع الشامي بعد الفتح الإسلامي ، أن عدد القبائل الوافـدة الى بلاد الشام كانت قليلة نسبيا إذا ما قورنت بالقبائل العربية الوافدة الى العـــراق. وذلك يعود إلى أن المد الإسلامي اندفع بشكل مستمر نحو المشرق عبر العراق . لكـــن الفتوح توقفت أمام مقاومة البزنطييـــن في المناطق الواقعة شمالي جبال طوروس في سوريا .

---

(١) البلاذري ، الفتوح ، ١٣٣ ، ١٤٧ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ٣٢ .
(٢) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ٤٣٤ .

وقد ترتب على هذا الركود على الجبهة الشامية قلة عدد القبائل الرادفة ، بينما نرى الهجرة إلى العراق استمرت الى فترات متأخرة من العهد العباسي .

كما أن الطبيعة الاقتصادية لكل من العراق والشام لعبت دورا في تحديد حجم المهاجرين اليهما ، ففي العراق الأراضي وفيرة وغزيرة الانتاج بسبب وفرة المياه . بينما كانت موارد الارض الشامية محدودة نسبيا ، ولم تكن لتجتذب أعدادا كبيرة من القبائل العربية .

وترتب على قلة العرب الوافدين الى الشام ، واقامتهم بجانب المدن والمراكز السكانية الكبرى ، ترتب على هذا وجود نوع من التجانس البشري في الشام . خاصة وأن معظم الوافدين الجدد ، وجدوا أمامهم أقرباء لهم من قبائلهم . وقد ساعد ذلك التجانس على سهولة تطويع أهل الشام وانقيادهم لمعاوية .

وقد تناول عدد من الروايات ما يؤيد هذه الظاهرة ، وأخذت هذه الروايات تقارن بين طواعية أهل الشام ووحدتهم وبين العراقيين وكثرة تحزبهم وانشقاقهم.(١)

واستفادت بلاد الشام من ظاهرة أخرى ، كانت نتيجة من نتائج قلة الوافدين على سوريا ، والمقصود هنا قلة الصحابة في الشام ، بينما نجد أن عددا كبيرا منهم هاجر الى العراق ، واصبحوا من أصحاب الأملاك الكبيرة هناك . وقد ترتب على وجودهم هناك ، أن كلاً منهم كان يحاول أن يجعل من نفسه شخصية مرموقة لها آراء سياسية وعسكرية مستقلة ، ونظرا لتعدد القيادات في المجتمع العراقي فإن العراقيين عانوا من التحزب والتفرق تحت قيادة هؤلاء الصحابة .

وقد استفاد معاوية من هذه الظاهرة في صفين ، فقد كان لاجتهاد هؤلاء الصحابة وكثرة آرائهم أثرا في تصديع جبهتهم ، خاصة في فكرة رفع المصاحف على الرماح وطلب التحكيم .(٢)

---

(١) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، الثعالبي ، ثمار القلوب ، ٤٢٤ .

(٢) المبرد ، الكامل ، ج ٢ ، ١٥٣ .

وأدرك معاوية خطورة وجود الصحابة في الشام ، فقد طرد أباذر الغفاري من الشام إلى الحجاز في خلافة عثمان (١) . كما أنه رفض طلبا للمغيرة بن شعبه أثناء خلافته ، إذ أنه طلب منه أن يعفيه من ولاية الكوفة ، وأن يقطعه أرضا في قرقيسياء بين القبائل القيسية ، خوفا من أن يصبح بينهم خطرا يهدد أمن معاوية (٢) .

ثم ان معاوية حاول قدر استطاعته أن يربط وجوده بمصالح القبائل الشامية وقد استغل العداء بينهم وبين العراقيين على هذه المصالح ، في سبيل تأمين الوحدة بين صفوفهم خلال صراعه مع الخليفة علي بن ابي طالب (٣) . اضافة الى استغلاله لفكرة عاطفية في سبيل بقائهم الى جانبه في جبهة موحدة . والفكرة هي فكرة الطلب بدم الخليفة عثمان بن عفان .

وقد انتهج فيهم اسلوبا اعلاميا رفيع المستوى في سبيل المحافظة على وحدتهم ، فقد حاول رفع شأن بلادهم في انفسهم ، وكان يبرر لهم اختياره لهذه البلاد في نصرته بأن روى لهم عددا من الأحاديث النبوية ، تبيّن اهمية بلاد الشام وقدسيتها . ومن ضمن هذه الأحاديث ("عن عبد الله بن حواله الأزدي أن معاوية أمره أن يجمع الناس ، ففعل فقال في كلامه : ما أنا بخطيب ولا أحسن الخطابة ولكنني سمعت رسول الله يقول : "انكم ستجندون أجنادا ، جند الشام ، وجندا باليمن وجندا بالعراق . . . فقلت : خير لي يا رسول ان ادركني ذلك . قال : عليكم بالشام فمن أبى فليلحق بيمنه وليستق من غدره ، فإن الله قد تكفّل لي بالشام وأهله") (٤)

---

(١) ابن اعثم ، الفتوح ، ج ٢ ، ١٥٥ ، اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ١٧١ ، ١٧٢ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ٣٤٠ ؛ التنبيه والاشراف ، ٢٥٦ .

(٢) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢١٧ .

(٣) البلاذري ، الانساب ، ط ١ ، ج ٢ ، ٣٣٧ ، ابن اعثم ، الفتوح ، ج ٢ ، ١١٠ ، ابن عساكر ، تهذيب التاريخ الكبير ، ج ٤ ، ٣٧ / ٣٨ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ١ ، ٥٥ ، ٧٦ ، ٦٥ .

وقد تلى ذلك فيما بعد ، محاولة ترسيخ معاوية لقدسية بلاد الشام ، بـأن أمر بنقل المنبر النبوي من الحجاز الى الشام ، لكنه عدل عن ذلك بسبب ما يحدثه هذا التصرف من اضطراب من قبل الصحابة (١).

وقد استفادت البلاد الشامية وأهلها من عدم المعاناة التي عمّت معظم الولايات الاسلامية خلال خلافة عثمان، من خلال المعاملة الخاصة لأقربائه الأمويين الذين حاولوا كسب أقصى ما يمكن من وراء سلطتهم في الولايات ، فقد عمّت هذه الولايات الفوضى والنقمة على سياسة الخليفة وعماله . بينما كانت بلاد الشام تنعم بالاستقرار ، نظرا لأن الكلبيين - وهم من أكبر القبائل الشامية - كانوا أصهارا لعثمان ، بالإضافة إلى سياسة معاوية التي حملت مشاكل الشاميين .

وقد ساهمت سياسة الحاكمين في كل من العراق والشام ، في خلق جوّ من التمايز بين هاتين المنطقتين ، ففي الوقت الذي ظلّ به علي بن أبي طالب متمسكا بالمبادىء النظرية في تدعيم زعامته على الناس ، مثل القرابة بالرسول والسابقة في الاسلام ، فإن هذه الأسس باعتقاده ستظل مصدرا لطاعة الناس واحترامهم له . بينما في المقابل نجد معاوية يطبق سياسة عملية تتوافق مع المصالح العامة ، بغض النظر عن الأفكار النظرية والتي لم تعد مجدية في ظلّ الواقع العربي الجديد بعد الاستقرار في المناطق المفتوحة .

ولم يقتصر أنصار معاوية على أهل الشام ، بل انه جعل من بلاد الشام نقطة تجمع للموالين له من باقي الولايات ، فقد فتح المجال أمام هولاء للقدوم اليه والاقامة هناك ، والأمثلة عن هذا الموضوع عديدة خاصة في فترة صراعه مع علي بن أبي طالب.

ومن ابرز هذه الأمثلة بنو الارقم بن نعمان بن عمرو بن وهب بن ربيعة وهم من كندة ، كانوا مقيمين في الكوفة في الفترة التي كان فيها علي بن ابي طالب مقيما في العراق.

---

(١) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢٣٨/٢٣٩ .

وكانت العادة أن يلعن عثمان في الخطب ، فقرر هؤلاء الناس الرحيل عن الكوفة نظرا لحبهم لعثمان ، وكانوا يقولون " لا نقيم ببلد يسبّ فيه عثمان "[١] فأنزلهم معاوية في الرها . وحوادث نقله للسكان متعددة[٢] ولها مبرراتها .

وقد كانت للرابطة القويّة بين معاوية والقبائل الشامية أصداء ترددت من خلال الروايات ، ويبدو من خلال بعض هذه الروايات شدة الاستغراب لهذه الرابطة بين الطرفين ومتانتها ، .

ومن الأمثلة على ذلك ، عندما قدم عبد الله بن الكواء على معاوية ، فسأله عن رأيه في اهل البصرة فقال : "يقاتلون معاً ويدبرون شتى ! فسأله عن اهل الكوفة فقال : أنظر الناس في صغيرة واقعة في كبيرة ، فسأله عن أهل المدينة فقال : أحرص الناس على الفتنة وأعجزهم فيها ، فسأله عن اهل مصر فقال : لقمة أكل ، فسأله عن اهل الجزيرة فقال : كناسة بين مدينتين ، فسأله عن اهل الموصل فقال : قلادة فيها من كل خرزة ، قال معاوية : فأخبرني عن أهل الشام ، قال : جند أمير المؤمنين لا أقول فيهم شيئا ، قال معاوية : لتقولن !!! قال : " أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق ، ولا يحسبون للسماء ساكنا "[٣].

ويستطيع المرء أن يقابل بين صورتين من الولاء في تاريخ صدر الاسلام، الصورة الأولى هي ولاء المسلمين الأوائل للرسول في أيام بداية الدعوة حين كان الرجل يقاتل أباه أو أخاه أو أحد اقربائه المقربين في سبيل الرسول والإسلام . والصورة الثانية هي ولاء الشاميين لمعاوية ووقوفهم الى جانبه ، فنراهم في صفين ، القبيلة تحارب مثيلتها من القبائل العراقية ، فباتت قضية الولاء للحاكم تتعدى علاقات القرابة والدم[٤] .

---

(١) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ٤٢٦ .

(٢) ابن حبيب ، المنمق ، ٣٦٨ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ١ ، ٣٠٤ ، ٣٤٤ .

(٤) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ١٤ .

ففي الوقت الذى كان علي بن ابي طالب يهدف فيه من وراء ترتيب القبائل على هذا الشكل ، إجبار الشاميين على التراجع عن القتال ، حصل عكس الذى كان يتوقعه من تقاعس الشاميين عن خوض القتال الى جانب معاوية ، فقد حصل هذا التقاعس في صفوف أنصاره العراقيين ، بينما استمر الشاميون يحاربون بضرواه إلى جانب معاوية .

وبالرغم من الاشارات الواردة عن ارتباط معاوية بالشام والشاميين ، الا أن هذه الرابطة المتينة تظل لغزا غامضا ومحيرا ، نظرا لطول المدة التي استغرقها هذا التحالف ، طيلة فترة الإمارة والخلافة والتي تقارب الأربعين عاما .

٤ـ صراع علي ومعاوية في صفين :

بعد هزيمة أصحاب الجمل غدت المواجهة حتمية بين الخليفة ومعاوية ، واتخذت العلاقة بينهما طابعا ساخنا ، ما لبث أن تحول الى صراع دموي عنيف ، تمخضت عنه معركة صفين المشهورة والتي كانت حدثا خطيرا على الأمة والتاريخ الاسلاميين .

والحديث حول هذه المعركة يطول ، وذلك أن المصادر على اختلافها تناولت هذه المعركة من قريب أو بعيد ، لأهميتها وآثارها التي جرّت على العالم الاسلامي ويلات عديدة . ولكن هذا الباب سيتطرق لدور معاوية في الأحداث ، وأثر هذه الأحداث على الحياة السياسية في بلاد الشام . وما ترتب عن علاقة معاوية بالقبائل الشامية .

ويشير عدد من الروايات الى أن معاوية أول ما بدأ في خروجه على علي ـ أعلن المطالب بدم الخليفة المقتول ، وأن أهل الشام في البداية بايعوه أميرا لا خليفة[1] . ليتبنى قضية الثأر من القتلة ، ثم يجعل الأمر شورى بين المسلمين ، ليختاروا خليفة لهم ، وهذه البداية للصراع تتفق مع المنطق السياسي الذي اتبعه معاوية في جعل الأمور تتطور بشكل تدريجي لتحقيق أهدافه .

وبدأ كل من معاوية وعلي بتعبئة قواته وأنصاره ، في سبيل اللقاء المنتظر ، وقد رافق هذه التعبئة حملات إعلامية من خلال الخطب والمراسلات المتبادلة بين الطرفين ، وكان كل طرف يحاول تثبيط عزائم خصمه ، لكن الهدف كان مختلفا لكل واحد منهما فالخليفة علي حاول قدر إمكانه منع وقوع الإقتتال ؛ حفاظا على دماء المسلمين ، بينما كانت أهداف معاوية خبيئة في نفسه لا يعرفها حتى المقربين من أنصاره .

---

(١) اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ١٨٦ / ١٨٨ ، الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ٦٢/٦٢ .

وكرّس معاوية جهوده لاختيار بطانة قوية ، يعتمد عليها في تدبير أموره ، فعمل على تجنيد وجوه أهل الشام وزعمائهم لنصرته ، وبواسطتهم استطاع أن يجند عامة أهل الشام ، .

ومن أبرز خطوات الاستعداد التي اعتمدها ، أنه استقطب بسياسته وحنكته عمرو بن العاص الى جانبه ، وقد حقق بهذا التحالف أهدافا عديدة ، منها أنه ضمن الى جانبه أحد أدهى دهاة العرب في السياسة والمكيدة ، ثم انه تمكن بواسطته من ضمّ مصر إلى جانبه ، وذلك مقابل اعطاءه ولايتها ما عاش.(1) وبالتالي فإنه ضمن عدم معاداته له ، بعدم انضمامه الى جانب خصمه علي .

وبالفعل فقد جنى معاوية ثمار جهود عمرو بن العاص ، فقد كان للأخير فضلا كبيرا في ادارة شؤون معاوية الادارية والعسكرية ، وقد أدرك الخليفة علي خطورة التحالف بينهما فارسل رسالة الى عمرو يذكره فيها بضرورة اللحاق بالجماعة الاسلامية ويحذره من خطر الفتنة على المسلمين .(2)

ونظرا للخدمات الكبرى التي اسداها عمرو لمعاوية ، بدأت نفسه تحدثه بأهميته وأحقيته في مسك زمام الأمور بدلا منه ، فأصبح ينافسه في المركز السياسي والعسكري ، ونستطيع الاستدلال على ذلك من مواقف عمرو التي كان يعتبر نفسه فيها ندّا لمعاوية . فهو إن لم يكن يساويه في القدر ، فهو يتفوق عليه . حتى أنه أصبح من المنافسين الخطرين له على الحكم بعد انتصاره .(3)

وقد سبقت معركة صفين مراسلات عديدة ، كان الغرض منها درء الفتنة ومنع الصدام ، وقد كان علي اكثر التزاما بهذا المبدأ ، فأكثر من الرسل الى معاوية في سبيل ذلك ، وبالمقابل كان معاوية يعبئ قواته ويستعد للقاء ، ويعتبر موقف خصمه هذا وسيلة لتحزيز نفوس الشاميين ضد علي وانصاره .

---

(1) البلاذري ، الانساب ، ط١ ، ج٢ ، ٢٨٢ / ٢٨٥ ؛ مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ٩٩ ، الدينوري ، الأخبار الطوال ، ١٥٧ / ١٥٦ .

(2) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ١٦٣ .

(3) البلاذري ، الانساب ، ق١ ، ج٤ ، ٩٩ / ١٠٠ .

ويخطر على الذهن سؤال بارز في هذه المرحلة وهو حول السر في تعنت علي في عدم معاقبة القتلة ؟ فهل كان من العسير التعرف عليهم ؟ أم أنّ هناك سرا آخر لم يحب علي أن يفشيه ؟ وهل يمكن إعتبار هذا التستر موضعا لاتهام علي تجاه مقتل عثمان ؟ أم أن هؤلاء القتلة كانوا من القوة بمكان ، بحيث أنهم كانوا يشكلون خطرا على جبهة علي لو أنه اتخذ بحقهم أي اجراء ؟

وتضمنت المراسلات التهديد والوعيد والدعاية لتثبيط المعنويات[1] ، كما أن هذه المراسلات تناولت عددا من المبادئ والمفاهيم السياسية بهدف جمع الصف وتوحيد الكلمة ، وحفظ دماء المسلمين ، .

لكن معاوية استمر في اصراره على قتل القتلة أو تسليمهم له ، مقابل دخوله في الجماعة الاسلامية ، كما أنه كان يكيل التهم لعلي في مناسبات مختلفة ، ويعتبره من قتلة عثمان أو من المسببين لقتله . وكان يشترط اقراره على الشام[2] وبالمقابل فإن عليا كان يتهمه بأنه لم يطلب دم عثمان الا وسيلة يتذرع بها للوصول الى اهدافه[3] .

وكانت علاقتهما أول قضية تثير جدلا ونقاشا حول الافكار السياسية والادارية المتعلقة بمنصب الخليفة وشروط انتخابه ، ومن خلال هذه المحاورات الكلامية والجدل ، كان كل طرف يحاول اثبات أحقيته في تحقيق أهدافه . ففي البداية لم يعتبر معاوية نفسه خصما منافسا لعلي في الخلافة ، فهو فقط صاحب قضية ويطالب بالحق[4] .

---

(١) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٥ ؛ الدينوري ، الاخبار الطوال ، ١٤١ .

(٢) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٦ ؛ البلاذري ، الانساب ، ١/١٧ ، ج ٢ ، ٢٠٢ .

(٣) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ١٥٦/١٥٧ .

(٤) البلاذري ، الانساب ، ١٧ ، ج٢ ، ٢٩٣ .

وتطور الأمر الى أن اصبح معاوية يطلب من علي الثأر من القتلة والتخلي عن منصب الخلافة[1] ويضمه شورى بين الناس ، ومن الواضح أن معاوية كان يتصرف وفق ما تقتضي الظروف والأوضاع ، مما أدى الى تقبل أنصاره لأفكاره ويلتفون حوله بإصرار وقناعة ، وفي المرحلة الأخيرة لم يستكثر على نفسه أن يصبح ندا لعلي يكافئه في المقدرة والقوة والزعامة[2] .

وقد فشلت مساعي علي في الوصول إلى حل سياسي لاتقاء الفتنة ، وقد كان يطلب من أنصاره أن لا يقاتلوا إلا إذا أكرهوا على القتال . وبلغ به الأمر أن طلب من معاوية مبارزته ، والغلبة والنصر لمن يقتل خصمه ، وذلك للحفاظ على دماء المسلمين، لكن معاوية رفض المنازلة خوفا من قوة علي[3] . وقد ساهمت سياسة علي هذه في رفع معنويات الشاميين ، وقوّت من التفافهم حول خصمه معاوية .

ومن خصائص بدايات القتال في معركة صفين ، أنه اتخذ صفة المناورات السياسية والعسكرية ، ثم بدأ القتال على شكل مبارزة بين الفرسان والمشاة من كل طرف ، في الوقت الذي كانت به فئة من اصحاب النفوس المؤمنة ـ وهم القراء ـ يحاولون تقريب وجهات النظر لحل المشكلة دون قتال[4] .

وقد رتب علي قواته بحيث تقاتل كل قبيلة من قبائل العراق مثيلتها من قبائل الشام وان لم يكن لإحداها مثيل في الشام جعل لها قبيلة مثلها في الشام[5] ، وقد احتدم القتال بعد الخلاف حول سيطرة أهل الشام على مياه نهر الفرات في تلك المنطقة ، فحمي الوطيس وسقط عدد كبير من القتلى من كلا الطرفين ، وكان منهم عدد من الصحابة . واستمر القتال الى أن ضعفت جبهة معاوية ، فجاء دور الحيلة واستعمال العقل في المعركة .

---

(١) البلاذري ، الانساب ، ط ١ ، ج ٢ ، ٣٠١ / ٣٠٢ ؛ الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٧ .

(٢) يظهر ذلك جليا في احداث معركة صفين من خلال كتاب "صفين" لنصر بن مزاحم .

(٣) البلاذري ، الانساب ، ط ١ ، ج ٢ ، ٣٠٤ / ٣٠٥ ؛ الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ١١ ؛ الدينوري ، الاخبار الطوال ، ١٦٧ / ١٦٨ .

(٤) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ١٥ ؛ الدينوري ، الاخبار الطوال ، ١٦٩ / ١٧١ .

(٥) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ١٤ ؛ الدينوري ، الاخبار الطوال ، ١٧٩ / ١٨١ .

فقد استغل معاوية المبدأ الذي ظل عليا متمسكا به وبعض أصحابه عليه . وهذا المبدأ هو الاقتصاد في دماء المسلمين وتفادي الاستمرار في الفتنة ، فرفع المصاحف على الرماح حكما بينه وبين خصمه ، وكانت هذه المكيدة من تدبير عمرو ابن العاص ، فحصل الانشقاق والتصدع في صفوف علي ، بين مؤيد لفكرة التحكيم ومعارض لها . وبالتالي تحولت هزيمة معاوية الى نصر محقق ، بعدما احدثه من الفرقة في صفوف العراقيين (١) .

واكتملت فكرة الدهاء والحيلة بانتخاب عمرو بن العاص حكما يمثل جانب معاوية ، وانتخب أبو موسى الاشعري ممثلا للجانب العراقي ، وقد انطوى على هذا الاختيار خدعة أخرى من قبل عمرو ، بأن اتفق مع أبي موسى على أن يخلع كلا منهما صاحبه ، ويجعلا الأمر شورى بين الناس ، وقد اعتاد عمرو أن يقدم أبا موسى في الأعمال تقديرا لكبر سنّه ومكانته ، فصعد أبو موسى على المنبر وخلع عليا ، بينما صعد عمرو وأعلن تثبيت معاوية (٢) .

وكان الاعلان الحكم أثر بالغ الخطورة في تعزيز الخلافات التي حدثت بين العراقيين ، وبدأت فكرة الخروج على علي ، وبلغت ذروتها في إعلان تكفيره وخلعه ومحاربته ، ففتحت الأبواب على مصاريعها أمام معاوية ، وقويت شوكته وتحسن موقف الشاميين ، في الوقت الذي انشغل فيه علي بتسوية مشاكله مع الخوارج .

ولو حاولنا استقصاء العوامل التي ساعدت على انتصار معاوية ، فهي كثيرة ومتداخلة ومتفاوتة في اهميتها ، ولعبت فيها سياسته في اغتنام الفرص دورا بالغ الاهمّية . ومن ابرز هذه الأسباب هو أن أهل العراق قد ملّوا السيف والقتال وكرهوا القتل ، مما ادى الى سهولة قبولهم لفكرة التحكيم ، وقد أجبروا عليا على ذلك ، ووافق على طلبهم خوفا من انكشاف الضعف بين أنصاره أمام عدوهم (٣) .

---

(١) البلاذري ، الانساب ، ط١ ، ج٢ ، ٣٣٦/٣٣٤ ، اليعقوبي ، التاريخ ، ج٢ ، ١٨٨/ ١٨٩ ، الدينوري ، الاخبار الطوال ، ١٩٢ .

(٢) البلاذري ، الانساب ، ط١ ، ج٢ ، ٣٣٧/٣٣٦ ؛ اليعقوبي ، التاريخ ، ج٢ ، ١٨٨/ ١٨٩ ؛ الدينوري ، الاخبار الطوال ، ١٩٢ .

(٣) البلاذري ، الأنساب ، ط١ ، ج٢ ، ٣٣٧ .

وقد ادركت القبائل الشامية فوائد وقوفها الى جانب معاوية ، فأخذ معاوية يرسل وجوه أهل الشام الى اطراف العراق والحجاز واليمن ، في حملات عسكرية ، وتحقق له من هذا العمل عدة فوائد منها أن الشاميين لم يعانوا من فترة ركود تفتح أمامهم الفرصة لحدوث اضطرابات عسكرية أو سياسية .

كما أن هذه القبائل غنمت الكثير من الأموال من غاراتها على الأمصار ، وقد مهّد بهذه الغارات الجو لكي يجني ثمار صراعه الطويل ، قبيل مقتل علي ، وكانت جذوة انصاره قد انطفأت أو أوشكت على النهاية في الولايات الحربية ، مما أتاح له الجو لكي يصبح خليفة بعد فترة قصيرة .

فقد أغار النعمان بن بشير على منطقة عين التمر ، فلم يلق مقاومة تذكر (1) ، وأغار الضحاك بن قيس الفهري على نواحي الفرات وغنم وعاد (٢) ، وأغار سفيان بن عوف ابن المنفل على الجانب الغربي من البادية الوسطى للفرات وغنم وعاد (٣) . وقد تسببت هذه الغارات في خلق جو من البلبلة والفوضى بين شيعة علي في الأمصار العراقية مما أتاح لمعاوية السيطرة على أجزاء من العراق (٤) .

وقد تمكن من ضمّ مصر الى دائرة نفوذه بواسطة عمرو بن العاص الذى تمكن من قتل عامل علي بن ابي طالب عليها ، وتولى إدارتها لصالح معاوية (٥) .

أما الحجاز فقد كان يشكل ركنا هاما وخطرا ، نظرا لكثرة عدد الصحابة هناك ، لكنهم التزموا الصمت والاعتزال السياسي خوفا من استمرار الفتنة ، واحتراما لمعاوية لمشاركتهم له في صحبة الرسول وكبر سنّه اذ انه كان من جيل آبائهم (٦) .

---

(١) البلاذرى ، الانساب ، ط ١ ، ج ٢ ، ٤٤٥ ؛ اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ١٩٥ .

(٢) البلاذرى ، الانساب ، ط ١ ، ج ٢ ، ٤٧٣ ؛ .

(٣) المصدر السابق ، ٤٤ ؛ النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦٤ .

(٤) البلاذرى ، الانساب ، ط ١ ، ج ٢ ، ٤٢٣/٤٢٥ .

(٥) المصدر السابق ، ٤٠٢/٤٠٣ .

(٦) محاضرات في تاريخ صدر الاسلام ، للدكتور أحمد بدر .

فأرسل معاوية عددا من الشاميين بقيادة ابن مسعود الفزارى الى تيماء، ليأخذ طاعة أهلها ، ويضع السيف في أنصار علي[١] . فلم يوفق بذلك فأتبعه بقوة أخرى بقيادة بسر بن أبي أرطأة الى المدينة ومكة واليمن ، لتحقيق نفس الهدف ، وتمكن من قتل عدد من انصار علي وشيعته هناك[٢] .

ثم أرسل من يعزز البيعة له وهو يزيد بن شجرة الرهاوى ، لاقامة الحج والصلاة باسم معاوية ، لكنه هرب إثر إرسال علي معقل بن قيس الرياحي ومعه الفي رجل[٣] ليمنعه من تحقيق هدفه .

وتوّج انتصار معاوية بمقتل علي على يد أحد الخوارج ، فخلت الساحة أمامه واصبح يرى نفسه خليفة من غير منازع في هذا الحق . وبدأت بذلك شمس دولة اسلامية جديدة بالبزوغ .

ولم يكن مقتل علي سوى إحدى نتائج تمزق أنصاره من حوله[٤] ، وبذلك أوجد الجو الذى تنفس من خلاله معاوية الصعداء بصفته المرشح الأقوى للخلافة بين الصحابة ، ولم يستطع غيره القيام بأى عمل آنذاك ، لأن معظم القوى قد استنفذت في صفين ، الأمر الذى سكّن النفوس الى حين .

---

(١) البلاذرى ، الانساب ، ط١ ، ج٢ ، ٤٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، ٤٥٣ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ٢١/٢٢ .

(٣) البلاذرى ، الانساب ، ط١ ، ج٢ ، ٤٥٣ .

(٤) البلاذرى ، الانساب ، ق١ ، ج٤ ، ١٧٦ ؛ الطبرى ، التاريخ ، ج٥ ، ١٤٤/١٤٦ ، موءلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ١٦٦/١٦٧ ؛ ابن الطقطقا ، الفخرى في الاداب السلطانية ، ١٠١ .

٥- تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة

أورث علي بن أبي طالب ابنه الحسن مشاكل فاقت طاقته، ولم يستطع احتمالها، وقد كان الحسن المنافس الوحيد لمعاوية، واتخذت العلاقة بينهما صفة خاصة امتازت بأن كلاهما يعتبر نفسه خليفة للمسلمين (١).

وأدرك الحسن سوء حالة أنصاره وتهلهل جبهته اذا ما قورنت بحالة أهل الشام من القوة والاتحاد تحت قيادة معاوية، وأحس بحتمية فشله اذا استمر في القتال، وأن حاله لن يكون أحسن من حال أبيه من قبله، وبدأ يشعر بانعدام الثقة نحو العراقيين بسبب خذلانهم لوالده، وتفرقهم من حوله، وقد أشارت معظم المصادر الاساسية الى ذلك (٢).

وبرزت في هذه المرحلة شخصية سياسية عسكرية طموحة حاولت زج الحسن في الاقتتال من جديد، وهذه الشخصية هي شخصية قيس بن سعد الذى وعد الحسن بأنه سينصره ويقف معه مع أهل العراق ضد معاوية (٣)، وكاد الحسن أن يستمر في الصراع، الا أن محاولة اغتياله أوقفته ومنعته من ذلك، وأفقدته الثقة بأصاره العراقيين (٤).

---

١) البلاذرى، الانساب ط١، ج٢، ٤٨٩؛ الطبرى، التاريخ، ج٥، ١٥٨؛ المسعودى، مروج الذهب، ج ٢، ٤٣٠؛ التنبيه والاشراف، ٢٦٠؛ مؤلف مجهول، الامامة والسياسة، ١٧٠؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٣، ٤٠٤/ ٤٠٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٣، ٩٦/ ٩٧؛ ابن خلدون، العبر، م ٢، ١٣٦/ ١٣٧؛ ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ١٠٨.

٢) المصادر السابقة بصفحاتها المشار اليها.

٣) البلاذرى، الانساب، ط١، ج٢، ٤٠٠/ ٤٠١.

٤) الدياربكرى، تاريخ الخميس، ج ٢، ٣١٣.

وهذه الأوضاع دفعته الى اليأس وسرعة القبول لفكرة الصلح التي عرضها معاوية ليختصر الجهد ويوقف القتال ، وأرسل له الرسل يطلب منه التخلي عن الخلافة. يشار في هذا الموضع الى أن الحسن كان أكثر التزاما من أبيه بمبدأ قطع دابر الفتنة تجنبا لاراقة دماء المسلمين ، ولو كان ذلك على حساب مصلحته ، كما أنه كان ميالا للحياة المسالمة البعيدة عن المشاكل وأدرك معاوية هذه الابعاد في نفسية الحسن .

ووافق معاوية على رسالة أرسلها الحسن ، اشترط فيها أن يأخذ الأموال التي أصابها في العراق ، وأن يعطيه الأمان مقابل تخليه عن الخلافة (١) ، وتم الصلح بينهما . ونظرا لشدة استبشار المسلمين بذلك ، أطلق المسلمون على هذا العام الذي جرى فيه الصلح اسم "عام الجماعة" بغض النظر عن الطريقة التي اجتمعت بها الأمة تحت امرة خليفة واحد .

وقد تلا هذا الصلح مولد الدولة الأموية في الشام والتي كان مؤسسها كما هو معروف الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، وقد كانت هذه المرحلة نقطة تحول في التاريخ الاسلامي على مختلف الأصعدة والميادين ، واحتلت هذه الدولة مكانة مرموقة في العالم وحملت راية العرب والاسلام حتى سنة ١٣٢هـ حينما استولى العباسيون على الخلافة .

---

(١) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ١٥٨ ، الدياربكري ، تاريخ الخميس ، ج ٢ ، ٣١٣ .

الفصـــل الثالـــث

الأوضـــاع السياسية في بلاد الشـــام

١- معاوية والقبائل الشامية :-

تشير الروايات التي تتناول القبائل الشامية في معلوماتها الى قسمين متمايزين من القبائل ، وهما القبائل القيسية والقبائل اليمنية ، ويعود هذا التشكيل الى أيام عرب الشمال وعرب الجنوب في الجزيرة العربية ، والتي تعود الى عدة قرون سبقت الاسلام (١) .

ولكن السؤال هو : هل اتخذت فكرة القيسية واليمنية أبعادا سياسية في حياة معاوية ؟ ومن خلال استطلاع الروايات المتوفرة عن هذين الفرعين من القبائل ، نجد أن هذا التمايز لم يكن يحمل ما يزيد عن المشاحنات القبلية التي تعتبر من مجمل سمات الحياة القبلية بأبسط صورها .

وقد ساهمت طبيعة الاستيطان في المدن الشامية على تخفيف حدة البداوة ، فتعلم الأعراب من خلال اختلاطهم بالسكان الأصليين بعض مظاهر التمدن ، كما أن حرفة السيف والقتال قد خفت حدتها في هذه المناطق خاصة بعد الهدوء على الجبهة الشمالية وتوقف الفتوح هناك .

وتفتحت أمام العرب آفاقا جديدة لم تكن معهودة لهم من قبل ، وأصبحت فكرة التبعية للسلطة المركزية بالنسبة للقبائل فكرة مقبولة ، لأن الدولة

بدورها تنظم العلاقات بين الافراد وتحافظ على مصالحهم المختلفة ، وبهذا النفع الذى تقدمه الدولة للقبائل ،أصبحت عطية الانضواء تحت لواء الدولة في الشام ،ملموسة أكثر من غيرها من المناطق العربية والاسلامية الاخرى.(١)

ولا يمكن أن نعزى التجانس السكاني في سوريا ،الى التأثيرات البزنطية التي خلفها البزنطيون في بلاد الشام فقط ،بل ان معاوية استن في هذه القبائل سياسة خاصة ،تمتاز بالذكاء والتنظيم ، ومن خلال هذه السياسة ،استطاع أن يطوع هذه القبائل بقيسها ويمنها في عهد امارته وخلافته ، وقد استطاع أن يخلق جوا من التوازن في بلاد الشام ،تمكن بواسطته من كبح جماح العصبية القبلية بنجاح كبير ، وتلافى الكثير من مساوئها وسلبياتها .

ومن العوامل التي ساعدت على نجاحه هو شهرته التي حققها على نطاق الشاميين من خلال مواهبه الادارية والعسكرية ،والتي تجلت في مشاركته العسكرية أثناء فتوح بلاد الشام ، ثم أن الظروف ساعدته في الترقي في منصبه ليصبح واليا على الشام والجزيرة الفراتية بعد وفاة أخيه يزيد ،فاتسع ذكره بين القبائل ، ثم عمل على ربط نفسه عن طريق المصاهرة مع قبيلة كلب كبرى القبائل الشامية ، لكي يضمن رصيدا من القوة في البداية ، ريثما يستطيع تدبير الامور .

وتجدر الاشارة الى أن الروايات تتكلم عن القيسية واليمنية في الشام(٢) بشكل متطرف ،وذلك لأن المصادر على اختلافها كتبت في فترة متأخرة زمنيا ،

---

(١) ابن حبيب ، المنمق ٣٩٩، الثعالبي ،ثمار القلوب ، ٤٣٤ .

(٢) انظر الخولاني ، تاريخ داريا ،والكتاب على صغره يعطي تصورا عاما عن حجم القبائل اليمنية في دمشق خاصة ، وفي بلاد الشام عامة .

فتناولت هذه القضية بعد أن تبلورت هذه المشكلة اثر معركة مرج راهط، حيث اتخذت العلاقة بين القيسية واليمنية طابعا دمويا ، ولكن هذه الصورة لم تكن حادة المعالم في عهد معاوية .

وشكلت القبائل اليمنية القسم الاكبر من القبائل العربية في الشام، بينما كانت القبائل القيسية محدودة العدد نسبيا ، اذا ما قورنت بقبائل اليمن ، وتقر المصادر بهذا (١) الواقع في حجم كل طرف من هذين الطرفين .

وكان من أشهر القبائل اليمنية المتواجدة في بلاد الشام آنذاك قبائل كلب ولخم وجذام وعاملة وبلي وربيعة ومضر وحمير وطي وكندة وهمدان ومذحج وغسان وبهراء والحضرميين وتنوخ (٢) .

أما القبائل النزارية فهي القبيلة الكبرى التي تنسب لها هذه المجموعة من القبائل، وهي قبيلة قيس ، اضافة الى قبائل غني وبني سليم وقبيلة كلاب وبني هائلة (٣) ، والتي تسمى بمجموعها القبائل القيسية .

وسياسة معاوية بين القبائل أكبر دليل على قدرته السياسية ومواهبه المتعددة كالذكاء وحسن التدبير ، ونستطيع الحكم عليه بذلك من خلال علاقاته

---

(١) اليعقوبي ، البلدان ، ٨٢ ، ٨٣ ؛ الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ٢٦ ؛ ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانساب ، ج ٣ ، ٤٣ .
(٢) اليعقوبي ، البلدان ، ٣٢٤ ؛ ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الأنساب ، ج ١ ، ٢٦٥ ؛ ج ٢ ، ٣٨٣ ؛ ج ٣ ، ١٨٦ ؛ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ٢٤٧ ، ٤٠٥ .
(٣) الهمذاني ، صفة جزيرة العرب ، ١٣٢ ؛ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ٢٤٧ / ٢٤٨ ؛ ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، ج ٥ ، ٤٢٩ .

الاولى مع هذه القبائل ، والتي اتخذ فيها أسلوب الدهاء في اقناع الشاميين في تبني السياسة التي يسيرها معاوية فيهم .

ومن أمثلة ذلك موقفه عندما جاء اليه خبر مقتل عثمان ، فقد دعا يزيد بن أسد وبسر بن أبي أرطأة وسفيان بن عمرو ومخارق بن الحارث وحمزة بن مالك وحابس بن سعد وغيرهم من أهل الرضا والثقة عند سيد أهل الشام ، وهو شرحبيل بن السمط . وطلب منهم أن يقيموا على الطريق بينه وبين معاوية ، فاستدعاه الى دمشق ، وأثناء قدومه كان يلقى الرجل منهم فيخبره بأن عليا مالأ على قتل الخليفة ، فجعلوا الرجل يمتلىء حقدا وغيظا على علي بن أبي طالب ، فلما دنا من دمشق أمر معاوية وجوه مدينة دمشق أن يستقبلوه ، فاستقبلوه وعظموه حتى دخل على معاوية ، وكان في حالة غضب شديد فقال: " أبى الناس الا أن عليا بن أبي طالب قتل عثمان ، والله لئن بايعته لنخرجنك من الشام " فقال معاوية : " ما كنت لاخالف أمركم ، وانما أنا واحد منكم " ، فطلب شرحبيل من معاوية أن يرد رسول علي الذي جاء يطلب البيعة الى صاحبه ، ففعل معاوية ذلك ، وقال له : " ان هذا الذى تهتم به لا يصلح الا برضى العامة ، فسر في مدائن أهل الشام وأعلمهم ما نحن عليه من الطلب بدم عثمان ، وبايعهم على النصرة والمعونة ". فسار شرحبيل في مدن الشام مدينة بعد مدينة ، يبث الفكرة في نفوس الناس ، ويطلب النصرة لمعاوية (١) .

ولمعاوية مواقف أخرى كثيرة ، مشابهة لهذا الموقف ، فهو يحاول دوما في تصرفاته مع القبائل وزعمائها ، أن يجعل من نفسه وصيا على رغبات

---

(١) ابن أعثم ، الفتوح ، ج ٢ ، ٤٠٦ / ٤٠٧ ؛ الدينوري ، الاخبار الطوال ، ١٥٩ .

أهل الشام ومصالحهم ، علما بأن هذه الرغبات كانت غالبا وليدة أفكـــاره وارادته .

كما أن سياسة المعلية والواقعية نحو هذه القبائل ، كان لها أكـــبر الاثر في كسب معاوية لطاعتها ،، وكانت سياسته هذه مجزية من النواحي المادية والمعنوية لأهل الشام على نطاق الأفراد والجماعات أو على نطاق الاقلـــيم ، وأصبح معاوية في نظرهم رمزا لوحدتهم السياسية والاجتماعية ، وبلغ في نفوسهم موضـع ثقة جعلهم يصبحون دوما رهن أوامره واجتناب نواهيـــه .

وبلغ ذلك في نفسه مبلغا عظيما من الشعور بالعظمة ، فقـــد كـان يعتبر نفسه المعلم الأول في الدولة ، وانعكس ذلك في احدى خطبه الـــتي يقـول فيها : " ايها الناس : اعقلوا قولي ، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيـــا والآخرة مني ، أقيموا وجوهكم وصفوفكم في الصلاة ، أو ليخالفن الله بـــين قلوبكم ، خذوا على أيـدى سفهائكم ، أو ليسلطن الله عليكم عدوكم فيسومونكـم سوء العـــذاب (١) .

وواجه معاوية مشكلة أعداد اليمانية المتزايدة ، وكثرتهم هذه أوصلتهم الى الشعور بالعظمة والتفاخـر (٢) بالقـوة حتى في مجلس الخليفة نفســه ، ويستدل على ذلك من خلال رواية دار فيها حوار بين معاوية وزوجته فأختــه بنت قرظة ، وقد طلبت من زوجها أن يعامل الناس بالقهر والسلطان ليتمكـن من اذلالهــم والسيطرة عليهم ، فأخبرها معاوية أن الامر يختلف عما تعتقده زوجته ، وأثبت لها ذلك عن طريق استدعاء عدد من الشخصيات البارزة مـــن زعماء قبائل اليمن ، وأظهر لهم جفاءً في مخاطبته اياهم بالتهديـد علــى مسامع زوجته فأختــه ، فأجابه كل منهم على انفـراد اجابات قاســـية

(١) محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والادارية ، ١٢٧ .

(٢) ابن الأثير ، اللباب في تهذيب الأنســاب ، ج ٣ ، ٤٣ .

تظهـر أنفتهم وقوتهم (١) .

وهذا خير دليل على قوة القبائل اليمنية واحتفاظها بطاعة شيوخها وسادتها رغم اعلان ولائها لمعاوية ، وكانت قوة هذه القبائل هي الضوابط التي وضعت حدودا لتصرفات معاوية لم يستطع تجاوزها ، ومن ذلك قوله : " لولا ذلك - أي قوة القبائل - لجعلت عاليها سافلها (٢) " .

وبدأت تظهر معالم التمايز واضحة بين القيسية واليمنية بعد أن عمل معاوية على بناء الأسطول ، لكي يهاجم موانئ وحدود الروم ، بالاضافة الى الدفاع عن سواحل سوريا ومصر ، فاستعمل المقاتلين من أهل اليمن للغزو في البحر ، واستعمل القيسية لغزو البر ، فكان ذلك مثارا لقريحة أحد شعرائهم الذي قال (٣) :

يا أيها القوم الذين تجمعوا بعكا أناس أنتم أم أباعر
أتترك قيس ترتعي في بلادكم ونحن نسامي البحر والبحر زاخر
فوالله ما أدري واني لسائل أكندة تحمي أصلنا أم يحابر
أم الفرّ من حَيَيَّ قضاعة أنهم هم أصلنا لو تستمر المرائر
أما كان في همدان حامي حقيقة ولا كان في عك ولا في الأشاعر؟

ولم يقف الأمر على قول الشعر ، بل ان مجالس معاوية لم تكن لتخلُ من مواقف التعصب والمعارضة من قبل اليمنيين ، ومن أمثلة هذه المواقف أن رجلا دخل على معاوية وهو الضحاك الحميري ، ولم يكن معاوية يعرفه فسأله عن أصله وفصله ، فأجابه الرجل بحديث زاخر بالمفاخرة ، ولم يذكر

---

(١) البلاذري ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٨٩ .
(٢) المصدر السابق ، ٨٩ ؛ يؤيد ذلك الخولاني ، تاريخ داريا ، ١٠٦ .
(٣) البلاذري ، الأنساب ، ق١ ، ج ٤ ، ٨٢ .

اسم قبيلته صراحة ،.فبدأ معاوية يعدد له القبائل من خلال سرده لمفاخر قبيلته ،فلم يهتد معاوية الى معرفة قبيلته ،فضاقت نفس الرجل ،فأجاب بقوله : أنه من بني ذي قابس ، وعدّد له مناقبهم وأمجادهم.واتهم معاوية بأنه حاقد على هذه القبيلة وأقرانها من القبائل اليمنية ،وذلك بأنه يقذفهم في لجج البحار في الغزو ،بينما هو يكرم قيس ولا يماطلها بالمثل ،ثم يستطرد فيردد على مسامع الخليفة فضل أهل اليمن عليه في بيعته بقوله : " فلولا انّا كما وصفت وأحلامنا كما ذكرت لمنعناك العهد ،ولشددنا لغيرك العقد " ، فغضب معاوية ولم يتمالك نفسه ،فقال : أضربوا عنقه ، فلم يبق في المجلس يماني الا قام سالاّ سيفه ،ولا قيسيّ الا عاضا على شفته ،فتدارك معاوية الموقف (١) .

ومن الحوادث البارزة التي تظهر التعصب اليمني هو أن رجلا تبجّج بقوة قبائل أهل اليمن ،وقال بأنهم سيطردون النزاريين - القيسية- من بلاد الشام،فوصل الحديث الى مسامع معاوية ، ففرض العطاء لأربعة آلاف من القيسيين(٢) ، لكي يخلق جوا من التوازن ،وبالمقابل فانه جعل غزو البحر تناوبا بين الطرفين حتى لا يظل النزاع قائما .

وأدرك معاوية حساسية الوضع القائم بين القبائل ،فانتهج سياسة وقائية لكل الظواهر السلبية الناجمة عن التعصب ، وكان يجمع بين وجوه

---

(١) ابن عساكر ، تهذيب التاريخ الكبير ،ج ٧ ، ٢٧/ ٢٩ .

(٢) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، ج ٥ ، ٣٠٠ .

القبائل من الطرفين في مجالسه ، ويحاول باستمرار التخفيف من حدّة النزاع بينهم ، لكنه بالرغم من ذلك ، كان يظهر تعصّبا لقبيلته قريش، ويحاول اظهارها على باقي القبائل العربية وتفوقها عليها ، ثم يلي قريش في مكانتها القبائل الأخرى مرتّبة كل حسب قوتها ومدى اعتماده عليها (١) .

وتبنى معاوية نظاما دعائيا جيدا له ولدولته ، في أرجاء البلاد العربية عامة ، وبلاد الشام خاصة ، وكان يتعرف على وجوه مشايخ القبائل وجهائها ، ويحاول استمالتهم بوسائله المختلفة بالترغيب والترهيب لكي يضمن عدم الخروج على طاعته ، كما أنه يفتح المجال لوجود المنافسين له بين القبائل ليمنع أيّة محاولة للتحزّب ضده بالسرّ (٢) .

ولا بد من الالتفات الى ملاحظة مهمة حول سياسته في القبائل ، وهي الاستقلالية التي تمتع بها الخليفة وانفراده بالسلطة ، فلا نراه يفتح مجالا لتدخل احدى الشخصيات المقربة اليه في الحكم أو السياسة ، كما أنه لم يجعل علاقته مع القبائل المقربة اليه مثارا لحفيظة غيرها من القبائل ، ايمانا منه بأن مثل هذا العمل مدعاة للظهور والتعالي على باقي القبائل ، ورغم دور قبيلة كلب الكبير فانه لم يضع هذه القبيلة في مكانة مميزة دون غيرها ، ولا شك أن معاوية في هذا المجال

---

(١) البلاذري ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٢٢، ٢٣ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ١٣٦ ؛ الزبير بن بكار ، جمهرة نسب قريش، ج ١ ، ٤٣٥ ؛ ابن حبيب ، المنمق ، ٧ .

(٢) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢١٧ ؛ الثعالبي ، ثمار القلوب ، ٦٧ .

استفاد من المعاناة التي جرها عثمان على نفسه من جرّاء معاملته الخاصة لأقربائه الأمويين .

ومن معالم معاملة معاوية للقبائل ، نرى بعض الاجراءات في نقل السكان وتوطينهم في مناطق جديدة ،لخدمة أغراض معينة ، ومن هذه الاجراءات ، سياسته المستمدة من سياسة الخليفة عثمان في فترة الامارة ، حيث أنزل العرب منازلا بعيدة عن المدن والقرى ،وسمح لهم بفلاحة الأرض التي لا أهل لها ، فأنزل بني تميم في منطقة الرابية ، وأنزل أخلاطا من قيس وأسد وغيرهم في منطقة المازحين ، وفعل مثل ذلك في ديار مضر ، ورتب قبيلة ربيعة في ديارها ، ووضع في المدن والقرى والمسالح الشمالية والساحلية ، من يقوم بالحماية العسكرية مقابل ما يأخذون من العطاء(١) .

كما أنه عمل على توطين بعض القبائل في المناطق الساحلية وشحنها بالمقاتلة وبنى عددا جديدا من المسالح ، وتحول بعضها فيما بعد الى مراكز سكنية مثل مدينة جبلة(٢) .

ولكي تستفيد الدولة من خبرات السكان المحليين والأقليات ، عمد معاوية الى اسكان أصحاب الحرف والمهن من الفرس في الموانئ ، وكانت تلك الموانئ النواة التي نشأ من خلالها

---

(١) البلاذري ، الفتوح ، ق٢ ، ٢٤٥ ؛ ابن حبيب ، المنمق ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ١٠٥ ؛ ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ٢٥٨ ، ١٦٣ .

الأسطول الاسلامي (١) .

وتوجد اشارة الى أن معاوية جمع يهود الأردن وأسكنهم في قرية تسمى كفر قدح ، وظلوا بها مع عدد من الروم الهاربين الى بلاد العرب من بزنطة الى أيام عبد الملك بن مروان (٢) .

ويمكن الحكم على اجراءات معاوية في توطين القبائل والأقليات بأنها محاولة لتوجيه طاقة الناس عامة لخدمة الدولة ، والاستفادة من القدرات المتوفرة فيها على أوسع نطاق ، وظل محاولا استقصاء أخبار القبائل للنظر فيما يمكن أن يتخذه من قرارات تجاهها (٣) .

وحاول معاوية أن ينقل نتائج تجاربه وخبراته في التعامل مع القبائل الى ابنه وولي عهده يزيد ، والى عماله وولاته الذين رسم لهم السياسة القبلية الواجب اتباعها ، وقد حدّد لابنه في وصيته قبيل وفاته سياسة واضحة محددة ينصحه باتباعها ، وأرسل الى عامله زياد بن أبي سفيان في العراق - رسالة جاء فيها " .... أنظر أهل اليمن فأكرمهم في العلانية وأهنهم في السر ، وأنظر هذا الحي من ربيعه ،

---

(١) البلاذري ، الفتوح ، ق ٢ ، ١٦٠ / ١٦١ ؛ اليعقوبي ، البلدان ، ٨٣ ؛ ابن عساكر ، تهذيب التاريخ الكبير ، ج ٦ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ؛ ابن حبيب ، المنمق ، ٣٩٩ .

(٢) ابن عساكر ، تهذيب التاريخ الكبير ، ج ٦ ، ١٨٤ .

(٣) البلاذري ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٣٦ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ٤١ / ٤٢ .

فأكرم أشرافهم وأهلن سفلتهم ، فان السفلة تبع للأشراف ، فأما هـــذا الحي من مضـر ، فان فيهم فظاظة وغلظة ، فاحمل بعضهم على رقـاب بعض ، ولا ترض بالظن دون اليقـين ، وبالقول دون الفعـل ، واترك الأمـور بيتك وبين الناس على أشدهـا والسـلام " (١) .

وتكمن وراء هذه الرسالة قمة التطور في خبرة معاوية في مجالات - السيادة والحكم ، في التعرف على نفسيات القبائل ، وبالتالي فانه يحـدد طريقة التعامل معهـا وفـق أوضاعهـا .

أما عن علاقة معاوية بالطوائف والأقليات ، فتعكس المصادر صورة حسنة لهذه العلاقـة ، وانعكس ذلك في اعتماده على أفراد من هؤلاء في شـؤون الادارة (٢) .

وقد كان المسيحيون يمارسون طقوسهم الدينية وحياتهم بحريـة كاملة ، ونستشف ذلك من خـلال رواية وردت في مصدر من المصادر المسيحية المتأخـرة ، ومفادها : أن شخصا يدعى يوحنّا ، عيّن بطريقا في السـنة السابعة من خلافة معاوية على بيت المقدس ، وأقام أربعـين سنـة حـتى مـات (٣) ، وقد أتاح لهم معاوية حريّـة ممارسة شعائرهم الدينيـة وحمى كنائسهـم من الهـدم والتخريـب (٤) .

---

(١) البـلاذري ، الأنسـاب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٨٦ .

(٢) ابن عسـاكر ، تهذيب التاريخ الكبير ، ج ٦ ، ٧١ .

(٣) ابن البطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ٣٨ .

(٤) البـلاذري ، الفتـوح ، ق ٢ ، ١٧١ .

ويمكن تفسير العلاقة الحسنة مع المسيحيين في بلاد الشام من منطلقين رئيسيين : أولهما أن معاوية ودولته يتاخم أكبر الدول المسيحية وأقواها في تلك الفترة ، لذا فانه حافظ بهذه العلاقة على جو من التعايش بين الدولتين الاسلامية والمسيحية ، ويعزز ذلك بعض الفترات الهادئة بين الدولتين والتي تم فيها تبادل الهدايا بين معاوية والقيصر (١) .

أما المنطلق الثاني الذى يفسر هذه العلاقة ، هو أن الخليفة حاول الاستفادة من خبرات هؤلاء المسيحيين في المجالات العملية المختلفة خاصة في مجال البحرية ، والأسطول والوظائف الحكومية .

بعد هذا الاستعراض لوضع القبائل الشامية ، يتبادر الى الذهن سؤال هو : هل كان لسياسة معاوية هذه في القبائل دور في اذكاء الروح القبلية ؟ ففي مجال الاجابة ، يمكن القول بأن معاوية خلال حياته ضمن الهدوء والاستقرار لهذه القبائل ، وقد لعبت الظروف دورا في هذا الاستقرار ، اذ أن الناس كانوا قد ملّوا الفتنة والحرب بعد صفين ، كما أن موقف الصحابة آنذاك امتاز بالرضى بالأمر الواقع ، كما أن الحسن بن علي قد اعتزل لسياسة ، هذه الأمور مجتمعة مضافا اليها مواهب الخليفة وقدراته أدت الى هذا الوضع .

وقد ظلت العصبية دفينة في الصدور ، حتى وجدت متنفسا جديدا لها بعد وفاة معاوية ، خاصة وأن معاوية ولّى العهد

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ١٢٨ .

لابنه يزيد ، فوقفت القبائل القيسية معارضة خلافته بسبب خؤوله الكلبيين له ، وبوفاة معاوية أصيب التوازن القبلي بخلل كبير ، تطور الى أن نشب صراع بين القيسية واليمنية في الشام من جهة ، ونشأ أيضا تطور آخر على نطاق علاقة الشام بباقي الولايات العربية الأخرى (١) .

وأدركت القبائل اليمنية بعد وفاة الخليفة أنها كانت عماد الدولة وقوتها وبدأت هذه القبائل ممثلة بزعمائها ، تتذاكر فضلها على معاوية وعلى دولته ، وظهرت لديها النزعة بالمطالبة بالسلطة (٢) .

واتخذت مشكلة التعصب بين القيسية واليمنية أبعادا سياسية خطيرة في خلافة يزيد ، اذ أن قبيلة كلب ومن خلفها القبائل اليمنية بدأت تشعر بمكانتها السياسية بين القبائل الشامية ، وتطورت الأحداث بموت يزيد ، وأصبح الصدام المسلح نتيجة حتمية بين بني أمية وكلب والقبائل اليمنية من جهة ، وبين القبائل القيسية من جهة أخرى (٣) .

وازدادت الحالة سوءا بتولي معاوية بن يزيد للخلافة ، والذى كانت أمه من قبيلة كلب ، فلم تطل أيامه ، وعند وفاته عاد الصحابة وأبناؤهم في الحجاز للمطالبة بحقهم في الخلافة ،

---

(١) أبو تمام ، نقائض جرير والأخطل ، ٦ .

(٢) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، ج ٥ ، ١٢٥ ؛ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ٣١٨ .

(٣) أبو تمام ، نقائض جرير والأخطل ، ١ .

فتخطت العصبية نطاق الشام ، وتفاعلت مع الحجاز في صراع دموى طويل ، انعكست آثاره على الشام بعد أن وجد بعض هؤلاء الصحابة أنصاراً لهم من القبائل الشامية القيسية ، للوقوف أمام الأمويين والقبائل اليمينية (١) .

ومن خلال الأحداث نرى أن بعض القبائل اليمينية بايعت أحد أكبر شخصياتها ، وهو حسان بن مالك بن بحدل الكلبي ، كخليفة ولمدة أربعين يوما (٢) ، ثم جاء مروان بن الحكم الى مسرح السياسة في الشام واستطاع الوصول للخلافة بعد فتنة مرج راهط .

وقد ترتب على نقل مركز الخلافة الى الشام ، فتح المجال لنزعة التعصب الى المصر بأضيق معانيها الاقليمية ، وأصبحت هذه النظرة الاقليمية سمة من سمات العلاقة بين الولايات العربية في صدر الاسلام . الأمر الذى فتح أبوابا واسعة للعداء بين قبائل الولايات العربية في الحجاز والعراق والشام ومصر ، ودخلت هذه البلاد في تنازع وتنافس على الخلافة ، وأصبح ذلك مجالا تتبارى فيه المصادر الاسلامية في وصف ذلك النزاع ، وذكر مناقب الأمصار وأهلها .

---

(١) أبو تمام ، نقائض جرير والأخطل ، ٦ .

(٢) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، ج٤ ، ١٤٥ / ١٤٦ .

ومن أمثلة ذلك، رواية تقول : " قدم عبد الله بن الكواء على معاوية فقال له معاوية : أخبرني عن أهل البصرة ، قال : يقاتلون معا ويدبرون شتّى ، قال : فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال : أنظر الناس في صغيرة واقعة في كبيرة ، قال : أخبرني عن أهل المدينة ، قال : أحرص الناس على الفتنة ، وأعجلهم فيها ، قال : فأخبرني عن أهل مصر ، قال : لقمة أكل ، قال : فأخبرني عن أهل الجزيرة ، قال : كناسة بين مدينتين ، قال : فأخبرني عن أهل الموصل ، قال : قلادة وليدة فيها من كل خرزة ، قال : فأخبرني عن أهل الشام ، قال : جند أمير المؤمنين لا أقول فيهم شيئا ، قال : لتقولن ، قال : أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق ، ولا يحسبون للسماء ساكنا (١) " .

وفي نهاية المطاف ، يطرح هذا السؤال نفسه : هل كان لسياسته في قبائل الشام دور في اخراج دولة عربية اسلامية؟ يمكن القول بأن اعتماده على القبائل العربية في الشام ، وانضواء هذه القبائل تحت لوائه ، كانت البذرة التي أنبتت دولة اسلامية ترتكز على العنصر العربي بغض النظر عن باقي سكان الدولة الاسلاميّة كما أن الأمور التي أحدثها معاوية ، وخرج بها عن المفاهيم الاسلامية المألوفة في صراعه مع الصحابة وأبنائهم ، دليل واضح على العودة الى مظاهر الحياة العربية والقبلية التي كانت سائدة قبل الاسلام .

---

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ٣٤٤ ؛ يؤيد هذه المظاهر الثعالبي في كتابه ثمار القلوب ، ٤٣٤ .

وقد تبلورت فكرة الدولة العربية في الفترة اللاحقة لخلافة معاوية من خلال البيت الأموي في الفرع المرواني ، وكانت هذه الميزة هي الثغرة التي نفذ من خلالها العباسيون لاستقطاب المسلمين من غير العرب للقضاء على الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ .

٢ـ معاويـة ومنافسـوه في الحكـم :

في البداية تجدر الاشارة الى أن شخصية الخليفة معاوية كانت من القوة والمنعة بشكل لم يتح الفرصة لقيام أية محاولة جادّة لنزع الخلافة منه ، ولم يكن بوسع منافسيه أن يشكلوا خطرا ظاهرا على خلافته ، لأن معاوية كان قد أحكم التدبير في الحفاظ على نفسه خليفة للمسلمين .

وقد اتخذت المعارضة أشكالا عديدة ، ومن أبرزها ما جاء على شكل تنافس بين الشخصيات السياسية للوصول الى أهدافها ومطامحها السياسية ، كما أن هذه المعارضة اتخذت صفة المطالبة بالمساواة بين فئات الناس كجماعات أو بين الشخصيات كأفراد .

وكان المعارضون يمثلون عدة مستويات واتجاهات ، فمنهم الصحابة وأبنائهم . وهم فئتان : الأولى وهم بنو هاشم الذين ظلّوا يشعرون بأن الخلافة حق من حقوقهم التي ضاعت أو سلبت بانتصار معاوية وتسلّمه لإمارة المؤمنين ، والفئة الثانية هم هؤلاء الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم ، وهم أصحاب فضل وسابقة في الاسلام منذ عهد الرسول الكريم . وبرز نوع آخر من المعارضين أو المنافسين لمعاوية وهم من بطانته التي كان يعتمد عليها ، مثل عمرو بن العاص ومروان بن الحكم .

ويمكن القول بأن معارضة الهاشميين تمثل استمرارا للعداوة بين معاوية وعلي بن أبي طالب . ومن أبرز الأشخاص منهم الحسن والحسين ابني علي ، بالاضافة الى أقربائهما مثل عبد الله بن العباس ، وقد امتازت العلاقة بين الخليفة وهؤلاء الهاشميين بالحيطة والحذر ، نظرا للعداوة التقليدية التي قامت بين الطرفين وكثيرا ما كان هؤلاء يدخلون في جدل مع الخليفة حول أحقيتهم بالخلافة منه . وقد ضمهم معاوية تحت مراقبته المستمرة خوفا من تعاظم أمرهم بين الناس .(١)

(١) ابن العبري ، مختصر تاريخ الدول ، ١٠٦ .

وقد نال الهاشميون قدرا كبيرا من المداراة والبذل من قبل معاوية (١) ، وعاملهم معاملة حسنة ، انطلاقا من حبّه لاجتثاث النقمة من نفوسهم (٢) . وقد لاقت سياسته هذه في معاملتهم نجاحا يعود الى أيام صراعه مع علي ، بحيث استطاع أن يجتذب عددا من أنصاره المقربين له أمثال أخيه عقيل بن ابي طالب (٣) ، بالإضافة الى عدد من أبرز الشخصيات مثل عبد الله بن ابي عامر ، وعبد الله بن ابي محجن الثقفي ، ويزيد بن حجيّة التميمي ، وهو من عمال الخراج عند علي (٤) .

وكثيرا ما كان الخليفة يتناول الهاشميين في خطبه ومجالسه بالحديث عنهم . واعظا إياهم بالقبول بالأمر الواقع ، مقابل ما يتمتعون به من مزايا في خلافته ، ومن ذلك ، قوله لهم : " إن خيري لكم ممنوح ، وبابي لكم مفتوح ، فلا تقطعوا خيري عنكم ولا تغلقوا بابي دونكم " (٥) .

وظل الخليفة يشعرهم بعقدة الذنب تجاه مقتل الخليفة الراشدي عثمان بن عفان ، فظل يتهمهم بالتخاذل عن نصرته ، واعتبار موقفهم تجاهه نقيصة يعيبهم بها ، ويذكرهم بأن عقوبتهم تجاه تخاذلهم نحوه هي إهدار دمهم كما هدروا دم عثمان وذلك لكي يخيفهم ويشعرهم بفضله عليهم بالحماية من القتل (٦) .

(١) H.Lammens. Art." Muawiya "Encycl. of Islam. First Edition Vol III. P.p 619.

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، المبرد ، الكامل ، ج ٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٣) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٧٣ ، الدينوري ، عيون الاخبار ، ج ٢ ، ١٩٧ ، ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج ٦ ، ٢٩٨ / ٣٠٤ ، ج ١١ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ١٣٦ .

(٤) البلاذري ، الانساب ، ١٥٧ ، مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ٨٦ ، ٩٢ ، ١١٩ ، اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ٢٨٧ / ٢٨٨ ، ج ٢ ، ٢٢٢ / ٢٢٣ .

(٥) البلاذري ، الانساب ، ط ١ ، ج ١ ، ٣ ، ٧٠٩ .

(٦) اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢٢٢ / ٢٢٣ .

وساهم عمرو بن العاص في رسم سياسة معاوية تجاه الهاشميين ، فنصحه بأن يضع حدّا لالتفاف الناس حولهم ، فأشار عليه أن يستفل شخصية بارزة من بينهم في سبيل تبديد الناس عنهم ، فاختار عقيل بن أبي طالب ، ودعاه في اليوم التالي لِيُظهر أمام الناس بطلان دعوة بني هاشم ، لكن عقيلا هذا لم يستجب لهما ، فأعطاه معاوية مالا وأخرجه من الشام(١) .

وكان الحسن والحسين مثارا لقلق معاوية ومخاوفه ، بسبب كونهما ورثة خصمه علي ، رغم إعتزالهما للسياسة وميلهما للمسالمة ، وحاول الخليفة استفلال هذه الصفة فيهما وهي حب الإنضواء تحت لواء الجماعة الاسلاميّة ، وطاعة الإمام قطعا لدابر الفتنة . وكانت هذه الصفة مصدر فخر يعتزّان به ، لكونهما قد وضعا حدّا للفتنة واجتمعت الأمة تحت طاعة خليفة واحد(٢) .

وقد ظل الحسن مقيما بالحجاز حتى وفاته ، ويقال أن لمعاوية دور في قتله عن طريق دس السم له(٣) . وقد منع مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة ، من دفنه قرب الرسول ، وتم دفنه في مقابر المسلمين(٤) . ولم يبق من ابناء علي سوى الحسين ومحمد بن الحنفية الذى كان صغيرا ، أما الحسين فلم يغب عن بال معاوية في ترهيبه وتهديده له إن قام باى عمل مناوٍ له ، فارسل له رسالة قال فيها : " أما بعد ، فانّه قد انتهت اليّ عنك أمور لست حريا بها ، لأن من أعطى صفقة بيمينه جدير بالوفاء ، فاعلم رحمك الله أنني متى انكرتك تستنكرني ، ومتى تكدني أكدك ، فلا يستفلنّك السفهاء الذين يحبون الفتنة "(٥) .

---

(١) ابن بكار ، الاخبار الموفقيات ، ٣٣٤ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، م٢ ، ١١٣٦/١١٣٨ .

(٣) ابو بكر بن العربي ، العواصم من القواصم ، ٢١٣ ؛ الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج٣ ، ١٨٤ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٣ ، ٤٦٠ .

(٥) محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والادارية ، ١٥١ .

وتجسّد قدر كبير من المعارضة الهاشمية من خلال مواقف عبد الله بن العباس الذى كان أكثر تبصّرا ودراية بالسياسة من أبناء علي . فكان يخاطب الخليفة بأسلوب غليظ مليء بالحقد والإنكار ، ويكيل له التهم كذبحة للاسلام بسيف الشرك ، وتمسكه بالخلافة وهي ليست من حقّه ، وأتهمه بركوب الآثام واستحلاله الحرام وقصد الظلم .

ولكن معاوية كان يسكته بالأموال أحيانا وبالترهيب أحيانا أخرى . وكان عبد الله هذا يتمتع بمواهب جيدة تعادل مواهب معاوية في قدرته على الجدل والمنطق ، وكان يتفوّق عليه في البلاغة والأدب .(١) وكان معاوية يستعين به في بعض الأمور الثانوية التي لا تمس كيانه وكيان الدولة .

أما بقية الصحابة من المهاجرين والأنصار ، فإنه انتهج سبلا مختلفة في منعهم من القيام بأى عمل معاد له ولدولته . ومن بواكير تجارب معاوية في هذا المجال تجربته مع أبي ذر الغفارى ، الذى كان مقيما في الشام في خلافة عثمان ، وقد بدأ بانتقاد سياسة الخليفة بين الشاميين ، فأخرجه معاوية من الشام مبعدا إياه الى الربذة في الحجاز خوفا من تأثيره على القبائل الشامية .(٢)

وفي عهد خلافته على الشام ازداد معاوية اهتماما بوضع الصحابة في مختلف ارجاء الدولة ، وحاول قدر امكانه أن يحدّ من تواجدهم في بلاد الشام . ومن ابرز هوءلاء الصحابة الذين أبدوا نزعة للمنافسة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد(٣) ، وهو ابن احد أعظم قادة المسلمين في الفتح ، وقد حقق شهرة واسعة في انتصاراته على الروم من خلال الغزوات التي كان يقودها على الحدود البزنطية محاولا أن يكمل أعمال أبيه في الفتح .

---

(١) موءلف مجهول ، اخبار العباس وولده ، ٢٧/ ٥٠ ؛ الثعالبي ، خاص الخاص ، ٦٨ .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ٣٤٠ ؛ ابو بكر بن العربي ، العواصم من القواصم ، ٧٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٣ ، ١١٤/ ١١٥ ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢ ، ٣ ؛ ابن سعد ، الطبقات ، ج ٤ ، ١٦٦ .

(٣) الطبرى ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢٢٧ ؛ الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٦ ، ١٣٩/ ١٤٠ ، النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٠ ، ٣٧٠ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ٣ ، ٤٥٣ .

ونظرا لشهرته كقائد عسكري كبير في شمال بلاد الشام ، أصبحت الأعناق والأكف تتجه نحوه في سوريا ، وبدا هذا الرجل يشكل خطرا لفتح باب الفتنة في صفوف أنصار معاوية من القبائل الشامية . واعتمد معاوية في معالجة هذه الظاهرة على وسيلة حازمة ، وذلك بسبب ادراكه خطورته ، فقد دسّ له السم عن طريق أحد عماله النصارى في حمص وهو ابن أثال ، مقابل أن يعطيه ولاية خراج حمص بعد أن يؤدى هذه المهمة ، ففعل[1] .

وقد ساهم معاوية نفسه بخلق منافس له من حيث لا يشعر ، وهذا المنافس هو سعيد بن عثمان بن عفان ، فقد استغل هذا الرجل التعبئة النفسية التي أوجدها معاوية بين القبائل الشامية تجاه مقتل الخليفة عثمان وهو أبوه . فقد أدرك سعيد هذا بأن معاوية حقق ما وصل اليه من مكانة ومركز متذرعا بدم والده عثمان . وبدأت نوايا سعيد بالبروز ، بعد أن أظهر معاوية فكرة بيعة يزيد بولاية العهد من بعده ، فرأى في نفسه صاحب حق لهذا المنصب الجديد ، ورأى أنه أولى بالأمر من يزيد بن معاوية ، لكن معاوية رفض أن يكترث بمطالبه واسكته بأن أعطاه ولاية خراسان ، وبذلك حقق معاوية من هذا الاجراء غرضين هامين هما كسب رضاه أولا وثانيا أبعاده عن مركز الخلافة[2] .

وقد كانت طريقة الابعاد عن مركز الخلافة وعن بلاد الشام بشكل خاص ، وسيلة من الوسائل التي مهدت لنجاحه في منع حدوث كثير من المشاكل السياسية داخل الدولة بشكل عام

ومن الاساليب التي اتبعها معاوية ضد منافسيه الخطرين على دولته ، أنه كان يفرض على هؤلاء إقامة جبرية في مكان معين ، ليظلوا تحت نظر وسمع الخليفة أو عماله وولاته ، ولكي يضمن عدم تأثير هؤلاء على السكان في هذه البلاد ، .

---

(١) الدينوري ، عيون الاخبار ، ج ١ ، ٢٢١ .

(٢) مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ١٩٨/١٩٩ ؛ ابو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ١٠١ .

ومن أمثلة ذلك أن ابن الكواء اليشكري وصعصعة بن صوحان ، قدما إلى معاوية في دمشق ومعهما جماعة من أصحابهم ، فخاف أمرهم وانزلهم في إحدى الدور في دمشق ، وأمرهم الاّ يخرجوا منها ، وقد وفر لهم في تلك الدار ما يلزمهم من حاجات ، ومن ضمن ذلك أن تلك الدار احتوت مسجدا لإقامة الصلاة.(١)

وقد انتبه المؤرخون الذين تناولوا سيرة الصحابة الذين عاصروا معاوية ، إلى الاساليب التي كان يعاملهم بها ، في سبيل سكوتهم عن المعارضة وامتصاص النقمة من نفوسهم ، ومن ذلك قول ابن الأثير أن معاوية كان يعطي المقارب منهم ، ويداري المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الصحابة.(٢)

ومن ذلك ايضا قول ابن الطقطقا أن الصحابة كانوا يفدون على معاوية في الشام ، فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ويقضي حوائجهم ، ولا زالوا يحدثونه بأغلظ الحديث ، وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم تارة أخرى ، ولا يحدهم إلا بالجوائز السنّية والصلات الجمّة.(٣)

ومن مزايا الحكمة في هذا النمط من التعامل ، أن الخليفة كان يستقرئ نوايا هؤلاء الصحابة تجاه خلافته وتجاه شخصه ، ليقرر مدى خطورة كل فرد منهم ، وبالتالي يقرر الوسيلة التي يمكن أن يعالج بها كل فرد على حدة.(٤)

أما النوع الثاني من منافسي معاوية ، فهم عدد من الشخصيات الطامحة ، والتي كانت تشغل أركانا هامة من أركان دولته وأجهزتها . وقد عالج كل منهم بوسيلة تعكس ذكاء وبراعته في تدبير أمور خلافته بالرغم من أن هؤلاء المنافسين كانوا يتمتعون بشخصيات قوية لا تقل في مواهبها عن مواهب معاوية.(٥)

(١) ابن عساكر ، تهذيب التاريخ الكبير ، ج ٧ ، ٢٩٨/٢٦٦.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ٥٠٨.

(٣) ابن الطقطقا ، الفخري في الآداب السلطانية ، ١٠٤/١٠٥.

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ٤٠١.

(٥) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ٦٨.

ومن أبرز هؤلاء المنافسين عمرو بن العاص ، وقد كان هذا الرجل صنواً لمعاوية لم يفارقه خلال الصراع بينه وبين علي . وشخصية عمرو تعتبر من أبرز الشخصيات الإسلامية منذ أيام خلافة عثمان بن عفان ، وقد لعب أدوارا سياسية هامة في الفتنة وما بعدها ، واستطاع معاوية أن يستميله الى جانبه نظرا للعداء المشترك بينهما تجاه علي بن ابي طالب .

وادرك عمرو أن لوقوفه إلى جانب معاوية ، دور كبير وأساسي في انتصاره على خصمه . وعندما شعر عمرو بأن معاوية بدأ يجني ثمار صراعه الدامي مع علي دون هوادة ، بدأت نفسه تحدثه بأنه أحقّ من معاوية في الخلافة ، خاصة وأنه كان صاحب فكرة رفع المصاحف في صفين.والتي نجم عنها قضية التحكيم التي أدت الى ترجيح كفة معاوية ، بعد أن كان النصر حليفا لعلي[١].

لكن المنافسة بين عمرو ومعاوية لم تكن صريحة كما يبدو ، وإنما ظهرت هذه المنافسة على صفحات وجوههما أو فلتات ألسنتهما[٢]. وقد كان عمرو يتحيّن الفرص لكي يوقع معاوية في مواقع التهلكة ،لتستتبّ له تسلم الأمور من بعده[٣].

ولكن دهاء معاوية وقدراته وقفت حجر عثرة أمام كل محاولات عمرو لتحقيق أهدافه ، فقد أجبره معاوية على البيعة له بالخلافة بالقوة[٤]. ولم يأمن شرّه ، فنفّذ له ما وعده به بأن ولاه مصر ما عاش[٥]. وكان قد أعطاه هذا الوعد أثناء المفاوضات بينهما للتحالف ضد علي . ولكن أَجَلَ عمرو لم يَطُل ، فقد مات بعد ثلاثة سنوات من توليته لمصر .

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ٤٠١ ؛ الثعالبي ، ثمار القلوب ، ٦٧ .
(٢) ابن الطقطقا ، الفخري في الآداب السلطانية ، ١٠٥/١٠٦ ؛ ابن سعد ، الطبقات ج ٤ ، ق٢ ، ٧ ؛ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ١٩٢ .
(٣) ابن الطقطقا ، الفخري في الآداب السلطانية ، ١٠٦ ؛ الاصفهاني ، الأغاني ، ج١٦ ، ١٠٣ .
(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ٤٠١ .
(٥) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٤ ، ق٢ ، ٣ ؛ الدينوري ، عيون الأخبار ، ج ١ ، ١٨١ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ٣٥٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ٢٧٤/٢٧٥ .

ومن هؤلاء المنافسين أحد أعمدة البيت الأموي في الحجاز وهو مروان بن الحكم ، وقد كان ينظر لنفسه نظرة يكتنفها الشعور بكفائته التي تؤهله للحكم. ويعترى ماضي مروان وعلاقته بعثمان بعض علامات الاستفهام الكبيرة خاصة في فترة حصار عثمان وقتله ، فلم تبد الروايات أية محاولة له للدفاع عن الخليفة ، بالرغم من صلة القرابة بينهما ، كما أنه كان سيد بني أمية بعد عثمان في الحجاز بل إن بعض المعلومات تفيد أن له دور في اعادة الثائرين الى المدينة ، بعد أن كان عثمان قد صرفهم عنه بالوعود بتنفيذ مطالبهم (1).

رغم تطرف هذه الرواية التي تتناول هذه المعلومات عن دور مروان في الفتنة ، لكنها تعطي انعكاسا لابعاد النفسية السياسية عند مروان ، .

ولم تكن علاقته بمعاوية علاقة حسنة ، وقد طبّق عليه معاوية سياسة الإبعاد عن الشام بأن أعطاه ولاية المدينة سنة ٤٢ هـ (2) . ولكن توليّه المدينة لم يكن مستمرا ، فقد تناوب عليها معه سعيد بن العاص (3). كما أن مروان ولي البحرين لمدة من الزمن في خلافة معاوية (4).

وحاول معاوية أن يوقع بين مروان وسعيد في المدينة (5) ، إنطلاقا من مبدأ : " فرّق تسد " وذلك بالرغم من القرابة التي تربط بينهما من جهة ، وبينهما وبين معاوية من جهة أخرى . فلم تعد رابطة الدم والقرابة تقف حائلا دون التخاصم ، في سبيل المصالح السياسية في المجتمع العربي الإسلامي .

(١) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ٢١ .

(٢) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ١٧٢ ؛ ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ق ١ ، ٢٤ .

(٣) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢٩٣ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ٣٤٥ .

(٤) البلاذري ، الانساب ، ط ١ ، ١٢٦ .

(٥) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢٩٣ / ٢٩٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ٤٩٧ .

وخير دليل على ذلك ، هو أننا نرى معاوية في دمشق يقرّب اليه شخصيات مختلفة ، يحاول أن يستثني منها القرشيين عامة والأمويين بشكل خاص[1] . وذلك نتيجة لاستفادته من تجربة الخليفة الراشدي عثمان ، والذي جرّ عليه اعتماده على اقربائه في وظائف الدولة ، مشاكل عديدة أودت بحياته في النهاية .

ومن أشهر الشخصيات على معاوية في مطلع فترة خلافته،زياد بن أبيه . وقد تمكن معاوية من التخلص من العداوة بينهما بطريقة ايجابية بالمراسلة والاغراء بالمال ، وأعطاءه الأمان بعد أن هرب الى خراسان بعد مقتل علي . وعندما قدم زياد الى معاوية ، عمل الأخير على تخليصه من عقدة نسبه ، التي طالما كانت تزعجه على صعيد الشخصيات السياسية المعاصرة ، حيث كانت المفاخرة بالنسب وصفاء العرق ، سمة من سمات العصر . وبهذه الطريقة استطاع أن يشترى ولاءه طيلة حياته ، بأن ألحق نسبه الى أبي سفيان بعد أن كان ينسب الى أبي عبيد ، وجعل منه أخا له من أبيه[2] .

وقد لاقى تصرّف معاوية هذا ، سخط أقربائه الأمويين بزعامة مروان بن الحكم في الحجاز ، وقد أنكروا على معاوية اعتماده على زياد وغيره من الشخصيات ، مهملا أقربائه ولا يوكل اليهم المهام والوظائف ، فقال له مروان معاتبا : " يا معاوية : لو لم تجد إلا الزنج ، لاستكثرت بهم علينا قلّة وذلّة . . . "[3] .

وقد وجّه مروان وفدا إلى معاوية ، احتجاجا على استلحاقه نسب زياد بأبي سفيان ، وقالوا له في ذلك شعرا[4] :

---

(١) ابن بكار ، الاخبار الموفقيات ، ١٧٥/١٧٦ .

(٢) الطبرى ،التاريخ ،ج ٥ ، ٢١٤/٢١٥ ؛المسعودى ،مروج الذهب ، ٦/٨ ؛النويرى نهاية الارب ،ج ٢٠ ، ٢٠٣/٢٠٥ ؛ابن الاثير ،الكامل ،ج ٣ ، ٤٤١/٤٤٣ .

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ، ٣٠٢ .

(٤) ابن بكار ، الاخبار الموفقيات ، ١٧٥/١٧٦ .

ألا أبلغ معاوية بن حـــــرب   مغلغلة في الرجل اليمانـــــي
أتغضب أن يقال أبوك عـــفّ   وترضى أن يقال أبـــوك زان
فاشهد أن رحمك من زيـــاد   كرحم الفيل من ولد الأتـــان

ويبدو أن حادثة استلحاق نسب زياد ليست هي الوحيدة ، بل إن معاويـــة حاول أن يجعل من جناده بن أميّة أخا له لكي يستفيد من قدراته السياسية والادارية.(١) وكذلك قام معاوية بنسبه أحد المماليـــك الى مولاه المسمى جمسل.(٢)

وقد جنى معاوية ثمار استلحاق زياد بأن استطاع الأخير أن يضبط لــــه أخطر منطقة في امبراطوريته ، وهي العراق . ورغم الوفاء الذى كان يكنّه زيـــاد لمعاوية ، الا أن الغيرة والحسد كانا يكمنان في نفسه . فكان في خطبه التي يوجههـا لأهل العراق ، يتكلم بلسان حال معاوية وكأنه هو الخليفة ومن ذلك قوله : " ايهـــا الناس : إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى قد خوّلنـــا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولّينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم ... ".(٣)

كما أنه كان يحاول التذكير بفضله على معاوية في ادارة شوءون العراق بعـــد أن كانت البصرة والكوفة بوءرة للثورة على الخليفة . لكن معاوية كان يذكره ايضا بفضلـــه عليه في رفع نســـبة من عبيد الى أشراف قريش . ويذكره بأنه جعله زعيما وواليا بعـــد أن كان كاتبا في الديوان .

ولو حاولنا الخروج بنتيجة مجملة للأساليب التي طبقها معاوية في سبيل حفـــظ الدولة من الفتنة والاضطراب ، لوجدنا أن أساليب المسالمة والاغراء بالأموال والوظائـــف والجـــاه والنسب والحلم والتغاضي والعفو وحسن التدبير في اختيار العمال والـــولاة (٤) تغلب على الجانب الآخر وهو الترهيب والقهر بالقوة .

(١) الدينوري ،عيون الاخبار ،ج ١ ، ١٠ ؛ الأندلسي ، جمهرة أنساب العرب ، ٣٨٦ .
(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ٦٦ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ٤٤٦ .
(٤) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ٢٧٨ ؛ ابن سعد الطبقات ، ج ٥ ، ٨٣ .
H.Lammens.Art."Muawiya".Encycl. of Islam.
First Edition.Vol.III.P.P 618-619.

٣- الأحزاب السياسية في خلافة معاوية :

من قبيل الإلمام بمختلف جوانب الحياة السياسية في بلاد الشام ، لا بدّ من القاء بعض الأضواء على الحركات السياسية البارزة في خلافة معاوية ، رغم أن معظم هذه الحركات المعادية ، قامت خارج البلاد الشاميّة . كما أن هذا الباب سيعمل على إكمال بعض الجوانب السياسية في علاقة معاوية بولاته وعماله تجاه مثل هذه الحركات السياسية والفرق التي تبنتها ، وذلك نظرا للرابطة العضوية بين الحياة السياسية في سوريا وباقي الولايات العربية الأخرى ، باعتبار أن المركز السياسي هو هدف هذه الحركات على اختلافها كوسيلة للوصول إلى الحكم .

ويشار في هذا المجال الى أن الفرق السياسية الإسلامية ، كانت نتيجة من النتائج التي جرّتها الفتنة على العالم الاسلامي . وقد ساهمت سياسة معاوية خلال أحداث الفتنة ، خاصة في معركة صفين بخلق الإتجاهات السياسية والدينية والتي كانت البدايات التي نمت منها هذه الفرق .

فقد أدّت الفرقة في صفوف علي الى وجود تكتلات بين أنصاره ، وأخذت هذه الجماعات ترفع شعارات سياسية معينة ،(١) وتطالب الخليفة بالإمتثال والاستجابة الى مطالبها . وتطورت هذه الفئات مع مرور الوقت الى فرقتين رئيسيتين هما الخوارج والشيعة ، وما لبثت هاتان الفرقتان أن تفرعتا إلى فرق أخرى متعددة ، تتفاوت في اعتدالها وتطرفها .

كما أن معاوية في عملية خروجه عن طاعة الخليفة ، فتح المجال أمام الطامحين من أصحاب القدرات والمواهب السياسيّة ، لكي يقفوا أمام الخلافة الإسلامية مطالبين بتطبيق مبادئهم وشعاراتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وهذا الجو الجديد سمح لهذه الشخصيات في تبني الحركات الدينية والسياسية في الدولة .

---

(١) المبرد ، الكامل ، ج ٢ ، ١٥٣ .

الخـــــــــوارج :

ففي بداية الأمر ومن خلال معركة صفين ، برزت على المسرح السياسي فـــي جانب علي ، فئة كانت تهدف الى معارضة قبول فكرة التحكيم . فكانت هذه الحركـــة تمثل ثالث حركة سياسية في عملية الخروج على الخليفة . فأولى هذه الحركات كانـــت حركة طلحة والزبير وثانيها كان خروج معاوية ووقوفه مدافعا عن حقّ الخليفة المقتـــول . ثم جاءت فكرة الخروج على الخليفة من قبل عدد من أنصاره والذين أطلق عليهم إسم الخوارج .

وكانت خلافة علي بن ابي طالب الدرع الذي واجه هذه الحركات جميعـــــا . فلم يكن من القوة بمكان يسمح له بالقضاء عليها جميعا . بالرغم من أنه سيطر علـــى زمام الأمور في الحركتين الأوليين .

وبعد مقتل علي وتسليم الحسن بن علي الأمور لمعاوية ، بات من المحتّـــم على الخليفة الجديد ، أن يعالج الأوضاع السياسية التي تمخضت عن الفتنة ، وعـــن الاقتتال في معركة صفين (١) .

يشار ابتداء إلى أن فرقـــة الخــــوارج ، لم تبرز معالمها كحركـــــة سياسية تقف ضد الدولة ، إلا بعد مقتل الخليفة علي بن أبي طالب . فقد كانت هـذه الفرق أثنـــاء حياته مجرد جماعة معارضة لسياسة الخليفة ، وتقف وراء مبدأ مفـــاده عدم تحكيم الأفراد في مصير الأمة الإسلامية . واعتبروا أن الحل يكمن في كتاب اللـــه وسنة الرسول .

وقد اتخذت حركة الخوارج في بداية خلافة معاوية أبعادا جديدة ، خاصـــة وأن خصمهم اللـــدود قد تسلم الحكم في الدولة . فتبلورت لدى هذه الجماعة أفكـــارا جديدة تتلاءم مع الموقف الجديد ، ومن أمثلة ذلك فكرة الخروج على الظلم والجـــور (٢) في كنف الحكم الأموي الجديد .

(١) انظر توفيق بـــرّو ، الدولة العربية الكبرى ، ٢٧٥ / ٢٧٨ .

(٢) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٤٣ ، ١٤٩ ، الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ١٧٤ .

وامتازت الحركة الخارجية في خلافة معاوية ، بأنها اتخذت صفة جماعات قليلة العدد ، كما أن الإرتباط الزماني والمكاني لهذه الجماعات كان معدوما تقريبا . ورغم هذا التفكك وقلة التنظيم في جماعات الخوارج في هذه المرحلة ، إلاّ أنهم على قلتهم وسوء تنظيمهم ، كانوا يتمتعون بمواهب قتاليّة جيّدة (١) .

وقد كانت امكنة تواجد هذه الجماعات من الخوارج في العراق بشكل عام وفي الكوفة بشكل خاص ، كما أن قسما كبيرا من خوارج العراق لجأ الى بلاد المشرق الإسلامي في خراسان والري (٢) .

واستغلّ الخوارج انشغال الخليفة وولاته وعماله في توطيد أمور الدولة الجديدة بعد الفتنة ومقتل علي ، فبدأوا في الكوفة بالاستعداد لتحرك ضد معاوية وعماله . وقد وقع القدر الأكبر من الجهد في مقاومة الخوارج على عماله في الكوفة أولا ، وفي باقي أنحاء العراق وخراسان ثانيا .

ومن أول الولاة الذين عانوا الكثير من المتاعب بسبب الخوارج ، هو المغيرة بن شعبة . وبرزت في ولايته شخصية خارجية هامة هي شخصية فروة بن نوفل الاشجعي (٣) ، وظل المغيرة يتتبع أخبارهم ويلاحقهم في أماكن تجمعهم ويعمل السيف فيهم ، حتى أنه تمكن من قتل فروة وشتت أنصاره (٤) .

---

(١) البلاذري ، الانساب ، ق١ ، ج٤ ، ١٤٨/١٤٧ ؛ المبرد ، الكامل ، ج٢ ، ١٥٨ .

(٢) الطبري ، التاريخ ، ج٥ ، ١٨١ ؛ اليعقوبي ، التاريخ ، ج٢ ، ١٩٢/١٩١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٣ ، ٣٧٣/٣٧٢ ؛ ابن الطقطقا ، الفخري في الآداب السلطانية ، ٩٤ .

(٣) البلاذري ، الانساب ، ق١ ، ج٤ ، ١٣٨ ؛ الطبري ، التاريخ ، ج٥ ، ١٦٥ ؛ اليعقوبي ، التاريخ ، ج٢ ، ٢١٧ ؛ ابن خلدون ، العبر ، م٣ ، ٣٠٦/٣٠٤ ؛ ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج٤ ، ١٣٢ .

(٤) الطبري ، التاريخ ، ج٥ ، ١٨٢ ؛ ابن خلدون ، العبر ، م٣ ، ٣٠٥/٣٠٤ .

ولكن سرعان ما كان الخوارج يُنصّبونَ على أنفسهم زعيما جديدا بعد مقتل زعيمهم السابق ، وينضوون تحت إمرته ، لإعادة عملية الوقوف ضد معاوية وعماله من جديد .

فقد ظهر المستورد بن علفة التيمي ، الذى مضى بعد فروة في تزعم خوارج الكوفة ، وقد سار في أنصاره من الخوارج منهجا جديدا في التستر والتنظيم والتحايل على المغيرة والتخفي عن عيونه .(١)

ولكنهم لم يكونوا بمنأى عن المغيرة ، والذى كان ميالا للمسالمة ، وقد كان يحاول المحافظة على الأمن في الكوفة عن طريق الوعظ والأرشاد لعامتهم ، لمنعهم من الخروج ، وكان أحيانا يلجأ الى التهديد والسجن والملاحقة ، مما اضطر المستورد أن يغادر الكوفة ، فتوجه الى الحيرة خوفا من القضاء عليه ، وحفاظا على من معه من الخوارج . وبدأ هناك بالتنظيم من جديد ، فوصل أمره الى المغيرة ، فجهز له جيشا بقيادة معقل بن قيس الرياحي ، وقد زوده بالمقاتلين من أنصار علي ، والذين كانوا ناقمين على الخوارج ، نظرا لما سببوه من المتاعب لصاحبهم .(٢)

وتمكن هذا الجيش من القضاء عليهم في الحيرة ، وتمكن من قتل زعيمهم ، كما أن معقلا نفسه قتل مع عدد كبير من أصحابه الكوفيين(٣) . وبذلك يكون المغيرة - وهو لسان حال معاوية في الكوفة - قد استفاد من ضرب كل من الحزبين الرئيسيين المعارضين لخلافته ، مستغلا العداء المشترك بينهما ، وبذلك يكون قد وفّر على دولته الكثير من الجهد والأموال ، بالإضافة الى أنه حفظ أهل الشام بعيدا عن المشاكل الداخلية وأخطارها عليهم ، وما تسببه هذه الأخطار على كيان الدولة .

---

(١) الطبرى ، التاريخ ، ج ٥ ، ١٨٢ ؛ ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج ٤ ، ١٣٤ .

(٢) البلاذرى ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٤٣ / ١٤٦ ؛ الطبرى ، التاريخ ، ج ٥ ، ١٩٣ ؛ ابن خلدون ، العبر ، م٣ ، ٣٠٧ / ٣٠٨ .

(٣) البلاذرى ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٤٧ / ١٤٩ .

ثم خرج معاذ بن جوين الطائي منكرا لظلم المغيرة بن شعبة وأعماله ضد أقرانه من الخوارج ، وكان مركز حركته في منطقة بانقيا قرب الكوفة ، فوجه إليه المغيرة قوة بقيادة شخص يدعى أبو الرّواع الهمداني في عدد من الكوفيين ، وتمكن من قتله وقتل عدد من أصحابه ، وتفرّق الناجون إلى مناطق عديدة [(١)] .

ونتيجة لأعمال المغيرة هذه ضدّ الخوارج وتفرقهم في عدة مناطق ، اتسمت حركات الخوارج في جنوب العراق . وفي ظلّ هذه الظروف آلت ولاية البصرة والكوفة الى شخصيّة ادارية وسياسية قوية ، والمقصود هو زياد بن أبي سفيان ، الذى استماله معاوية إلى جانبه . وتمكن الأخير من ضبط العراق ، بعد أن كان مصدرا للقلق والاضطراب السياسي .

وبعد سنة ٥٠ هـ تبلورت الحركة الخارجية بشكل أوضح ، واتخذت أبعادا سياسية وعسكرية على نطاق أوسع مما كانت عليه سابقا . خاصة وأن جماعات الخوارج بعد أن ذاقت مرارة مصيرها بعد وفاة علي من قبل عمال معاوية ، بدأت تشعر بالندم على موقفهم في معركة صفين والنهروان .

ومن أبرز الشخصيات الخارجية في هذه المرحلة ، قريب بن مرّة وزحاف بن زفر الطائي . وبدأ أنصارهما بالإغارة على شرط زياد في البصرة ، وتمكنوا من إحراز بعض الفوز بقتلهم عددا من البصريين .

وقد كان زياد بن ابي سفيان آنذاك في الكوفة . وقد أناب عنه في غيابه على البصرة عامله عبيد الله بن أبي بكره ، واستطاع الأخير أن يشاغلهم ، ريثما يستدعي زيادا من الكوفة ، وبعد قدومه اليها استنفر أهلها لمقاومتهم ، وعمل على زعزعتهم - أى أهل البصرة - بأن هددهم بقطع عطائهم وأرزاقهم ، إن هم لم يكفوه خطر الخوارج. وباشر سياسة حازمة وقوية تجاه الخوارج ، وعمل على قمعهم بأشدّ الأساليب كالقتل والصلب على الأعواد . كما أنه عمل على تعرية النساء الخارجيات بعد قتلهن وصلبهن [(٢)] .

---

(١) البلاذرى ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٤٧/١٤٩ .

(٢) البلاذرى ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٥٠/١٥٣ .

وظاهرة خروج النساء في إطار العادات والأعراف العربية آنذاك ، دليل كبير على بلوغ الخوارج شأنا عظيما في موقفهم ضد الدولة الأموية الجديدة ، كما أن ذلك يبين تبلور نوع من العقيدة السياسية الثابتة ، وهذه العقيدة كانت كامنة في نفوس أصحابها من الرجال والنساء ، ولم يكونوا ليتورعوا عن إظهار عدائهم للدولة في أى موقف موات لذلك .

وخرج في البصرة أيضا أبو بلال مرداس بن أديّه وأخيه عروة بن أديّة ، ولكنهما كانا أكثر اعتدالا في مواقفهما ، إذ أنهما حرّما خروج النساء ، وقد عايشا السلطة الأموية الممثلة بشخص زياد ، وقد كان مرداس يناقش زيادا في بعض شوءون الإدارة والحكم من النواحي الشرعية .(١) ولا بدّ أن هذا الإعتدال في تصرفات الخوارج ، قد نتج عن سياسة زياد الحازمة تجاههم .

وبعد وفاة زياد وتسلم ابنه عبيد الله ولاية البصرة ، تشدد في ملاحقتهم وقتلهم أنّى ظهروا وفي أى مكان . ومن ضمن من تمكن من القضاء عليهم مرداس وأخيه عروة .(٢)

والمتتبع للحركات الخارجية ، يجد أن القيادات الخارجية وزعاماتها متعددة رغم قلة الأتباع والأنصار ، ورغم قساوة المعاملة من قبل عمال وولاة معاوية ، ومن هوءلاء الزعماء حوثرة بن وداع ومعين بن عبد الله وأبو مريم مولى بني الحارث وأبو ليلى ، وسهم بن غالب الجهيمي والخطيم وعباد بن حصين وشبيب بن بحرة .(٣)

---

(١) البلاذرى ، الأنساب ، ق١ ، ج٤ ، ١٦٣/١٥٦ ؛ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج٥ ، ٩٠/٨٢ .

(٢) الطبرى ، التاريخ ، ج٥ ، ٣١٤ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٠ ، ٢٨٨/٢٨٥ .

(٣) البلاذرى ، الأنساب ، ق١ ، ج٤ ، ١٤٩/١٤٧ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج١ ، ٢٥٣ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٠ ، ٢٨٨/٢٧٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٣ ، ٤٠٩ .

والمستقصي للحركات الخارجية حتى العقد السادس من القرن الأول الهجري ، لا يرى فاعلية سياسية خطرة على معاوية أو على دولته ، رغم العداء المستفحل بين الطرفين . ويمكن أن نجد تفسيرا لهذه الظاهرة ، إذا نظرنا الى بيئتهم السكانية والتي يغلب عليها الإتجاه العلوي . وقد أدّى ذلك الى استمرار تفرقهم ، وعدم قدرتهم على الإتحاد مع بعضهم البعض ، وعدم وجود أنصار لهم بالشكل المطلوب ، ليتمكنوا من تحقيق شعاراتهم وأهدافهم . كما أن سياسة معاوية في تعيين العمال والولاة الأكفاء ساهم في الحد من قدراتهم .

والخوارج في غالب الأحيان هم من وجوه القبائل العربية ، وهم من أهل الشرف والجاه والغنى ، كما أنهم من حملة القرآن الكريم وأهل الزهد ، فهذا هو رأى زياد بن أبي سفيان فيهم (1) .

ويمكننا أن نشارك زيادا في التعجب من أمر الخوارج في هذه المرحلة ، فالغموض يكتنف الدوافع الحقيقية التي تقف وراء خروجهم ، رغم أن نتائج خروجهم في معظمها كانت سلبية بالنسبة لهم . وكانوا يشعرون بحتمية الفشل أمام عمال معاوية في العراق . بالنظر الى امكانياتهم المحدودة ، بالإضافة إلى سوء الظروف التي يعيشونها في كنف الرقابة وقوة الدولة .

وبالرغم من كل ذلك نجد أنهم يصرّون على الخروج لإعلان العصيان على الدولة ولم تكن أعمالهم لتتعدى العمليات الإنتحارية أو الفدائية ، والتي تقف ورائها عقيدة غامضة الملامح آنذاك .

---

(1) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٧٦ .

الشيعـــــة :-

وجدت فكرة التشيع في حياة الخليفة علي بن ابي طالب، ولـــم تكن لتتعدى مفهوم المناصرة، وبعد مقتل الخليفة علي أخذ التشيع يتجـــه اتجاها سياسيا في ظل الجو الجديد بعد انتقال الخلافة من علي الى معاويـه.

وقد تطور التشيّع نحو حركة سياسية لها خصائصها المميزة، فـــي ظل الفكرة العامة المنبثقة عن الولاء لعلي بن ابي طالب خاصة والبيت الهاشمي عامة. ولم نرى للحركة الشيعية في هذه المرحلة، أية محاولة جادة لتحقيـــق أهداف سياسية أو عسكرية ضد الدولة الاسلامية او الخليفة.

ولم تتعد العلاقة بين الشيعة ومعاوية -بعد أن استقرت أمـــور دولته- اللّعن والسباب من قبل الطرفين لكل من عثمان أو علي (١). ويعـــود ذلك الى العداء بين الطرفين، هو استمرار للصراع الذى جرى بين علي ومعاوية. لذا فإن الشيعة بعد انتصار معاوية كانوا تحت تأثير الهزيمة والتسليم بالأمر الواقع، كما أنهم لم يشكلوا ثقلا سياسيا او عسكريا على الدولة (٢).

---

(١) البلاذري، الأنساب، ق١، ج٤، ٨٠، اليعقوبي، التاريخ، ج٢، ٢٣٠/٢٣١

(٢) توفيق برّو، الدولة العربية الكبرى، ٢٧٩/٢٨٠

وبسبب موقف الشيعة المعادى لمعاوية وولاته . فقد انتهجوا اسلوبا مغايرا للاسلوب الذى تبناه الخوارج في حركاتهم، والتي امتازت بقلة التنظيم وعدم التستر بشكل عام. فقد تبنى الشيعة مواقفا منظمة في تبنيهم دعوة سياسية دينية . ويتناجون فيما بينهم في السر حول استحقاق أهل البيت للخلافة دون معاوية وبني أمية (١).

وقد أشير سابقا الى أن زعماء بني هاشم استسلموا للامر الواقع، تحت وطأة سياسة معاوية تجاه التشيع لعلي . فكانوا يفدون عليه فيكرمهم ويداريهم، وكان يدخل معهم في نقاشات عن الخلافة في محاولة لاثبات حقهم بها . ولكن معاوية كان يتحلم عليهم ويكظم غيظه احتسابا لما قد يحدث من اضطراب وفوضى في أرجاء الدولة، لوأنه عاملهم بالقوة والقهر ، بسبب كثرة أنصارهم وقوتهم الكامنه في النفوس.

وأبرز حركات التشيع ومناصرة الهاشميين من آل علي في مطلع خلافة معاوية، حركة قيس بن سعد ، الذى كان من أكبر قادة جيش علي في حياته، ومن بعده أصبح قائدا لأنصار الحسن بن علي . وعند ما جرى الصلح بين الحسن ومعاوية، وحاول قيس اقناع الحسن في الاستمرار في الاقتتال مع معاويه (٢) لكن

---

(١) ابن خلدون ، العبر، م٣، ٣٦٦.

(٢) الطبرى ، التاريخ ج٥، ١٦٤/ ١٦٥، الدينورى، عيون الأخبار، ج٢، ٢١٣، ابن خلدون العبر، م٢، ١٢٣٩.

معاويه نجح في اجتذابه ومداراته كما فعل مع سيده الحسن ، وذلك بأن كتب له كتابا مفتوحا ليدون فيه شروطه، مقابل الصلح والمسالمة ، فأشترط قيس لنفسه ولا صحابه من شيعة علي الامان على أنفسهم وأموالهم، فأمنه معاويه ودخل في الطاعة(١).

وقد ظهرفي الكوفة تكتل شيعي جديد ، وتزعمه رجل من كبار العبّاد والاتقياء، وهو حجر بن عدى وتمكن هذا الرجل من استقطاب أعداد من الانصار الشيعة الى جانبه، وبدأ يشن حملة دعائيه هاجم فيها معاوية والامويين من وراءه. وعامله والي معاوية المغيرة بن شعبة بالحسنى لزهده وتقواه ومكانته بين أهل الكوفة. وقد كان حجر وأصحابه منكرين للوضع الذى آلت اليه الأمور بعد مقتل علي ، فوقف موقفا صلبا ازاء تصرفات المغيرة بن شعبه في لعن علي بن ابي طالب على المنابر في الخطب.

وقد كان المغيرة بطبعه ميالا للمسالمه ، فلم يكن ليتخذ موقفا صلبا ضد حجر وأصحابه، الامر الذى جعل الاخير يتمادى في موقفه ضد الدولة الاموية ، ومن جمل الاقوال التي وجهها الى المغيرة قوله : "والله لئن عدت لمثلها - أى لعن علي على المنابر - لأضربن بسيفي هذا ما ثبت قائما بيدى"(٢)

. وكان المغيرة يكتب الى الخليفة يزوده بمعلومات عن الوضع ويستشيره فيما يصنع ازاء ذلك(٣).

---

(١) الطبرى ، التاريخ ، ج٥، ١٦٥.

(٢) البلاذرى، الانساب، ق١ ،ج٤ ، ٢٢٠ ،الطبرى ، التاريخ ، ج٥ ، ٢٥٤.

(٣) البلاذرى، الانساب،ق١ ، ج٤ ، ١٢١.

ولكن بعد أن جمعت الكوفة والبصرة تحت امرة زياد بن أبي سفيان ،عمل على تهديد أهل الكوفة وتوعدهم فيما اذا استجابوا لدعوة حجر بن عدى هذا ، وقد حاول الوالي الجديد زياد أن يكسب ودّه ويثنيه عما هو فيه من التشيع لبني هاشم ، فأجلسه على سريره ،وشفع له عما مضى من أفعاله السابقة في عهد المغيرة (١) .

وفي احدى المرات التي جاء موعد سفر زياد من الكوفة الى البصرة ، استدعى حجرا ليصحبه معه الى هناك ،خوفا من قيامه بأمور لا يرضى عنها في غيابه ، لكنه رفض مرافقته واعتذر بالمرض ، فتوعده زياد وهدّده ان وصلت اليه عنه أنباء يكرهها .

واستمر حجر في دعوته لبني هاشم ، وخروجه عن طاعة معاوية ، وقد لاقى تجاوبا واسعا بين صفوف أهل الكوفة ،وبدت المواجهة حتمية بينه وبين زياد اثر طلب الأخير له ، لكنه لم يستجب لهذا الطلب ،وقام أصحابه بمهاجمة وضرب شرط زياد (٢) ، وقد بلغ حجر من القوة بمكان جعله يجاهر صراحة بموقفه ،ويحرّض الناس على خلع معاوية (٣) . كما أنه كان يعذل الحسن ويعاتبه على ترك أنصاره وتسليمه الأمر لمعاوية ، وذلك من خلال محاولته لاعادة الأمور الى نصابها ،واعادة الحق الى أهله (٤) .

---

(١) البلاذرى ،الأنساب ،ق ١ ،ج ٤ ،٢٣٤ .

(٢) الطبرى ، التاريخ ، ج ٥ ،٢٥٧ .

(٣) اليعقوبي ، التاريخ ،ج ٢ ،٢٣٠ / ٢٣٠ .

(٤) البلاذرى ،الأنساب ، ق ١ ،ج ٤ ، ١٢١ .

ورأى زياد أنه لا بد من عمل حازم تجاهه ، فاستدعى أشراف الكوفة وخاطبهم متوعدا ومهددا بأنهم ان لم يتركوا حجرا وشأنه ، فانه سيعالجهم بالقسوة ، فأعلنوا الطاعة لمعاوية ولعامله زياد (١) ، وبعد أن لمس الشيعة خطورة الموقف ، مال حجر وأصحابه الى التستر بين ظهراني قبيلة كندة ، وبدأ يدعوهم لنصرته ، فأخرج زياد قبائل الكوفة كلا على حده ، ليبحثوا عنه ويأتوه به ، ولكن قبائل اليمن كانت مترددة ومكرهة في بحثها عنه ، بينما كانت قبيلة مذحج وهمدان جادتين في البحث عنه ، وتمكنوا من حصره في أحد أحياء العرب ، وقتلوا عددا من أنصاره ولكنه أخيرا تمكن من الهرب(٢) ، واستمر في الهرب والتخفي الى أن اضطر الى التسليم ، واشترط على زياد أن يرسله الى معاوية في الشام ليرى فيه رأيه هناك ، وذلك اعتقادا منه بأن معاوية سيعامله معاملة من سبقه من المعارضين والمنافسين له .

فأرسل زياد حجرا الى معاوية وبرفقته اثني عشر رجلا من أصحابه مقيدين بالسلاسل ، وكتب فيهم زياد كتابا الى الخليفة يخبره فيه عن خروجهم عن طاعته ، ولعنهم عثمان وتحريضهم الناس عليه ، وأشهد زياد على كتابه عددا من ثقات معاوية (٣) .

---

(١) الطبرى ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، ٢٦٠ .

(٣) البلاذرى ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ؛ الطبرى ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢٦٨ ؛ اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢٣١

وعند مابلغ أمر قدوم حجـر وأصحابه الى دمشق مسامع معاوية ،استشار كمادثـه أهل الشام في شأن هؤلاء الشيعة ، فأشار عليه يزيد بن أسـد البجلي أن يفرقهم في الشام في المناطق التي ينتشر بها مرض الطاعون ليموتوا فيها،وأشار عليه سعيد بن العاص أن يفرقهم بين القبائل الشامية لكـي تكفل كل قبيلة صاحبها من هؤلاء ، لكن معاوية سارع في ارسال مـن يلاقيهـم على الطريق ، قبل وصول دمشق لقتلهم هناك ، رغم أنهم أعلنوا طاعتهـم للخليفة ، لكنهـم رفضوا لعن علـي. فتم القضـاء علـى حجـر وعـدد من أصحابه ،وأخلي سبيل ستة منهم بعد أن تشـفع لهـم عند معاوية عدد من كبار وجـوه أهـل الشـام(١) .

وكـثرت الأشعار والروايـات عن حجـرو (٢) ، وأفردت لـه المصادر أعدادا كبـيرة من صفحاتها ،وذلك بسبب اعتباره أول معارضـة علنيـة وجدّيـة من قبل العلويين ضد معاويـة ، وأصبح مقتله منبهـا جديـدا لاثارة الشيعـة خاصـة في الكوفـة ضد معاويـةوالأمويـين ، باعتباره أول صحابي يقتل علـى يد الخليفـة بصفتة رجل دولـة دون النظـر الـى الاعتبارات الدينيـة.، وكان مقتل حجر أيضا عقدة ظلّت تقلق الخليفة معاوية طيلة حياته وحتى في اليوم الذى توفي فيه عندما حضرتـه الوفاة جعل يغرغر بصوته ويقول" يومي منك يا حجرو يوم طويل"(٣) .

---

(١) الطبرى ،التاريخ ،ج ٥، ٢٧٣ ؛اليعقوبي ،التاريخ ،ج٢، ٢٣١؛ الحميرى ، الروض المعطار، ٤٠٩ ؛ابن الأثير،الكامل ،ج ٣، ٤٨٦ .

(٢) الطـبرى ، التاريخ ،ج ٥، ٢٨٠، ٢٨٢/ ٢٨٦ ؛ اليعقـوبي ، التاريـخ ، ج ٢ ، ٢٣١ .

(٣) الطـبرى ، التاريـخ ، ج ٥ ، ٢٥٧، ٢٧٨ .

٤ـ مشكلة الخلافة الاسلامية :

ازدادت أهمية مؤسسة الخلافة الاسلامية وتعددت مسئولياتها بمرور الوقت واتساع الرقعة الاسلامية ، كما أن وصول معاوية الى هذه المؤسسة كان له أكبر الأثر في اكسابها أهمية ومزايا جديدة . وهذه الآثار التي خلّفتها معاوية لهذه المؤسسة كانت مثارا لتيارات فكرية في التاريخ السياسي الاسلامي .

فقد بدأت المشكلة الحقيقية بالنسبة لهذه المؤسسة ، بعد تولي علي بن أبي طالب لخلافة الدولة الاسلامية ، وتبلورت المشكلة بعد ظهور عدد من الاتجاهات والحركات السياسية التي بدأت تطالب بالحصول على الخلافة مثل طلحة والزبير ، ثم تلا ذلك خروج معاوية على الخليفة (١) .

ولم تكن هذه المؤسسة السياسية قبل هذه الفترة لتتعرض لمشاكل هامة وخطيرة ، ويؤيد ذلك البساطة والعفوية التي كانت تحلّ بواسطتها قضية تولية خليفة جديد في زمن أبي بكر وعمر وعثمان ، فسرعان ما كان المسلمون يتفقون على الخليفة عن احدى طريقتين هما : الوصاية أو باجماع أهل الحل والعقد من المسلمين المهاجرين والأنصار في المدينة .

واختلفت الأوضاع السياسية في خلافة علي ، فما أن بويع حتى ظهرت المنافسة على الخلافة صريحة من قبل طلحة والزبير ، فأعلنا خروجهما وتحالفا مع عائشة زوج الرسول ، وأعلن هؤلاء عدم الرضا بامارة علي للمؤمنين .

---

(١) أنظر مصطفى حلمي ، نظام الخلافة في الفكر الاسلامي ، ١٥٥/١٥٦ .

وخرجت هذه المشكلة من المدينة ، فقد رأى هؤلاء صعوبة ايجاد الأنصار والمؤيدين هناك ، فاتجهوا الى العراق ، وبدأوا بالدعوة لأنفسهم بالخلافة هناك ، وتمكن الخليفة علي من وضع حدّ لتلك الظاهرة بقوة السيف ، وتمكن من اخماد هذه الحركة في موقعة الجمل .

وقد يعود السبب في اختلاف الأوضاع السياسية اثر تولي علي بن أبي طالب للخلافة الى عدة أسباب من أهمها أن الصحابة رأوا أن توليه للخلافة يشكل خطرا على مستقبلهم السياسي ، وذلك اعتقادا منهم أن بني هاشم ـ وهم آل الرسول ـ اذا تمكنوا من الوصول الى الخلافة ، فان الخلافة ستنحصر بينهم باعتبارهم أقرباء الرسول وورثته ، وهذا الواقع يمكن أن يفسر قبول القرشيين لخلافة كل من أبي بكر وعمر وعثمان بغض النظر عن الطريقة التي وصل فيها كل واحد منهم الى الخلافة عن طريق الوصاية أو الانتخاب ، وقد أصبح هذا التصور حقيقة واقعة عند تولي علي للخلافة وتأكد ذلك عندما أوصى علي بن أبي طالب بالخلافة لابنه الحسن قبيل وفاته .

كما أن ظروف الفتنة والأحوال الاقتصادية السيئة في الأمصار غيرت من نظرة الاحترام لمنصب الخليفة في ظل التنافس على المصالح الاقتصادية والسياسية والتي أذكاها الخليفة عثمان في اعتماده على أقربائه الأمويين ، فأصبحت الوظائف والمناصب هدفا يرنوا اليه مختلف الصحابة وأبنائهم ، وعلى رأس هذه المناصب منصب الخليفة .

فقد رأى سكان الأمصار أن لهم حقا سياسيا يجب أن يمارسوه في الحكم ، اذ أن أهل الحل والعقد في المدينة كانوا فقط هم أصحاب حق

تنصيب الخليفة ، وليس أدل على ذلك سوى الوضع الذى هاجم فيه أهل الأمصار المدينة احتجاجا على سياسة الخليفة ، ثم آلت الأمور لأعيان أهل الأمصار الذين تسببوا في قتل عثمان في اجبار أهل الحل والعقد لاختيار الخليفة الجديد علي بن أبي طالب ، وقد أدّى هذا الوضع الى الطعن في خلافة علي من قبل معاوية والشاميين .

وفتحت حركة طلحة والزبير الباب على مصراعيه ، لكي يصبح منصب الخليفة مطلباً لكل من يرى في نفسه أهلية وكفاءة للسياسة والحكم ، خاصة اذا توفر عدد من الأنصار للاعتماد عليهم ، ولم تعد هيبة منصب الخلافة وصاحبه لتثني عزيمة الطامحين من الصحابة للوصول الى هذا المنصب .

وقد تخطت هذه المشكلة المدينة المنورة والحجاز ، اذ أنه لم يكن بامكان أحد من الطامحين أن يحل محل الخليفة بسهولة ، فتوسع نطاق التنافس السياسي ليعمّ باقي البلاد العربية في البداية ، ثم اتسع اخيرا ليشمل البلاد الاسلامية .

وقد خسر الخليفة منصبه والهيبة التي كان يتمتع بها قبل الفتنة ، في أيام أبي بكر وعمر وأوائل سنوات خلافة عثمان ، خاصة وأن التجارب السياسية الجديدة بعد مقتل عثمان حطّت من هذه الهيبة ، لعدة أسباب منها أن المسلمين قد ابتعدوا من الناحية الزمنية نسبيا عن عهد الرسول ، بالاضافة الى ارتباط السياسة بالمصالح الاجتماعية والاقتصادية .

وقد فتح معاوية بابا جديدا للوصول الى منصب الخليفة ، وذلك عن طريق الجهد والكفاءة الشخصية المفعمة بالمواهب السياسية والادارية

والعسكرية ، وفتح أيضا المجال أمام منصب الخليفة ليستمد هيبته من هيبة صاحبه ، لتصبح الدولة قوية بقوة الخليفة ، أو ضعيفة بضعفه ، وهذا ما يتطبق على الفترة السفيانية من الخلافة الأموية ، فقد كانت الدولة قوية مصانة الجانب في عهد معاوية ، وتبدلت الأوضاع بعد وفاته ، وتولي ابنه أولا وحفيده ثانيا للخلافة ، فأثارا بضعفهما فتنة سياسية جديدة .

وقد أثار الصراع بين علي ومعاوية جدلا ونقاشا شديدين ، وانطوى هذا الجدل على كثير من المفاهيم السياسية التي تبناها كل طرف ، وقد كان انتصار معاوية يمثل انتصارا لنوع جديد من المفاهيم السياسية على صعيد الخلافة والدولة .

وساهمت الخلفية الثقافية والحياتية لدى معاوية في استمراره ودفعه للوصول الى الخلافة ، فقد نشأ في بيت أبي سفيان الذى كان أبرز زعماء قريش في فترة ولادة الدعوة الاسلامية ، ولا شك أنه تأثر بنفسية أبيه الذى أبيح به بعد فتح مكة ، فقد كان لأبي سفيان عدد من المواقف التي تدل على حنينه لأمجاده السابقة والتي فقدها بعد الفتح ، وشعر بالخطر الذى يهدد المسلمين بعد وفاة الرسول فقال " اني لأرى فتقا لا يرتق الا بالدم " (١) ، ويروى أنه خاطب عثمان عندما ولي منصب الخلافة بقوله : " قد صارت اليك بعد تيم وعدى ، فأدرها كالكرة ، واجعل أوتادها في بني أمية ، فانما هو الملك ، وما أدرى ما جنة ولا نار ...." (٢) .

---

(١) البلاذرى ، الأنساب ، ط ١ ، ج ١ ، ٥٨٩ .
(٢) المقريزى ، النزاع والتخاصم ، ١٨ / ١٩ .

ولمعاوية نفسه أقوال قد تدل على أن تسلمه للخلافة ،انما هو استرجاع لمجد بني أمية الذى زال بانتصار الاسلام ،ويؤيد ذلك ما جاء عن المدائني في رواية عن علي بن سحيم قال (خطب معاوية فقال : الحمد لله الذى أدالنا على عدوّنا وردّ علينا زماننا ،فقال رجل من أهل الشام : أما والله ما ذاك لكرامتك على الله يا معاوية ،فقال عمرو بن العاص للشامي : ما أنت والكلام وأنت من حثالة أهل الشام وسقّاطهم وسفلتهم ،فقال الشامي : يا عمرو ما عدوت صفتك " (١) .

وتناول المؤرخون في الفترة العباسية خلافة معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين بالتحليل ،من منطلق أن هذا المنصب كان قد سلبه معاوية من أصحابه الشرعيين .

ومن أمثلة ذلك ما جاء على لسان المقريزى في قوله " أما بعد ،فاني كثيرا ما كنت أتعجب من تطاول بني أمية للخلافة ،مع بعدهم من جذم رسول الله ،وقرب بني هاشم ،وأقول كيف حدثتهم أنفسهم بذلك ؟وأين بنو امية وبنو مروان بن الحكم طريد رسول الله ولعينه من هذا الحديث ،مع تحكم العداوة بين بني أمية وبين بني هاشم في أيام جاهليتها ،ثم شدّة عداوة بني امية لرسول الله ،ومبالغتهم في أذاه ، وتماديهم على تكذيبه فيما جاء به ، منذ أن بعثه الله عز وجل بالهدى ودين الحق ، الى ان فتح مكة ،فدخل من دخل منهم في الاسلام كما هو معلوم مشهور ، وأردّد قول القائل :

كم من بعيد الدار نال مراده وآخر داني الدار وهو بعيد

---

(١) البلاذرى ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٦٣ .

فلعمري لا بعد أبعد مما كان بين بني أمية وبين هذا الأمر، اذ ليس لبني أمية سبب الى الخلافة، ولا بينهم وبينها نسب الا أن يقولوا انا من قريش ليساوون بهذا الاسم قريش الطواهر، لأن قوله "صلى الله عليه وسلم": "الأئمة من قريش"، واقع على كل قريش، ومع ذلك فأسباب الخلافة معروفة، وما يدّعيه كل جيل معلوم، والى كل ذلك قد ذهبت الناس، فمنهم ادّعاها الى علي باجتماع القرابة والسابقة والوصية بزعمهم، فان كان الأمر كذلك، فليس لبني أمية شيء من ذلك ...." (١) .

ونستشف من خلال هذا النص بعض الأسس والمفاهيم التي كانت تؤخذ بعين الاعتبار في تولية الخليفة، وقد استند بنو العباس على هذه الأسس في تبرير شرعية طلبهم للخلافة، واعتبروا بذلك أن خلافة بني أمية كانت عرضا طارئ ومؤقتا، وانما هم استولوا عليها اغتصابا (٢) .

ففي بداية الصراع، لم يكن معاوية في نظر الشاميين مطالبا بالخلافة. وقد تعرض للضغط من قبل العباد والأتقياء من أهل الشام لكي يعمل على حل الخلاف بينه وبين علي بن أبي طالب خليفة المسلمين بشكل سلمي، وطلبوا منه أن يكتب كتابا بهذا الشأن له (٣) .

---

(١) المقريزي، النزاع والتخاصم، ٢ / ٣ .

(٢) للاطلاع على معالم التيارات السياسية ومذاهبها المختلفة المتعلقة بمؤسسة الخلافة انظر كتاب الدكتور مصطفى حلمي "نظام الخلافة في الفكر الاسلامي" .

(٣) البلاذري، الأنساب، ط ١، ج ٢، ٢٩٣ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ٢٨٥ / ٢٨٦ ؛ الدينوري، الأخبار الطوال، ١٦٢ / ١٦٣ .

ولم يكن معاوية ليعلن نفسه خليفة منافسا لعلي على امارة المؤمنين ، ولكنه جعل الأمور تسير في مسارها الطبيعي وبشكل تدريجي ، وقد ساهم ذلك في نجاحه في الوصول الى هدفه عن طريق اكتساب رضى عامة المسلمين من أهل الشام .

ويلاحظ من المراسلات الكتابية والشفوية بين علي ومعاوية أن الأول ظل يتشبث بالأسس التي انتخب خليفةً على أساسها ، بينما اعتبر علي خصمه معاوية خارجا عليه متذرعا بالطلب بدم عثمان كوسيلة للوصول الى الخلافة (١) .

ومن أبرز الأسس التي ظل الخليفة متمسكا بها هي اجماع المهاجرين والأنصار على بيعته ، وهم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان من قبله ، وركّز على اجماع الأمة عليه ، واعتبر أهل الشام من الناكثين (٢) .

وقد تفاقمت المشكلة بعد أن جند كل طرف منهما جلّ أنصاره وأعوانه ، وصار طلب الخلافة من قبل معاوية ليس أمرا مستهجنا ، وصارت الألسن تردد : " أن الشام لا يملك الا بهلاك العراق ، وأن العراق لا يملك الا بهلاك الشام " (٣) .

---

(١) البلاذري ، الأنساب ، ط ١ ، ج ٢ ، ٢٩٧ ؛ الدينوري ، الأخبار الطوال ، ١٤١ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ؛ مؤلف مجهول ، تاريخ الخلفاء ، ٥٢ / ٥٣ .

(٢) الطبري ، التاريخ ج ٥ ، ١٦١ ؛ مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ٨٣ / ٨٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ٢٨٥ / ٢٨٦ .

(٣) البلاذري ، الأنساب ، ط ١ ، ج ٢ ، ٢٩٧ .

وينطوي على هذا الموقف الشعور بأهمية لمن تكون الغلبة ، لأن ذلك كفيل بتحقيق أهداف الطرف المنتصر ، في الوقت الذى ظل الحجاز في عزلة عن الموقف ، بالرغم من أن المدينة والحجاز هما الطرف الخاسر مهما كانت النتيجة ، نظرا لأن عليا ارتبط ارتباطا وثيقا بالعراق والعراقيين .

ولا شك أن قبول علي بن أبي طالب لفكرة التحكيم في نهاية معركة صفين . يعتبر اعترافا ضمنيا منه بأن معاوية أصبح ندا مكافئا له في القدر والأهمية ، مما أدى الى زيادة تشدد معاوية ، فقد رفض أن يطلق لقب أمير المؤمنين على علي في كتاب التحكيم ، ووافق علي على ذلك أسوة بموقف الرسول في صلح الحديبية مع قريش حين رفضوا أن يطلقوا عليه لقب رسول الله (١) .

وقد ترتب على ذلك آثاراً بالغة السلبية على علي وأنصاره وقد أعطى بذلك صورة قلقة عن هيبة منصبه كخليفة للمسلمين في الوقت الذى كان فيه الحكمان يتداولان في أمر الأمة .

وظاهرة التحكيم أول ظاهرة من نوعها في تاريخ الخلافة الاسلامية ، وهي شكل جديد من أشكال الشورى المعهودة من قبل ، لكنها تمتاز في فترة وقوعها بأنها تمت لاعادة النظر في الخليفة المنتخب ، فقد وضع هذا الخليفة أمره بيد حكم من أعوانه ، ليقرر مع حكم آخر من جانب معاوية مصير الخلافة .

---

(١) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٥٣٠ ؛ اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ١٩٠ / ١٩١ ؛ مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ١٣٧ ؛ الدينوري ، الأخبار الطوال ، ١٩٤ ، ١٩٥ ؛ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج ١١ ، ٢٩ .

ويجدر بالذكر أن عملية التحكيم لم تكن دليلا على ضعف الخليفـــة ، بقدر ما هي دليل على ضعف المساندين له وتشتتهم الى فرق وجماعات ، ولكل من هـــذه الفرق زعيما يتبنى وجهة نظـر معينة ، يرى فيها وسيلة للخــلاص من الفتنة والاقتتــال .

فكانت عملية التحكيم بذلك هي عتبة الخلاف السياسي ، الذى أدى بدوره الى ظهور الفرق الاسلاميـة والأحزاب السياسية في التاريخ الاسلامـي ، فقد ظهر الخوارج اثر طرح بعض الجماعات المساندة لعلي لبعض الشعارات السياسية ، ولكن عليا لم يمتثل لهذه الشعارات ، واضطر الى استعمال السيف للقضاء على الجماعات المناوئـة.وتم اللقاء في معركة النهروان التي كانـت سببا في تفرق الخوارج وانتشـارهم في عدد من المناطق ، وكانت هذه البـذور الأولى التي نما منها الخوارج كحزب سياسـي ديـني .

وبعد وفاة علي نشطت فكرة التشيع له ، فكانت تلك هي بدايـة ظهور الشيعة كحزب سياسي وديني ، وقد تشعّب عن هذا الحزب عدد مـن الفرق التي اتخذت أسماء مختلفة ، وكان كل من فرقتي الشيعة والخوارج مثارا لقلق الدولة الاسلاميـة التي انشغلت فترات طويلة في محاولاتها للحد مـن حركاتهما والقضاء عليهمـا .

وبعد أن اكتملت جوانب الخدعة في التحكيم ، بات وضـع علي وأنصاره في حالة من الفوضى والاضطراب ، في الوقت الذى تعزز موقف الشاميين فيه ، فقد ثبّت عمرو بن العاص معاوية ، بينما خلع أبو موسى الأشعـرى صاحبه ، كمـا أشـير سابقا .

وعند ذلك أدرك معاوية أن البيعة الاسمية له بالخلافة من قبـل

عمرو ، لا بد من أن يتبعها بانجازات عديدة ليعمل على ترسيخها ، فان المنافسة بينه وبين علي لم تزل على أشدها كما أن الأمصار والولايات لم تزل تحت امرة عمال وولاة الخليفة علي بن أبي طالب .

بدأ معاوية بارسال البعوث العسكرية ليوطد الأمور لنفسه (١) ، فبدا وكأن تلك الحرب الأهلية انتقلت من صفين لتشمل باقي الولايات العربية ، كرمز يحاول فيه الخليفة الحفاظ على ولاء تلك المناطق له ، بينما كان معاوية يحاول السيطرة على تلك المناطق ، وقتل أنصار وشيعة الخليفة فيها . .

ثم جاءت حادثة مقتل الخليفة على يد أحد الخوارج ، لتتوج جهود معاوية وتقربها الى نيل الهدف ، وفي محاولة يائسة حاول أتباع علي مبايعة الحسن كخليفة للمسلمين ليكمل جهد أبيه في القتال (٢) ، وفي هذه المرحلة أصبحت الخلافة قلقة جدا وحائرة بين الحسن ومعاوية .

وهناك ظاهرة تثير التعجب والاستفهام حول تولي الحسن للخلافة بعد أبيه ، اثر وصايته له بذلك قبل موته ، ووجه الغرابة في هذا المجال أننا لا نرى أية معارضة لقضية توريث الخلافة للحسن ، وكأن ذلك يعني ضمنا بأن الخلافة تنحصر في بني هاشم (٣) . وان لم يكن هذا التفسير صحيحا ،

---

(١) البلاذري ، الأنساب ، ط ١ ، ج ٢ ، ٤٤٥ ، ٤٧٣ ؛ اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ١٩٥ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ٢/ ٢١ ، ٢٢ ؛ النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٠ ، ٢٥٣/ ٢٦٤ ؛ المبرد ، الكامل ، ج ٢ ، ١٤٥/ ١٤٦ .

(٢) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ١٥٨ ؛ ابن خياط ، التاريخ ، ج ١ ، ١٨٧ ؛ مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ١٧٠ ؛ ابن خلدون ، العبر ، م٢ ، ١١٣٦ / ١١٣٨ .

(٣) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ٦ .

فقد تكون المدة القصيرة التي قضاها الحسن بالاضافة الى تولي معاوية للخلافة من بعده،السبب في قلة المعلومات التي يمكن أن تعطي تفسيرا لهذه الظاهرة .

ورغم أن الحسن كانت تنطبق عليه الأسس المشروطة لتوليه منصب الخلافة ،لكن هذه الأسس النظرية لم تكن لتغنه شيئا في أرض الواقع، نظرا لسوء الأحوال التي ورثها عن والده ،في الوقت الذى كان فيه معاوية يطبق سياسة عملية واقعية ضمنت مصالح أعوانه الشاميين ، الذين ظلّوا متكاتفين من حوله ، مما جعل معاوية المرشح الأقوى والأوحد لمنصب الخلافة .

٥ - تولية العهد ليزيد :

اعتاد المسلمون في فترة الخلفاء الراشدين على اختيار خليفة جديد لهم بعد وفاة أو مقتل الحاكم ، وكان مبدأ التشاور بين الصحابة من المهاجرين والأنصار هو الأساس في اختيار الخليفة ،ثم يأتي دور عامة المسلمين في مبايعته وإعلان طاعته .

وقد أدت التطورات السياسية المتعددة بعد الفتنة ، الى الخروج عن مبدأ الشورى الممثل للخط الاسلامي الذى غرسه الرسول بين الصحابة في حياته ، وأول حادثة خروج فعلية على هذا المبدأ رغم اجماع الغالبية العظمى من مسلمي الحجاز لبيعة علي ،هي حادثة خروج طلحة والزبير وعدم رضاهما بامارة علي على المؤمنين رغم أنهما كانا من أول الذين أعلنوا البيعة له (١) .

وكانت حادثة صدام علي معهما أول حادثة في التاريخ الاسلامي يدافع فيها الخليفة عن منصبه كأول رجل سياسي في الدولة ، وكانت معركة الجمل أول معركة يحارب فيها المسلم أخيه المسلم في سبيل السيطرة على الدولة ، وتولي الحكم فيها .

ولعل خير ما يفسر ظاهرة الخروج على مبدأ الشورى واختيار الخليفة بناء عليه ،هو أن هذا المبدأ لم يعد يلبي رغبات كبار الصحابة ويرضي مطامعهم ، والواقع التاريخي الذى نلمسه في السنوات التي تلت مقتل

---

(١) توفيق برو ، الدولة العربية الكبرى ، ٢٨٦/ ٢٨٨ .

عثمان ، يشعرنا أن تلك النزعة في الابتعاد عن هذا المبدأ أخذت تزداد كلما بعد الزمان عن عهد الرسول ، فقد تطورت الأوضاع وكثرت التعقيدات ، وجدّت أشياء كثيرة على الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، بالاضافة الى تعدد الأهواء والاتجاهات والمصالح .

كما أن الثقل السياسي والاداري للمدينة بات قلقا ومضطربا بعد خلافة عثمان ، وذلك بسبب كثرة الأعداد المهاجرة الى المناطق المفتوحة ، وقد أصبح هؤلاء الفاتحين وروادفهم من القبائل التي لحقت بهم مع مرور الوقت ، يرون أن لهم حقا سياسيا يجب أن يمارسوه ، ولم يعد ما يقرره أصحاب الحل والعقد من الصحابة المقيمين في المدينة يرضيهم .

ولعل خير ما يدل على هذا الواقع موقف العرب من الأمصار تجاه الخليفة عثمان قبيل الفتنة ، وقد كان توجههم الى المدينة جزءا من ممارستهم لهذا الحق السياسي ، خاصةوأن سياسة الخليفة لم تعد تعجبهم .

وجرى للأمة الاسلامية ما جرى من الفتنة والاقتتال ، وترتب على ذلك تفرق الأمة الى جماعات وأحزاب متعددة الاتجاهات والأهداف والآراء ، وفي خضم هذا الواقع توالت عدة ظروف أتاحت لمعاوية أن يكون العلاج الشافي لهذا الوضع السياسي المتأزم والخطير .

وقد تمكن معاوية من اعادة توحيد الأمة تحت طاعة خليفة واحد ، وحافظ على كيان الدولة الاسلامية ازاء الأخطار الخارجية المحيطة بها ، والتي كانت تعد العدة للقضاء عليها في زمن الفتنة ، وكان ذلك يسير وفق سياسة دقيقة ومرسومة أشير الى جوانبها ومزاياها آنفا .

ولم يَخْفَ على معاوية ما ستصير اليه الأمة بعد وفاته من العودة الى أدراج الفتنة والاقتتال ، وقد استعد لهذا الأمر بتولية العهد في حياته لابنه يزيد (١) ، اضافة الى أنه حقق أهدافا أخرى من وراء هذا الاجراء.

وأدرك الخليفة أن الخطوة الجديدة لن تكون سهلة في كنف الدولة الاسلامية ، وزيادة في التحفظ والخوف من ردود الفعل المتوقعة تجاه ولاية العهد ، فانه بدأ بخطوات أولى استعدادا للفكرة ، لكي تلاقي هذه الفكرة قبولا بشكل تدريجي بين الناس.

وتعزو الروايات فكرة البيعة بولاية العهد أنها كانت من أفكار المغيرة بن شعبة ، وقد قدمها نصيحة لمعاوية عندما شعر أن منصبه على ولاية الكوفة أصبح مهددا بالزوال (٢). والأمر الذى يجعلنا نشك في ذلك هو أن معاوية كعادته كان يحاول أن يجعل تدابيره وكأنها استجابة لرغبات غيره ، وكانت هذه الوسيلة تحقق نجاحا كبيرا في تنفيذ أفكاره وسياسته من خلال الشخصيات المحيطة به ، والواقع التاريخي في سيرة معاوية يؤيد ذلك في كثير من الحوادث ، ومن أبرزها قضية الطلب بدم عثمان ، وتحريض الشاميين على ذلك كما أشير سابقا.

---

(١) ابن حبيب ، المنمق ، ٤٤٩ .

(٢) الطبرى ، التاريخ ، ج ٥ ، ٣٠١/ ٣٠٤ ؛ اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢١٩ / ٢٢٠ ؛ مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ١٧٢ / ١٧٨ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ٩٧ ؛ النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٠ ، ٣٤٨ / ٣٤٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ٥٠٣ ؛ مؤلف مجهول ، تاريخ الخلفاء ، ٧٠ .

ونستطيع أن نحكم من خلال الاطلاع على الروايات التي تتناول علاقة معاوية بولده يزيد ، أنه كان يُدرِّبه على شئون الحكم، ويرسم له معالم السياسة التي يجب عليه أن ينتهجها في حكمه للناس بعد وفاته (١) .

كما أن هناك ما يدل على أن البيعة بولاية العهد كانت من تدبير الخليفة نفسه ، ويعكس ذلك ما يرد عن استشارته لزياد ـ وهو ساعده الأيمن ـ بشأن البيعة (٢) ، كما أن هناك روايات تذكر أنه كان يستشير أهل الشام في ذلك (٣) ..

وكان الخليفة يهدف الى تحقيق عدد من الأغراض من وراء هذا التدبير ، ومن أبرز هذه الأغراض هو حصر الخلافة في بني أمية من بعده ، كما أنه كان يصرح بأن المبرر لهذا المنصب الجديد ـ ولاية العهد ـ هو وضع الحد للفتنة في اختلاف المسلمين على الخليفة الذى سيليه .

ولو حاولنا استقصاء العوامل التي سهّلت على معاوية مهمته في التصرف بمؤسسة الخلافة الاسلامية ، لوجدنا أن الخليفة شعر بفضله على هذا المنصب ، بعد أن جعله قويا ومصان الجانب على صعيد الداخل والخارج ، كما أنه شعر بأنه أضفى على مؤسسة الخلافة مزايا جديدة ، جعلها مرموقة المظهر ومشابهة للأنظمة السياسية المعاصرة .

---

(١) البلاذرى ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٤٦ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ٢٩٢ .

(٢) الطبرى ، التاريخ ، ج ٥ ، ٣٠٢ / ٣٠٣ .

(٣) مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ١٧٨ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ١٣١ .

وكان معاوية يرى أنه وصل الى هذا المنصب بجهده الخاص وحنكته السياسية، وكان يرى أيضا أن لا فضل لأحد عليه في ذلك ، ومن هنا فانه رأى في منصبه شيئا خاصا به يحق له التصرف والتدبير دون النظر الى الظروف والموانع المحيطة ،الا بالقدر الذى يمهد لنجاح تدابيره واجراءاته .

وانضوى تحت فكرة تولية العهد لابنه يزيد مفهوما آخر، جرّ الفقهاء الى الخوض في غمار النظريات الاسلامية في مجال السياسة والحكم ، وهذا المفهوم هو فكرة توريث الخلافة من الأب الى الابن .

ولا شك أن هناك سابقة أخرى قبل توليه العهد ليزيد في توريث الحكم، وهذه السابقة هي تولي الحسن للأمور بعد مقتل أبيه، وقد كان علي قد أوصي بالخلافة له من بعده عندما شعر بدنو أجله، ولكننا لا نجد أصداءً لهذه الحادثة في توريث الحكم ، ويعود ذلك الى قصر المدة التي تولى بها الحسن إمرة أنصار أبيه من أهل العراق والحجاز ، بالاضافة الى حالة الفوضى التي دبّت بين صفوفهم بعد موت علي .

كما أن فكرة البيعة لاثنين في آن واحد مورست قبل معاوية على شكل بسيط أثناء عملية خروج طلحة والزبير (١) ، فكانت هذه السوابق قريبة العهد من معاوية والمسلمين ، وقد كانت مدعاة تُسهّل عملية الخوض فيها من جديد .

وكان الخليفة من القوة بمكان ، جعله يسيطر على مؤسسة الخلافة

---

(١) ابن العبرى ، مختصر تاريخ الدول ، ١٠٥ .

وما دونها من المناصب السياسية والادارية سيطرة تامة،ويصبغها بالمزايا التي يريدها لها خارجا عن الاطار التقليدى الذى توارثته الأمة على مدى عهد الخلفاء الراشدين (١) .

وقد أحسّ معاوية أن الخلافة كغيرها من باقي مؤسسات الدولة تحتاج الى تطوير ونمو ، لتتلائم مع الأوضاع المتغيرة على مر السنين ، وقد كان يعزو المشاكل المختلفة التي تعرضت لها الدولة قبله الى الجمود والتركيز على نمط معين من الحكم والادارة .

ولعل فكرة تولية العهد تأتي لتعزز النظرية السياسية التي حاول معاوية ارساءها في نفوس المسلمين ، والتي مفادها أن الحكم تفويض وقدر من الله وهبه اياه دون غيره . وانطلاقا من هذا فانه في نظر معاوية لا توجد أية فئة تستطيع من أن تحد من سلطاته على مستوى البشر (٢) .

بدأ معاوية بتنفيذ الأمر في البداية عن طريق طرح المسألة للمشاورة وتبادل الرأى ، موهما العامة أنه لا زال متمسكا بمبدأ الشورى ، فقد كتب الى زياد يستشيره في ذلك ، فاستشار زياد بدوره أحد أعوانه وهو عبيد بن كعب النميرى ، فأشار عليه بالموافقة على البيعة بتولية العهد ليزيد ، مع تحفظه حول الصفات التي تنفّر الناس من يزيد ، كشرب الخمر والغناء واللعب بالحيوانات .

---

(١) البلاذرى ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١١٢ .

(٢) الطبرى ، التاريخ ، ج ٥ ، ٣٠١ / ٣٠٤ .

فكتب زياد الى معاوية موافقته على الفكرة ، لكنه طلب منه التريّث بالأمر وأن يتود الناس أولا ويهيء الجو العام لهذا الاجراء (١) .

وقد كان المغيرة بن شعبة في هذه الأثناء يروج للفكرة بين أهل الكوفة ، بينما كان زياد مترددا في ذلك في البصرة بالأمر الذى جعل معاوية يهاب جانب زياد ، وأظهر غضبه وحقده عليه بقوله : " ويلي على ابن عبيد ، لقد بلغني أن الحادى حدى له أن الأمير بعدى زياد ، والله لأردنّه الى أمه سمية وأبيه عبيد " (٢) .

واستغل معاوية وفاة الحسن في ظروف غامضة في الحجاز ، ليبدأ بالبيعة لابنه بولاية العهد بين أهل الشام (٣) ، فطلب من الضحاك بن قيس أن يمثل دورا أمام وجوه الشاميين ليوهمهم بأن فكرة تولية العهد ليست من تدبيره ، وذلك بأن يستأذن من الخليفة لقول كلمة في الناس ، وعندما يأذن له معاوية بالكلام ، يقوم بين الحاضرين ليذكر ابنه يزيد بالخير ويعدد مناقبه ، ويطلب من معاوية توليته العهد من بعده .

كما أن معاوية طلب من كل من عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وعبد الله بن مسعدة الفزارى ، وثور بن معن السلمي ، وعبد الله بن معن السلمي ، وعبد الله بن عصام الأشعرى ، أن يقوموا ويكثروا من الثناء على يزيد ، ويؤيدوا

---

(١) الطبرى ، التاريخ ، ج ٥ ، ٣٠٢/ ٣٠٣ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ، ٣٥٠ .

(٢) اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢١٩/ ٢٢٠ .

(٣) الدينورى ، عيون الأخبار ، ج ١ ، ٩٥ .

ما قاله الضحاك من الطلب بالبيعة له بعد أبيه .

وبهذه الطريقة نجح الخليفة في ضمان البيعة لابنه في بلاد الشام(١)، أما بالنسبة لباقي الولايات الاسلامية، فقد ظل الأمر بين الأخذ والرد، الى أن توفي زياد بن أبي سفيان، فبدأ معاوية يعمل على أخذ البيعة لابنه من باقي الأمصار وبشكل علني صريح .

وبدأت المعارضة تظهر في الحجاز بين كبار الصحابة، وعلى رأسهم الحسين بن علي وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمن بن أبي بكر وعبدالله بن عباس، وقد كان هؤلاء الصحابة يرون لأنفسهم حقا في الخلافة نظرا لمكانتهم الاجتماعية والسياسية بين الناس بسبب فضلهم وسابقتهم مع آبائهم في الاسلام .

ففي بداية الأمر ذهب معاوية معتمرا الى الحجاز، وحاول أن يقابل كل واحدٍ من هؤلاء الصحابة على انفراد، ليأخذ البيعة منهم، لكنه لم ينجح في ذلك بسبب اصرارهم وتعنّتهم على أن كل واحد فيهم كان يطلب تأجيل بيعته ليزيد بحجة أن تتم بيعة الآخرين ليدخل فيما يدخل فيه الباقين، وكانت نواياهم واضحة في رفض البيعة(٢) .

ولم تكم المعارضة تقتصر على هؤلاء الصحابة المنافسين لمعاوية، وانما شملت مروان بن الحكم الذى كان غير راضٍ عن هذه البيعة، وعمل على تذكير معاوية أن في بنيه من الأمويين من هم خير من يزيد،

---

(١) المسعودى، مروج الذهب، ٢٧ ؛ مؤلف مجهول، الامامة والسياسة، ١٧٦ / ١٧٨ .

(٢) الطبرى، التاريخ، ج ٥، ٣٠٣ / ٣٠٤ ؛ خليفة بن خياط، التاريخ، ج ١، ١٦٩ .

كما أن هؤلاء الأمويين من القوة والكفاءة بشكل يجعلهم نظراءله في قدراته ودهائه ، وكان مروان في حديثه يتكلم عن نفسه ، وتمكن معاوية من ارضائه وتخفيف غضبه عن طريق زيادة عطائه مبلغ ألف دينار كل شهر ، وفرض لأهله مئة دينار شهريا (١) .

كما أن سعيد بن عثمان بن عفان قد رأى في بيعة يزيد خذلانا له ولأبيه ، فبدأ بالقاء اللوم على الخليفة على صنيعه ، وأخبره أنه لم يصل الى الخلافة الا عن طريق الطلب بدم أبيه ، لكن معاوية أنكر فضله وفضل بني أمية عليه ، وامتدح في نفسه قوته وشخصيته ودورهما في تحقيق ما وصل اليه (٢) ، وفي مصر بويع يزيد بولاية العهد وبدت المعارضة على يد عبدالله بن عمرو (٣) .

ولهذه المرحلة أهمية بالغة في تاريخ الفكر السياسي الاسلامي ، فقد فتحت الأبواب أمام المفكرين والفقهاء للدخول في مسألة الامامة أو الخلافة ولمن تكون ؟ كما أن العلماء المسلمين نظروا في شروط صاحب الخلافة وصفاته التي تؤهله ليصبح خليفة للمسلمين (٤) .

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ٢٨ / ٢٩ ؛ مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ٩٨٣ .

(٢) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٨ ، ٢٦١ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ٢٣٤ .

(٤) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ١٣١ .

وقد جرت مناقشات وجدل حول شرعية تصرف معاوية هذا ، وخرج الى حيّز الوجود صراع بين المبادئ والأسس التي طبّقها معاوية ، وبين الأسس والمبادئ الموروثة عن عهد الخلافة الراشدة .

ومن هذا القبيل حديث جرى بين عبدالله بن عمر بن الخطاب ومعاوية ، حيث قال الأول أن أبناء الخلفاء الراشدين وأبناء الصحابة أفضل وأولى حقا من يزيد بالخلافة ، كما أنهم أكثر جدارة بها ، ولكن معاوية ردّ عليه مستندا على مبدأ القياس ، بأنّ قارن بين تولية العهد لولده بتعيين أبي بكر لعمر خليفة من بعده أثناء مرضه (١) .

وأصرّ عبدالله بن الزبير على معاوية أن يقيس على نسق الرسول قبيل وفاته ، فانه لم يستخلف أحدا من المسلمين ، أو أن يقيس على ما صنع أبو بكر حيث عهد الى رجل من قاصية قريش بالخلافة وهو عمر بن الخطاب ، أو أن يترك الأمر شورى بين المسلمين (٢) ، في الوقت الذي أصرّ فيه معاوية على مبدأ الجماعة ، والتخلي عن كل ما عُرِضَ عليه ، ويمكن تفسير تركيز معاوية على هذا المبدأ هو : أنه كان صاحب الفضل في جمع شمل الأمة بعد الفتنة (٣) .

---

(١) البلاذري ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٧ ؛ مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ١٩٥ / ١٩٧ .

(٢) ابن خياط التاريخ ، ج ١ ، ١٦٩ ؛ أبو بكر العربي ، العواصم من القواصم ، ٢١٦ / ٢١٧ ، ٢٢٠ / ٢٢١ .

(٣) البلاذري ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٦٥ .

واعتبر معاوية نفسه سيدا لهذا الموقف وصاحب الحل والعقد فيه ، ولم يلتفت الى ما قيل من قبل المعارضين حول الشروط التي يجب أن تتوفر في الخليفة والمؤهلات التي تخولة الحكم .

وقد كان موقف معاوية هذا وتصلبه فيه ، مدعاة لقبول عدد كبير من فقهاء المسلمين وزعمائهم بالقبول بالأمر الواقع ، رغم وجود أناس أفضل من يزيد للخلافة ، وترتب على ذلك بروز فكرة القبول بالمفضول مع وجود الأفضل في الفكر السياسي الاسلامي ، وذلك تهربا من الوقوع بالفتنة من جديد (١) .

كما أن فكرة تولّي العهد فتحت المجال للخوض في فكرة وجوب طاعة الامام ، ففي حالة وجود خليفتين في آن واحد ، كما هو الحال أثناء خلافة علي وصراعه مع معاوية ، فقد كان كل منهما في نظر أصحابه الإمام الذى تجب طاعته ، فلمن تكون الطاعة الحقيقية في هذا الوضع ؟ فكان علي في نظر الشاميين باغيا وكافرا ، بينما كان معاوية في نظرهم عادلا ، والعكس صحيح بالنسبة للعراقيين ، وفي حالة وجود ولي للعهد ، فما هي صلاحياته أمام الخليفة وأمام الأمة ؟. فقد اهتمت كتب الفقه الاسلامي في ايجاد الاجابات حول هذه الأسئلة (٢) ، وكانت تلك الأسئلة من الاثار التي خلّفها معاوية في التاريخ السياسي الاسلامي .

---

(١) اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢٢٨ ؛ أبو بكر بن العربي ، العواصم من القواصم ، ٢٢٦ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ٧٢ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ج ٤ ، ١٣٤ ؛ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج ١٠/٧ ؛ البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ١/٢ .

وعلى صعيد متابعة معاوية لتنفيذ خطته في تولية العهد ، فقد أخفقت محاولاته السلمية بالحسنى في الوصول الى نتيجة مرضية بين المعارضين ، فاضطر أن يأخذ بيعتهم قسرا وبالتهديد والاجبار ، بالرغم من عدم رضاهم ، وبعد أن أجبرهم على البيعة اعتبر نفسه قد أخذ بمبدأ الشورى من الناحية الشكلية ، بينما هو قضى على هذا المبدأ من الناحية الفعلية .

ولم يغب الحسين بن علي عن بال الخليفة ، فكتب له كتابا يهدده فيه ، ويطلب منه ضرورة المحافظة على العهد (١) ، وقد ظلت نفوس كل من عبدالله بن الزبير والحسين بن علي وعبدالله بن العباس وعبدالرحمن بن أبي بكر تكظم الغيظ الى حين وفاة معاوية ، فوجدوا متنفسا جديدا للثورة على الوضع .

وبعد أن تمت البيعة بولاية العهد ليزيد ، صار معاوية يعمل على تهيئته للخلافة ، من خلال نصائحه وارشاداته له .. وقد رسم له سياسة يسيرها في العرب ، وكان معاوية يدرك أن في الحجاز نارا تختفي وراء الرماد فطالما كان ينصح ابنه يزيد ، ويذكره بخطورة أبناء الصحابة المشار اليهم آنفا .

ومن هذا القبيل نراه يقول لابنه : " ان لك من أهل المدينة يوما ، فان فعلوها فارمهم مسلم بن عقبة ، فانه رجل قد عرفها نصيحة ...... " (٢) .

---

(١) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ١٠١ / ١٠٢ .

(٢) البلاذري ، الأنساب ، ق٢ ، ج٤ ، ٤٣ ؛ نفس المصدر ، ق١ ، ج٤ ، ٤٢ ، ٤٦ ؛ الطبري ، التاريخ ، ج٥ ، ٣٢٣ .

ومن أبرز معالم النهج السياسي الذى رسمه الخليفة ليزيد في سياسة العرب ، أنه نصحه أن يكرم أهل مكة والمدينة لأنهم أهله وسنده ، وطلب منه أن يجزل لهم الهدايا والصلات ، أما أهل العراق ، فوصفهم بأنهم أهل المحن على أمرائهم ، فان طلبوا منه أن يغير أميرهم فعليه أن ينفذ رغبتهم حتى لو اقتضى الأمر أن يبدّل لهم كل يوم أميرا ، أما أهل الشام وهم بطانته وعشيرته وحصنه وهم سلاحه ضد خصومه ، فقد نصحه أن لا يدعهم يقيمون خارج الشام بعد أداء المهمات الموكلة اليهم ، وذلك خوفا من تأثرهم بغيرهم وفسادهم .

وقد أفرد معاوية ليزيد عبارات كثيرة كان يحذره فيها من خداع ابن الزبير ووثوب الحسين بن علي بقوله : " ان بني أبي طالب مدّوا أعناقهم الى غاية أبت العرب أن تعطيهم اياها ...." (١) ، ومن خلال هذه النصائح فان معاوية حاول أن يعطي نتائج تجاربه وخبراته السياسية لابنه يزيد ليساهم في رسم معالم سياسته في المستقبل .

وايمانا من معاوية بأن ولده يزيد لم يكن يتمتع بالكفاءة التي كان يتمتع بها والده ، فانه كان يسابق الزمن في التخطيط لسياسة ابنه المستقبلية بعد وفاته ، وعندما مرض مرض الوفاة ، استدعاه وقال له : " يا بني اني قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأمور ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، واني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك إلا أربعة نفر من قريش ، الحسين بن علي وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمن بن أبي بكر .

---

(١) البلاذري ، الأنساب ، ق ٤ ج ١ ، ٣٠ ، ٨٣ ، ١٢٣ .

وأما عبدالله بن عمر ، فرجل قد وقذته العبادة ، واذا لم يبق أحد غيره بايعك ، وأما الحسين بن علي ، فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فان خرج عليك وظفرت به ، فاصفح عنه فان له رحما ماسّه وحقا عظيما ، وأما ابن أبي بكر فرجل ان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم ، ليس له هم الا النساء واللهو .

وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب ، فاذ أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها بك فقدرت عليه فقطّعه اربا اربا"(١) .

وبالفعل فقد حدث كل ما توقعه معاوية لمستقبل العلاقة بين ابنه يزيد وهؤلاء النفر من أبناء الخلفاء الراشدين والصحابة ، وهذا خير دليل يعكس مواهب معاوية وأبعاد نظره السياسية .

وقد أصبحت عملية توليه العهد تقليدا اتبعه الخلفاء المسلمين من بعد معاوية ، ولكن غرض معاوية من حصر الخلافة في أبنائه لم يتحقق بالرغم من أنه استطاع أن يحصرها في بني قومه الأمويين في الفرع الذى نسب الى مروان بن الحكم ، والذين سمّوا " المروانيون " .

كما أن هذا المنصب الجديد لم يمنع وقوع الفتنة كما تصور معاوية ، فقد وقع العرب في براثن فتنة جديدة هي معركة مرج راهط والتي كان السبب في وقوعها الاستمرار في طلب الخلافة من قبل مختلف مراكز القوى في الدولة الاسلامية والتي يقف من خلفها القبائل في الولايات العربية ، واتسعت فيما بعد لتشمل الولايات الاسلامية .

---

(١) الطبرى ، التاريخ ، ج ٥ ، ٣٢٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ٦ ، ابن الطقطقا ، الفخرى في الآداب السلطانية ، ١١١ / ١١٢ .

٦ ـ النظرية السياسية في خلافة معاوية :

من هنا التغيير

يلاحظ من مجريات الأحداث ان معاوية بذل جهدا شخصيا فائقا في سبيل الوصول الى منصب الخلافة . كما أن تصرفاته في فترة الإمارة تدل على أن حبّ الحكم والسلطة كانا من خصائصه البارزة . ومن ذلك اهتمامه بمراسم الملوك الأمر الذي أدّى الى انتقاد الناس من حوله ، ووصف بأنه كسرى العرب(١) .

وقد شعر معاوية بأنه لا فضل لأحد عليه في تحقيق الوصول الى منصب الخلافة ، لذلك فإنه كان ينظر لنفسه نظرة شعور بالعظمة والكبرياء . ونستدل على ذلك من خلال حوار دار بينه وبين سعيد بن عثمان بن عفان ، حول أحقية الأخير بالأمر من ابنه يزيد في ولاية العهد .

واعتبر معاوية نفسه قد خُلق للحكم والسيادة ويبدو ذلك جلياً من خلال خُطَبه ورسائله المختلفة في فترة خلافته ، وخير مثل على ذلك خطاب أرسله إلى أهل الكوفة يقول فيه " يا أهل الكوفة : أترون أني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت أنكم تصلّون وتزكون وتحجون ، لكنني قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم . . . "(٢) .

والمتتبع لأحاديث معاوية بعد توليه الخلافة ، يجد أنه رغم إتّباعه لنهج سياسي يختلف عن نهج الخلفاء الراشدين ، من حيث طريقة وصوله للخلافة وتصرفاته في ادارة شؤون الدولة ، الا أنه يحاول دائما أن يوجد أُسسا تجعل خلافته خلافة شرعية اذا ما قورنت بالخلافة الراشدة .

فكان يركز على صحبته للرسول ومصاهرته اياه بزواجه من أخت معاوية . كما أنه كثيرا ما كان يعتد بولايته لبلاد الشام من قبل عمر وعثمان . ويحاول تعزيز ذلك

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، م١ ، ٣٦٠ .

(٢) ابن بكار ، الاخبار الموفقيات ، ٣٨٦ ؛ محمد حمادة ، الوثائق الادارية والسياسية ، ١٠٢ .

بعدد من الميـــزات التي اختص بها كأصالة نسبه في قريـــــش ، فوالده حـــرب ابن أميّة وأمه هند بنت عتبة .(١)

واصبح معاوية ينظر الى منصب الخلافة على أنه صاحب الحق في التصـــرّف به كما يشاء . ولم يعد يلتزم بالأسس التي يفرضها العرف الموروث عن عهد الخلفــاء الراشدين . وقد نستطيع تفسير ذلك بأن معاوية هو الرجل الأول في الدولة الاسلاميّة بلا منازع . فلم تكن هناك فئة تحدد سياسة الخليفة كما كان يحدث في زمن الراشدين . والفئــة المقصودة هي فئة الصحابة الذين كانوا يشكلون جماعة يستشيرها الخليفـــة في شئون الدولة . وهؤلاء أطلق عليهم في كتب الفقه الاسلامي لقب " أهل الحـــل والعقد "* نظرا لأهميتهم السياسية في المدينة . بينما أصبحت الفرد به سمة مـــن سمات خلافة معاوية(٢) ، رغم الإجراءات الشكليّة التي كان معاوية يوهم الناس بأنـــه يطبق من خلالها مبدأ الشورى بين المسلمين .

ومعاوية هو أول خليفة مسلم يحاول التعمق بأساليب ومفاهيم الســـياســـة والسيادة ، ويحاول معرفة الطرق التي تجعله يحافظ على مكانته وهيبته كخليفـــة للمسلمين(٣) . فلذا نراه يبدى اهتماما في الاطّلاع والتعرف على سير الملوك في العصـور التي سبقت خلافته ، بالإضافة الى اهتمامه الخاص بالتدبير والحنكة والسياسة الجيـدة المنبثقة عن مواهبه المختلفة ، والتي من ابرزها الدهاء والحيلة والخطابة(٤) .

---

* " أهل الحل والعقد " لقب أطلقه الفقهاء المسلمون على مجموعة الصحابة الذين كانوا يختارون الخليفة .

(١) ابن اعثم ، الفتوح ، ج ٢ ، ٤٢٨/٤٢٩ .

(٢) ابن بكار ، الاخبار الموفقيات ، ٣٨٩ .

(٣) الدينوري ،عيون الاخبار ،ج ١ ، ٢٢٣ ؛ابن عبد البر ،الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ج ٣ ، ١٤١٨ . ،الاصفهاني ،الأغاني ،ج ٩ ، ١٦٧/١٦٨ .

(٤) الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ٣ ، ٣٦ .

وكان لهذه المكانة التي تمتعت بها قريش ، دورا كبيرا في وضع حد للنزاع بين القبائل العربية على الخلافة ، فمعظم هذه القبائل كانت تسلّم بسيادة قريش حتى فترة متأخرة من تاريخ صدر الاسلام ، ولكن لسوء حظ معاوية وغيره من الخلفاء ، فإن شخصيات قريش نفسها كانت تتنافس فيما بينها على منصب الخلافة . لذا فإننا نرى معاوية في الحديث السالف الذكر الذى ينسبه الى الرسول يركز على طاعة الله كشرط من شروط ارتباط الرعيّة بطاعة الخليفة أو الأئمة القرشيين . ويقصد من ذلك تبرير عملية خروجه على علي بن ابي طالب . وتجدر الاشارة الى أن هذا الحديث بصورته هذه ، لم يرد في كتب الصحاح .

والتفت الخليفة الى أهمية وخطورة الهاشميين ، فخصّهم في خطبه وأحاديثه في مجالسه بعبارات مختلفة ، وضّح لهم فيها معالم سياسته وحاول أن يرسخ بعض المفاهيم في نفوسهم ، ومن ذلك افهامهم أن النبوة والخلافة لا تجتمعان لأحد كما أن النبوة لا تورث (١) ، في محاولة لثني مطامحهم عن الوصول الى أهدافهم .

وحاول معاوية الطعن بما يلوّح به الهاشميون من حقوقهم في الخلافة (٢) . فيقول : " الا تحدثوني عن ادعائكم الخلافة دون قريش بم تكون لكم ؟ أبالرضا والجماعة عليكم دون القرابة ؟ ! أم للقرابة دون الرضا والجماعة ؟ أم بهما جميعا ؟ فان الأمر بالرضا والجماعة دون الأمر بالمرضى والقرابة . فلا أرى القرابة أثبت حقا ولا ثبتت ملكا . وإن كان بالقرابة دون الجماعة والرضى ! فما منع العباس وهو عمّ النبي (ص) ووارثه وساقي الحجيج وضامن الأيتام أن يطلبها ، وقد ضمن له أبو سفيان عبد مناف . وإن كانت الخلافة بالجماعة والرضى والقرابة جميعا ، فإن القرابة خصلة من خصال الإمامة ، ولا تكون الإمامة بها وحدها ، وانتم تدعونها بها . ولكننا نقول : أحق قريش من بسط الناس إليه أيديهم ، ونقلوا إليه أقدامهم للرغبة ، وطارت أهواؤهم اليه للثقة ، أو قاتل عليها بحقها فأدركها من وجهها .

(١) مؤلف مجهول ، أخبار العباس وولده ، ٥١ ، ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ٦٠ .

إن أمركم لأمر تضيق به الصدور . إذا سألتم عمّن اجتمع عليه الناس من غيركم، قلتم : اجتمعوا على غير حق . وان كانوا على حقّ فقد أخرجكم الحق من دعواكم . انظروا ان كان القوم قد أخذوا حقكم فاطلبوهم ، وإن كانوا أخذوا حقهم فسلّموا لهم ، فإنه لا يحق لكم أن تروا لأنفسكم ما لا يراه الناس لكم ..." (١)

ومن معالم وصفات سياسة معاوية أنه كان يحقق اكثر ما يريد في معظم تدابيره على الصعيدين السياسي والاداري ، نظرا لما يتصف به من حكمة وذكاء. وكان ذلك مدعاة لاعتباره من أدهى دهاة العرب ، ونستشف من خلال الروايات أن جميع المصادر تجمع على ذلك ، وتتطرق الى صفات أخرى أهّلته للخلافة ، كالعلم والحلم والخطابة (٢).

ولو حاولنا تتبع مصير الأسس والمبادئ الموروثة عن الخلفاء الراشدين ، فإن معاويه بالرغم من تنكره لها فقد حاول الحفاظ على شكليتها ، وحاول أن يظهر التزامه ببعضها لكي يشبّه نفسه بالخلفاء السابقين ، ولكي يضفي على خلافته صفة شرعية كما أشير آنفا . وعزز مواقفه الدينية بأنه اشترى بردة رسول الله التي كانت بحوزة ورثة كعب بن زهير (٣).

وأصبحت البردة النبوية تقليدا تمسك به من جاء بعده من الخلفاء من الأمويين والعباسيين ، كما أنه حاول نقل المنبر النبوي من الحجاز الى دمشق لكنه لم يفعل ذلك ، نظرا لمعارضة الصحابة هناك (٤).

---

(١) موءلف مجهول ،اخبار العباس وولده ، ٧٤/٧٥ ؛الدينوري ،عيون الاخبار،ج ١ ، ٥/٦.

(٢) البلاذري ،الأنساب،ق ١ ،ج ٤ ، ٣ ، ١٧ ، ١٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ؛الطبري ،التاريخ ،ج ٥ ، ٣٥٥ ؛ التنوخي ،نشوار المحاضرة ،ج ٢ ، ١٢٢ ؛ابن الطقطقا ،الفخري في الآداب السلطانية ١٠٤/١٠٥.

(٣) المقريزي ،امتاع الاسماع ،ج ١ ، ٤٩٤ ؛ابن عبد ربه ،العقد الفريد ،ج ٢ ، ٩١ ؛ السيوطي ،تاريخ الخلفاء ، ١٣.

(٤) الطبري ،التاريخ ،ج ٥ ، ٢٣٨/٢٣٩ ؛المسعودي ،مروج الذهب، ٢٥/٢٦ ؛ابن الاثير،الكامل ، ج ٣ ، ٤٦٤/٤٦٥.

وقد اقتضت الضرورة أن يكون معاوية كذلك ، اثر اتساع الرقعة الاسلامية وتلا ذلك ركود نسبيّ في حركة المد الاسلامي . مما ادى الى توجّه أنظار الناس الى الأمور الداخلية في الدولة . ويعطي ابن خلدون تفسيرا منطقيا يبرر سياسة معاوية بالحكم بقوله أن اهتمامه بشكل الحكم ونمطه وأساليبه التي اتبعها بسبب أن الأمم المغلوبة والتي دخلت الاسلام كانت تحت حكم ملوك . لذا فانه لا بد من السيطرة عليها بنفس الطريقة التي اعتادت عليها[(١)] .

ويمكن القول بأن معاوية في مجمل تدابيره السياسية والادارية قد أرسى نظرية سياسية ، تتميز عن المفاهيم السياسية والإدارية التي سادت في فترة الخلافة الراشدة . وكانت هذه النظرية نتاجا لحياته السياسية من خلال تجاربه في فترتي الإمارة والخلافة .

فقد تمكن معاوية من خلق توافق وانسجام بين سلطاته — وهي عماد الحياة السياسية في بلاد الشام — وبين النظم الإدارية المتبعة في هذه البلاد بشكل دقيق ، وقد سخّر الأجهزة والوظائف الإدارية تسخيرا كاملا في سبيل تنفيذ سياسته ، وبشكل يلائم الظروف المحيطة به لكي يلاقي قبولا عند سكان بلاد الشام ، وغيرهم من سكان الدولة الاسلامية .

وحاول الخليفة أن يرسي عددا من المفاهيم السياسية بين رعايا دولته خاصة الناقمين منهم . ومن أبرز هذه المفاهيم فكرة أن خلافته شيء من قدر الله الخارج عن ارادة البشر[(٢)] ، وأصبحت هذه الفكرة فيما بعد معلما هاما من معالم تاريخ الفكر السياسي الاسلامي : وسمي اصحاب هذا المبدأ باسم " القدرية " .

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، م٢ ، ١١٤٢ . انظر مقاله :
H.Lammens."Musawiya" Encycl. of Islam. First Edition. Vol. III. PP. 619.

(٢) البلاذري ،الانساب ،ق١ ،ج ٤ ، ١٧ ؛ الطبري ،التاريخ ،ج ٥ ، ٢٢٠ ، ٢٣٤ ؛ الذهبي ،سير اعلام النبلاء ،ج ٣ ، ٩٧ ؛ السيوطي ،تاريخ الخلفاء ، ١٣٣ ؛ مؤلف مجهول ،تاريخ الخلفاء ، ٥٣ ؛ الثعالبي ،خاص الخاص ، ٦٨ .

ومن التقاليد السياسية لمعاوية في تدابيره ، تفسيره للأمور تفسيرا اقتصاديـــا ، وكان معاويه يعتقد أن اسباب الحنق والمعارضة ضده تعود إلى أسباب اقتصاديـــة ، ولعل خير دليل على ذلك اعتماده على الأموال في حلّ كثير من المعضلات والمشـــاكل التي وقفت في وجهه . فقد كسب رضى الكثير من المنافسين والمعارضين بالمال وعلـــى رأسهم الحسن بن علي وعقيل بن أبي طالب [١] ، كما أنه استطاع بالأموال أن يكســـب عددا من الشخصيات الادارية لتعمل بجانبه باخلاص وصدق ، مثل عمرو بن العـــاص وزياد بن ابي سفيان وعدد كبير من الشخصيات الشامية .

ولم تكن صلاحيات الخليفة لتحدها الحدود ضمن اطار الشرع والأعراف شكلا ، فقد تمتع بحكم فردي [٢] . ولم يكن باستطاعة أي شخص أو جماعة التدخل في هذه الصلاحيات ، خصوصا في شئون الادارة المالية والتي سخرها لخدمة أغراضه المختلفة ، واعتبر معاوية كل ما في الدولة ملكا له ، وهو بدوره مسوءول عن التصرف في هذه الأملاك علـــى أصحاب الحقوق [٣] الذين يستحقونها .

ونفّذ الخليفة سياسة محكمة تجاه الناس ، كل حسب انتمائه وعصبيته وميولـــه . وانتبه معاوية الى قريش وهي قبيلته أولا وتحتل مركز الصدارة بين القبائل العربيـــة ثانيا ، فأضفى عليها هيبة ومركزا بارزا بين قريناتها من القبائل ، وذلك لكي تظـــل قريش سيدةً وتنحصر سيادة العرب في أفرادٍ منها . وقد روى حديثا عن الرســـول الكريم يقول فيه صلى الله عليه وسلم : " ان هذا الأمر في قريش لا يعاديهـــم فيـــه أحد ، الا كبّه الله على وجهـــه . ما أقاموا الدين . " [٤]

---

(١) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٧١ ، ٩٣ ؛ اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢٢٣ ؛ ابـــن خياط ، التاريخ ، ج ١ ، ١٨٧ ؛ موءلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١١٩ ؛ ابن الطقطقا ، الفخري في الآداب السلطانية ، ٧٠ .

(٢) انظر : توفيق برّو ، الدولة العربية الكبرى ، ٦ / ٧٠ .

(٣) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٢ ، ٩ ؛ الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢٢٠ .

(٤) ابو بكر بن العربي ، العواصم من القواصم ، ٢٣٤ ؛ ابن عبد ربّه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ٤٧٦ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ٦ .

وقد استعمل معاوية أسلوبا ذكيا في إيهام العامة بتطبيق مبدأ الشـــورى ، بأن جعل في كنف البلاط فئة من وجوه الشخصيات الشاميّة والقرشيّة المقربة اليــــه . وبدأ ينفذ سياسته عن طريق هؤلاء الأشخاص باعتبار التدابير التي كان يتخذها وليدة أفكارهم ، وهم بدورهم يبثّون تلك الأفكار بين الناس ، ونتيجة لذلك فإن معاويـــة عندما يعزم على اجراء بعض التدابير فإنها تلاقي قبولا كبيرا بين العامة وكأنها وليدة إدارة عامة النـاس ، ولا يعلمون أصلا أنها من تدابير معاوية . وأمثلة ذلك في سـيرة معاويه كثيرة أبرزها قضية الطلب بدم عثمان[١] . وكذلك بيعة العهد ليزيد[٢] .

ومن خصائص سياسته أنه أولى اهتمامه بالنواحي العملية[٣] القائمة على حفـــظ المصلحة ، دون أن يعير الأفكار والأسس النظرية إلا القليل من العناية والإهتمـــام[٤] . ويدلنا على ذلك أن لمعاوية قول مشهور وهو " إني لا أحول بين الناس والسنتهم ، ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا "[٥] .

وتمتعت سياسته بالمرونة الى أبعد الحدود ، فهو لم يلتزم خطا سياســـيا واحدا ، ولم يكن متزمتاً في القواعد السـياسيّة التي انتهجها ، وهناك دليل واضـح على ذلك وهو ما يعرف على النطاق الشعبي في قول معاوية " أنه لو كان بينه وبيـــن الناس شعرة لما انقطعت " ، فيشدها حين يتركونها ويتركها اذا شدوها . وهذا خير دليل على أنه قوى من مواقف القوة والحزم ، وليّــن في المواقف التي تقتضي اللين[٦] .

---

(١) ابن اعثم ، الفتوح ، ج ٢ ، ٤٠٦ / ٤٠٧ ؛ الدينوري ، الاخبار الطوال ، ١٥٩ / ١٦٠ .

(٢) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٣٠٣ ؛ مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ١٧٢ / ١٧٨ ؛ ابن خياط ، التاريخ ، ج ١ ، ١٦٩ ؛ اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢١٩ / ٢٢٠ ؛ ابـــن الاثير ، الكامل ، ج ٣ ، ٥٠٣ ؛ النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ، ٣٤٨ / ٣٤٩ .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ٣٦٤ .

(٤) الدينوري ، عيون الاخبار ، ج ١ ، ٣٠ .

(٥) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٣٣٦ ؛ الدينوري ، عيون الاخبار ، ج ١ ، ٢٨٣ .

(٦) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٩٩ ؛ الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٣٣٦ ؛ الدينوري ، عيون الاخبار ، ج ١ ، ٩ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ٢٩ .

وبالرغم من تلك المحاولات ، بالاضافة الى تظاهره بالتمسك بالشورى . الاّ أنه من الناحية العملية قد قضى على هذا المبدأ وما يترتب عليه من مسئوليات في ادارة شؤون الدولة[1] . ويبدو ذلك من خلال تعامله مع الصحابة الذين كانوا يشكلون مجلسا للشورى للخلفاء السابقين ، وقد تعطينا الحادثة التالية حين قدم على معاوية عدد من الصحابة الأنصار الى دمشق ، فكرةً عن عدم اكتراث معاوية بآرائهم . باعتباره صاحب السلطة العليا في الدولة .

" فقد حضر الأنصار الى باب معاوية ، فخرج اليهم حاجبه فقالوا له : استأذن للأنصار ، فدخل الحاجب اليه وعنده عمرو بن العاص ، فاستأذن لهم ، فقال عمرو : ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ - يعني تسميتهم بالأنصار - أردد القوم إلى انسابهم ، فقال معاوية : إني أخاف الشنعة . فقال : هي كلمة نقولها إن مضت عرّتهم ونقضتهم . وإلاّ فهذا الاسم راجع اليهم . فقال معاوية للحاجب : أخرج فقل من كان ها هنا من ولد عمرو فليدخل ، فقالها الحاجب ، فدخلوا جميعا إلاّ الأنصار ، فنظر معاوية إلى عمرو نظرة منكر ، وقال له : باعدت جدا فقال للحاجب : اخرج وقل من كان ها هنا من الأوس والخزرج فليدخل . فخرج وقالها ، فلم يدخل أحد . فقال معاوية : أخرج فقل : من كان ها هنا من الأنصار فليدخل ، فخرج فقالها . فدخلوا وعلى مقدمتهم النعمان بن بشير ، وهو يقول شعرا :

يا سعد[*] تعد الدعاء فما لنا ... نسب نجيب به سوى الأنصار
نسب تخيّره الإله لقومنا ... أثقل به نسبا على الكفار
إن الذين ثووا ببدر منكم ... يوم القليب هم وقود النار

فقال معاوية لعمرو : قد كنّا أغنياء عن هذا "[2]

---

* سعد هو الحاجب على باب معاوية .

(١) الجاحظ ، رسالة نشرها عزت الحسيني ، ١٤ .

(٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٦ ، ١٣ .

ولعب الإعلام لديه دورا كبيرا في مساندة سياسته وإنجاحها ، فبينما كانت الدعاية في خلافة الراشدين تقتصر على نشر الدين الاسلامي ، نجد أن معاوية سخر الدعاية تسخيرا دقيقا وواسعا لخدمة اغراضه ، ومن الوسائل الإعلامية لديه استخدامه القصاصين والمحدثين في الحروب والمعارك ، أو اعتماده عليهم في تأييد فكرة معينة يريد طرحها بين الناس . وقد أولى معاوية اهتماما واضحا بالشعراء والنسابين . وله قول مأثور يدل على مدى اهتمامه بالدعاية هو قوله :" ان أحب الناس إليّ ، أكثرهم تحببا لي بين الناس ".(١)

واعتنى الخليفة بالدعاية على صعيد السياسة الدولية في علاقاته مع الدول المجاورة لدولته . خاصة بزنطية . كوسيلة لإكساب دولته هيبة وقوة يجعل جانبها مهابا أمام أعدائها . وأبرز مظاهر هذه الدعاية تبادل الهدايا والسفارات والمراسلات ، بالاضافة إلى استعمال التجارة والترحال كوسيلة دعائية .(٢)

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ج ٣ ، ١٢ ؛ موءلف مجهول ، تاريخ الخلفاء ، ١٥ .

(٢) ابن عبد ربّه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ١٢٠ .

الفصـــــل الرابـــع

النظم السياسية والمالية والادارية في بلاد الشام.

أ - مؤسسة الخلافة : -

١- منصب الخليفـــة : سيتناول هذا الباب الجوانب المتعلقةبخصائص وصلاحيات الخليفة وفاعليتها في بلاد الشام بشكل خاص ،اضافة الى ما ذكـــر في الفصل الثالث من هذا الكتاب عن هذا الموضـــوع .

فقد كانت مؤسسة الخلافة بديلا لمشيخة القبيلة في الجاهلية ، والـتي كانت ببساطتها تستطيع تدبير أمور أفراد القبيلة مهما كبرت أعدادها ، وفـــي اطار الاسلام حلّ الرسول الكريم كزعيم سياسي ألغى النظم السابقة في معظمهـا ، وبدأت سلطته تتزايد تدريجيا لتنتقل من المدينة الى مكة ثم الى باقي أنحـــاء الجزيـــرة العربيـــــة .

وبعد وفاة الرسول ، ولي أبو بكر الصديق بعده أمور الأمـة ،ولقب بلقب " خليفة رسول الله " ، كبديل يتولى ادارة شؤون المسلمين الدينية والدنيوية ، وولدت مع هذا الحدث هذه المؤسسة التي تطورت مع الزمن ، وفقا للظـــــروف والاحتياجات والمشاكل التي واجهت الأمـة الاسلاميـــة .

وبعد ذلك أصبح بمقدور الأمة أن تسير وفق نظام سياسي مرن يتوافـــق مع كل طارئ ، مع الأخذ بعين الاعتبار وجود أساسيات رئيسية مهمة في اختيـــار الخليفة وترشيحه للخلافة ،عن طريق الشورى والانتخاب من قبل الصحابة المسلمين ، ثم يتبع ذلك اعلان البيعة العامة من قبل عامة الناس،وتعود أصول مبدأ الشـــورى في انتخاب الخليفة الى القرآن والسنّة بالاضافة الى السوابق التي استنّها اللاحقـون من الفقهـــاء انطلاقا من مبـــدأ الاجتهـــاد والتي أصبحـت وسيلـة يقيـــس

عليها الخلف من المسلمين لتعيين الخليفة الجديد بعد وفاة أو مقتل الخليفة الحاكم (١) .

وقد شكل وصول بني أمية للحكم انقلابا فريدا في تاريخ مؤسسة الخلافة ، ودوافع هذا التغيير تكمن وراء شعورهم في عراقتهم في أمور السياسة والحكم منذ أيام الجاهلية ، فقد حاولوا جاهدين في بداية الدعوة الاسلامية الوقوف ضدها بكل ما أوتوا من قوة ، وبعد نجاحها ساهموا مساهمة كبرى في الفتح لتعويض ما فاتهم ، على ضوء الأسس الجديدة التي استنها الخلفاء المسلمون لتحديد مرتبة الفرد الاجتماعية والاقتصادية مثل السابقة في الاسلام أو القرابة من الرسول ، ولم يبق أمامهم سوى الاستفادة من البلاء في القتال في سبيل الاسلام والمسلمين .

وظلّ معاوية يعتدّ بمساهمته ومساهمة اخوته وأبناء عمومته في الفتوح ، مقابل ما كان يعتد به علي وأصحابه من السابقة في الاسلام والقرابة من الرسول (٢) .

وقد أصبح عدد كبير من أفراد البيت الأموي يحتلون وظائف هامة في الدولة ، في فترة خلافة كل من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، حتى أتاحت الظروف لمعاوية تولّي الشام ، وعزز ذلك وصول الخليفة عثمان الى الحكم ، وكان أبو سفيان على قيد الحياة آنذاك ، فأوصى أقرباءه الأمويين لحصر الخلافة بينهم (٣) .

---

(١) صبحي القاسم ، النظم الاسلامية ٢٢٧ أنظر :—
W.Madelung.Art. 'Imàma' Encycl. of Islam. Second Edition. Vol. III p.p. 1163-1169 .

(٢) ابراهيم عدوى ، النظم الاسلامية ، ١٥١ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ج ١ ، ٣٧٧ .

وبعد مقتل عثمان استطاع معاوية أن يجعل من نفسه مدافعا عن منصب الخليفة ، وكأن هذا المنصب أصبح مقتصرا على بني أمية فقط دون غيرهم [١] ، ولم يكشف معاوية عن نواياه مسبقا ،بل جعلها تستبين مع مرور الزمن ، ومن خلال حلقات صراعه مع علي وأنصاره العراقيين •

وفكرة توريث الحكم لم تكن وليدة تولية العهد ليزيد ، اذ أن ملامحها الأولى بدأت بالظهور حين بدأ الأمويون يتكتلون وكأنهم أصحاب الأمر في السيادة منذ خلافة عثمان ، وأصبحت أية معارضة تقوم ضد الدولة تعتبر على أنها محاولة للاطاحة بهم ، وعلى غرار هذا المفهوم يمكن تفسير محاولة طلب معاوية من الخليفة عثمان لينتقل بالخلافة من الحجاز الى الشام باعتبار هذه البلاد رديفا قويا لبني أمية•

وبعد تولي معاوية لمنصب الخلافة ،برزت الى الوجود فكرة أن منصب الخلافة صار يستمد قوته من قوة صاحبه، وأصبح معاوية مصان الجانب وقوي العزم والادارة ، وأضفى الخليفة هذه الصفات على منصبه ، فكانت هذه الظاهرة تجديدا لهيبة هذه المؤسسة بعد ما حصل لها من التخريب بعد الفتنة ، بالاضافة الى أن الوضع الجديد اختلف عنه في عهد الراشدين من حيث أن هيبة الخليفة في الغالب كانت مستمدة من منصبه أولا ، ومن أبناء عشيرته ثانيا ، وذلك في الوقت الذى لجأ فيه معاوية الى أنصار ليسوا من أقربائه وهم أهل الشام ، الذين استطاع بواسطتهم أن يرسي قواعد دولة قوية [٢] وجديدة في مظاهرها وخصائصها • وحملت رسالة الدعوة الاسلامية ، وفتحت عهدا جديدا في التطور

---

(١) الطبري ، التاريخ ، ج ٤ ، ٣٤٧ •

(٢) ابراهيم عدوى ،النظم الاسلامية ، ١٦٠ •

والتقدم في مختلف ميادين السياسة والادارة .

ويوصف معاوية في كتاب النظم الاسلامية للمستشرق الفرنسي غودفروا بأنه الخليفة الملك الذى يهتم بأمور الدنيا ،وحذا حذوه في ذلك خلفاء بني أميّة (١) الذين وضعوا الخير والمصلحة العامة نصب أعينهم في تسيير أمور الحكم .

وقد عمد الخليفة الجديد الى إيهام المسلمين الذين يصرّون على المبادئ الأساسية في اختيار الخليفة - كالشورى مثلا - بأنه يلتزم بها وذلك بأن يراسل عماله وولاته لأخذ مشورتهم وهم بدورهم يأخذون مشورة الناس من حولهم ، كما أنه كان يحسن وفادة من يجيء اليه ويقنعه بأعماله وتدابيره ويضع لها المبررات .

ثم أنه كان كثيرا ما يستدعي خصومه فيأتونه جماعات وأفرادا ويأخذ طاعتهم بالرضى عن طريق المال أو الاقناع أو بالوسيلتين معا ، وان لم يوفّق في ذلك لا ينثني عن استخدام القسر والقوّة (٢).

وقد ظهرت المعارضة على شكل فرق سياسية أبرزها الشيعة والخوارج ،ولم تكن هذه الفرق من القوة والتنظيم لتستطيع أن تغير شيئا في الوضع السياسي الجديد ، ودخلت هاتان الفرقتان وما تفرع عنهما من فرق أخرى في نقاش

---

(١) غودفروا ، النظم الاسلامية ،١٢٨ ؛ صبحي الصالح ، النظم الاسلامية ، ٢٦٧ .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ،٢٧ ؛ مؤلف مجهول ،الامامة والسياسة ، ١٧٦/١٧٨ ؛ اليعقوبي ،التاريخ ،ج ٢ ، ٢١٩/٢٢٠ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ،ج ٢ ، ١٠٦ ،١٠٨ ،١١٣ ،١١٥ ،١١٦ .

وجدل حول النظريات السياسية ،وتبنت كل جهة منهما النظريات التي تراهـــا مناسبة ، الامر الذى دعا أهل السنّة الى الخوض في غمار النظريات السياسية - الاسلامية على اختلاف اتجاهاتهـــا •

وبالرغم من كل النظريات ،ظلّ مبدأ الوراثة الذى أرساه الخليفـــة الجديد معلما هاما في تاريخ الفكر السياسي الاسلامي ، ومن هنا يُلفت النظـــر الى ناحية هامة في تنـاول الفكر السياسي الاسلامي وهي ضرورة التفريـــق بين النظرية والتطبيق كي تكون النظرة لهذا التاريخ نظرة واقعيـــة •

وقد كان نظام خلافة معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين ،هـــو مرحلة انتقالية من طور الانتخاب الى طور الوراثة المطلقـــة (١) والتي استمرت في مؤسسة الخلافة حتى أواخر أيامهـــا •

وهناك من يرى أن المؤثرات التي شكلت نظام خلافة معاوية كانت مزيجـا من التقليد البدوى الخاص ، بانتخاب الرئيس عن طريق زعماء القبائل ، ممزوجـــا بالتراث البزنطي المتعلق بالوراثة (٢) ، وربما عمل معاوية على الجمع بين الأسلوبين بشكل يتوافق مع مصلحته ومصلحة قومه ومصلحة الأمـــة ، اذ أن التراث البزنطـــي لم يكن بعيد المدى عن بلاد الشام ، وفي نفس الوقت فان هناك علاقة جوار بـــين دولته وبين الدولة البيزنطيـــة ، وقد كان على اتصال دائـــم مع هـــذه الدولة منـــذ أيام امارتـــه علـــى الشـــام •

---

(١) الدورى ، النظم الاسلامية ج ١ ٤٤ •

(٢) غودفروا ،النظم الاســـلامية ، ١٢٧ •

وتجدر الاشارة الى نموذج في عهد الخلافة الراشدة يشبه في ملامحه النموذج الذي وضعه معاوية عند تنصيب نفسه على المسلمين من حيث قوة الشخصية والجدارة في الحكم ، ويقصد هنا عمر بن الخطاب الذي كان انتخابه موافقا للتقاليد العربية بسبب قوة نفوذه وموكزه الذين جعلاه الخلف الحتمي لأبي بكر ، وكذلك معاوية فلم يكن أقل قدرة ولا سياسة ، ولكن الأسلوب اختلف بأنه فرض نفسه فرضا رغما عن كل المرشحين للخلافة (١) ، ويشار في هذا المجال الى أن التقاليد القبلية وتأثيرها على الخلافة لم تكن من ابتكار معاوية ، وانما بدأت بالنمو منذ بداية الخلافة الاسلامية الراشدة ، وأخذت تطّرد وتنمو مع الزمن ، وأصبحت واضحة المعالم في خلافة معاوية (٢).

وقد كانت سلطة الخليفة في أيام الراشدين محددة بما يقتضيه القرآن والسنة بالاضافة الى رأى الجماعة الاسلامية ، ويلاحظ أن هناك التزاما واضحا بهذا الدستور من قبل الخلفاء الراشدين ، لكن معاوية بدأ يحيد عن ذلك بشكل واضح ، لكنه كثيرا ما كان يضع المبررات لاقناع العامة حول أى تصرف يقوم به ، وأصبحت صلاحياته مطلقة لا تحدها حدود .

ولم يقف عند هذا الحد ، بل أنه انتقد سياسة الخلفاء السابقين ، ومن أمثلة ذلك خطبة له في المدينة قال فيها : " اني رمت سيرة أبي بكر وعمر فلم أطقها فسلكت طريقا لكم فيها حظ ونفع على بعض الاثرة ، فارضوا بما أتاكم مني وان قلّ ، فان الخير اذا تتابع وان قل أغنى ، وان السخط يكدر المعيشة ولست بباسط يدى الا الى من بسط يده ، فأما القول الذي يستشفي به ذو غمرٍ فهو

---

(١) الدوري ، النظام الاسلامية ، ص ١ ، ٣٠ .

(٢) المصدر السابق ، ٣٦ .

دبــر أذني وتحت قدمي حتى يوم الموجـــاء (١) " .

ويستشف من ذلك أنه يعتبر نفسه مصلحا سياسيا للأوضاع التي عايشهـــا الناس من قبله ، ويلاحظ أن معاوية هو أول خليفة مسلم يعتد بنفسه وبأساليبـه فـي السياسة والحكم ،في الوقت الذى كان الراشدون من قبله حازمين وأقوياء ولا يمتدحون أنفسهم ، ولكن المديح كان على السنة من حولهم من الناس .

ويلاحظ في خلافته أنه كان يهتم بالحكم والخلافة كهدف وليس كوسيلـــة وكثيرا ما كان يجاهر بذلك ويفتخر بقدرته على معرفة أساليب السيادة (٢) ، وقـد كان له في نفسه نظرة خاصة ورأيا يعرضه في كل مناسبة يرى فيها ضرورة لذلـــك، وهذه النظرة تتلخص في كونه يختلف عمّن سبقه، ومن ذلك ما ورد عن محمـد بـن سعد الواقدى في رواية عن يزيد بن عياض قال :" قال معاوية : الأرض لله وانـــا خليفـــة اللـــه ،فما أخذت فلي ،وما تركته للناس فبالفضل مني ،فقال صعصعـــة بن صوحـــان : ما أنت وأقصى الأمـة في ذلك الا ســـواء !! ولكن من ملـــك استأثر ،فغضب معاويـــة .... " (٣) .

يلمح القارئ أن معاوية من أول الخلفاء الذين أرادوا تعزيز وتقويـــة أنفسهم كخلفاء للاستمرار في حفاظهم على منصبهم عن طريق الترغيب والترهيب، في الوقت الذى كان فيه الراشدون مثالا للتقوى ،ويتّخـذون من العدل والاستقامـة وسيلـة تحفـظ لهم مكانتهم بـــين النـــاس كخلفاء أكفـــاء .

---

(١) البـــلاذرى ، الأنســـاب ، ق١ ،ج ٤ ، ٣٨ ، ١١٢ .

(٢) المصـــدر السابـــق ، ١٧ .

(٣) المصـــدر السابـــق ، ١٧ .

واستفاد معاوية من تجارب الخلفاء الراشدين السياسية والادارية ، وحاول قدر جهده عدم الوقوع فيما وقعوا فيه من أخطاء مختلفة ، ومن ذلك ترحمه على الخليفة عثمان وقوله : " لو كان قتل الطاعنين عليه ، لكان ذلك خيرا له ... " (١)

ومن خصائص الخليفة الجديد والتي أصبحت تقليدا يحاول من خلفه السير على نهجه ، هي محاولة امتداح قدراته ومواهبه الذاتية في الوقت الذى كان فيه الراشدون يقتصرون في أحاديثهم على ذكر مخافتهم الله واعتزازهم بالجهاد والحرب ، فتوسع معاوية في امتداح خصائص شخصيته ومقوّماتها ، ويعتبر هذه الخصائص شروطا أساسية الحاكم الناجح كوسيلة أخرى لتقوية وتعزيز منصبه السياسي بين الناس عامة ، وخصومه السياسيين خاصة .

وخير الأمثلة على ذلك ما جرى بينه وبين عمرو بن العاص حين سأله معاوية عن دهائه فأجابه عمرو بأنه لم يدخل في شيء الا خرج منه ، فأردف معاوية بقوله : " لكنني لم أدخل في أمر قط ، فأردت الخروج منه " (٢) ، مما يعكس بعد نظر معاوية وقدرته على التخطيط وابتعاده عن العشوائية في المواقف ، حتى لا تنعكس سلبيات هذه المواقف عليه .

ومن هذا المنطلق فان معاوية حين يقارن نفسه بمن سبقه من الخلفاء فانه يعتبر نفسه مبدعا ، وقد حاول الرد على البقية الباقية من الصحابة الذين ظلّوا يصرّون على اتّباع سيرة السلف من الخلفاء ، فقال في احدى خطبه : "أيها الناس : والله لنقل الجبال الراسيات أيسر من اتباع أبي بكر

---

(١) البلاذري ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٢٧ .

(٢) المصدر السابق ٣١ ، الثعالبي ، ثمار القلوب ٦٧ .

(٣) البلاذري ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١١٢ .

وعصـــر في سيرتهما ،لكنني سأسلك بكم طريقا يقصّر عمّــن تقدّمني ، ولا يدركـــني فيها من بعـــدي " (١) .

ولم يقتصر معاوية في دعايته لنفسه على منطقة معينة ، فقد حاول أن ينشر فكرة ابداعه في السياسة والسلطة الى باقي أنحاء دولته ، وتبنى عمرو بن العاص في مصـــر الدعاية له ولسياسته بقوله للمصريين : " ان أمامكم لمن سهل اللـــه خليقته وقوّم طريقته وأحسن صفته ، فمن كانت النعمة تبطره ، انها لتذللـــه وتوقّـــره " (٢) .

ولم يكن معاوية ليدعي الكمال في الخلافة لكنه حاول اظهار بنـــي أميـــة على ما فيهم من مساوئ ،فانهم برأيه أفضل من بني زهـــرة أو بــــني مخزوم أو بني هاشـــم لما في هؤلاء من التكبّر والاثرة وحب الذات ،بينما بـــني أميـــة بالمقابل يعطون السائلين ويجودون بما ينولون (٣) ، ولا بد أن لتواضـــع معاوية واعترافه ببعض عيوب قومه الأمويـــين أثـــر فـــي تقبل الناس لـــه .

ونظرا لادراكه بأهمية رضى العامة من الناس عنه لتعزيز منصبه،عمـــل على كسبهم بوسائل مختلفة الأمر الذى كان مدعاة للتفكـــير بوسائـــل مختلفـــة الأمر الذى كان مدعاة للتفكير بوسائل السيادة والسلطان وينسب له قول فـــي هـــذا المجـــال هو : " ان السلطان يضحك ضحك الصبي ويصول صولة الأسـد " (٤) .

---

(١) البـــلاذرى ،الأنســـاب ،ق١ ،ج ٤ ، ١١٢ .

(٢) المصـــدر السابـــق ، ٤٦ .

(٣) المصـــدر السابق ، ١٧ .

(٤) المصدر السابق ، ٣٧ .

وقد ساهمت الظروف السياسية في الدولة الاسلامية عامة وفي بلاد الشام خاصة في وجود منافسين له على منصب الخلافة ، وهذا الأمر لم يكن موجودا في صورته تلك في عهد الراشدين ، مما حدا معاوية العمل باستمرار على اضعاف خصومه وتفريقهم ومقارعتهم كلما حاولوا ابراز نواياهم تجاهه (١) ، لذا فان منصب الخلافة بعد خلافته أصبح مجالا للتنافس بين الطامحين كأشخاص أو كأحزاب سياسية أو دينية على اختلاف إتجاهاتها ، فعمد الى اساليب مختلفة للقضاء على هؤلاء الخصوم كالحلم والاغراء بالمال والمنصب بالاضافة الى العمل على تفريق خصومه أو قتلهم (٢) .

وتجدر الاشارة الى تركيز معاوية على استعمال العقل توكيدا لكل ما أشير عن ذكائه ودهائه سابقا ، لهذا وصف بأنه من دهاة العرب ، ومن الحكم التي تنسب اليه عن استعماله للعقل قوله : " العقل مكيال ، ثلثه فطنة وثلثاه تغافل " (٣) ، ويمكن اعتبار التغافل بمقياس معاوية الحلم الذى اشتهر به ، فأصبح مضربا للمثل في تغافله عن أشخاص حاولوا اثارته بالتقليل من أهميته ، لكنه كان بتغافله وحلمه يفشل محاولاتهم ، ويمكن وضع هذا الحلم وتصنيفه بأنه ضرب من حسن الادارة والتدبير (٤) .

ولو حاول الباحث الخوض في سلطات الخليفة ، لوجد أن سلطته واسعة وضوابطها أخذت تنحسر تدريجيا كلما حقق معاوية المزيد من القوة والانتصار

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ١ ، ٣٤٦ .
(٢) ابن حبيب ، المحبر ، ٤٧٩ .
(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٢ ، ٢٤٢ .
(٤) المصدر السابق ، ١٧٢ / ١٧٣ .

على خصومه منذ بواكير خلافته إما بالقضاء عليهم أو بموت بعضهم أو باستسلام البعض الآخر والاعتراف به ومبايعته كخليفة للمسلمين •

ولكنه ظلّ باستمرار يذّكر بأنه يلتزم حدود الشرع رغم اتهامه من قبل معاصريه بأنه حاد في خلافته عن الشريعة الاسلامية ، وعاد الى المفاهيم القبلية التي كانت سائدة قبل الاسلام ، ولم يكن ليتشبّه بأحد من الخلفاء من حيث الالتزام بالشريعة الاسلامية ، علما بأن الشريعة الاسلامية كان قد رافقها في الخلافة الراشدة مؤثرات قبلية ، ظهرت من خلال عمليات انتخاب أو ترشيح هؤلاء الخلفاء (١) •

وقد حدث تطور جديد في مؤسسة الخلافة بعد تولي معاوية ، فقد استندت هذه المؤسسة الى مرتكز جديد يستمد صاحبها منه قوته كخليفة ، فأصبحت أسرته وأنصاره الشاميين دعما آخر بالاضافة الى القوة المستمدة من الهيبة الدينية والسياسية لمنصب الخليفة لكي يوسخ حكمه ويوطده بين الناس (٢) ، وتجدر الاشارة الى أن لهذه الظاهرة سابقة أخرى في خلافة عثمان عندما التفّ حوله زعماء بني أمية لكي ينصروه ومن ضمنهم معاوية ، لكن هذه المحاولة فشلت •

وترتب على انتصار المبادئ القبلية في خلافته تبنّي الجبهات المعارضة الأخرى في الدولة للمبادئ الاسلامية في سبيل تحريك الوضع السياسي ضد الخليفة في الفترات اللاحقة (٣) نظرا لأن خلفاء بني أمية عمدوا الى تقريب

---

(١) الدوري ، النظم الاسلامية ج ١ ، ٢٨ ، ٣٥ •

(٢) ابن عبدربه ، العقد الفريد ج ٢ ، ٤٧٦ ، أنظر الدوري ، النظم الاسلامية ج ١ ، ٣٨ •

(٣) الدوري ، النظم الاسلامية ج ١ ، ٤٢ •

زعماء القبائل ، وزاد اهتمامهم بالتقاليد البدوية ، والعرف القبلي في سياستهم أكثر من اهتمامهم بالمبادئ الاسلامية (١) ، وقد كانت تولية العهد ليزيد في حياة معاوية أكبر دليل على انتصار العرف القبلي ، وعمل معاوية على تدريبه على شؤون الحكم والسياسة (٢) .

وقد ألغى معاوية بذلك مبدأ الانتخاب (٣) وهو من الأشياء التي كسبتها الخلافة طيلة عهد الخلفاء الراشدين ، وأثار بذلك ضجة كبرى حمل لواءها عدد من الصحابة والتابعين ، واتهم معاوية بأنه فعل ذلك تقليدا لملوك الفرس والبزنطيين كما أنه اتهم بأنه اول من رتب شؤون الملك بدلا من الخلافة (٤) ، ودارت مناقشات وجدل بين الناس مع بعضهم البعض من جهة ، ومن جهة أخرى جرى نقاش بينهم وبين معاوية حول هذا التصرف ، وفي نهاية المطاف لم يكن معاوية ليتحرج من وصفه بأنه ملك (٥) ، كما أنه خص نفسه بالسلام في المجالس ، فأصبح يقال : " السلام عليك يا أمير المؤمنين " بينما كان يقال للجميع دون تمييز " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته " (٦) .

---

(١) الدوري ، النظم الاسلامية ، ج ١ ، ٤٣ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ٢٩٠ ؛ وحول تولية العهد ليزيد أنظر الفصل الثالث .

(٣) الدوري ، النظم الاسلامية ، ج ١ ، ٣٧ .

(٤) الهمذاني ، تكملة تاريخ الطبري ، ج ١ ، " ١ " ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ٢٥٢ .

(٥) البلاذري ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٩٤ .

(٦) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ٤١٤ .

ومن المبررات التي وضعها معاوية لتصرفاته في تولية العهد اضافة الى ما ذكر في الباب المتعلق بولاية العهد في الفصل الثالث ، فان هناك اتجاها يبرز فيه التعصب للأمويين في محاولته الحفاظ على منصب الخلافة في ذريته (١) ، وقد ظلت ردود الفعل على تولية العهد ليزيد تستبين في فترات متأخرة من قبل الكتاب والمؤلفين المسلمين ، فمنهم من يثني على أعماله ومنهم من يعارض وينتقد فابن الطقطقا مثلا يقول : " وأعلم أن معاوية كان مربي دول وسائس أمم وراعي ممالك ، ابتكر في الدولة أشياء لم يسبقه أحد اليها .... " (٢) ، وقد حاول البعض الاخر أن يستنبط مبررات لاجراءات معاوية في الدولة كالقلقشندى الذى أشار الى أن تبدل الأحوال في عهده استدعت اقامة شعار الملك واظهار أبهة الخلافة الاسلامية ، الأمر الذى دفعه الى ترتيب أمور الخلافة على نظام الملك ، لما في ذلك من ارهاب العدو واخافته (٣) .

ولا يفوت الدارس ان يشير الى أن الخليفة معاوية كان رجل دولة من الطراز الأول في كل ما رتب من تراتيب ، وقد خرج بأسلوب جديد لادارة منصب الخلافة من حيث الدقة والتخطيط ، وخير ما يدلنا على ذلك موقفه في قضية التحكيم حينما وضع — بالمشاركة مع علي بن أبي طالب — كتاب الحكومة والذى يدل على مدى بعد نظر معاوية السياسي والعسكرى والادارى في كل صغيرة وكبيرة في ذلك الكتاب .

فقد افترض الكتاب موت أحد الخصمين خلال فترة التحكيم ، فكان لأنصار

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ٤١٤ .

(٢) ابن الطقطقا ، الفخرى في الآداب السلطانية ، ١٠٦ .

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ج ٣ ، ٢٦٦ / ٢٦٧ .

المتوفى الحق في تنصيب رجل يرتضونه بدلا منــــه (١) ، وليس هناك ما يدفعنا للاستشهاد بكتاب الحكومة على دقة معاوية وأعوانه ، سوى قلة الوثائق التي تعكس الأوضـــاع الادارية والسياسية في عهـــده •

ويمكن أن نستشف من خلال المراسلات الادارية القليلـة قدرة معاويـــة على توجيه عماله وولاته لما يرى فيه مصلحة الدولة ، وقد نجحت هذه المراسلات في جعل كل من عماله وولاته عندما كانوا يتكلمون ، وكأنهم يتكلمون بلسان الخليفـــــة نفســــــه •

وقد اقترنت مؤسسة الخلافة في عهده بوجود نمط معين من المراسم يسير الخليفة وفقه مع باقي أعوانه وأنصاره وموظفيه من الخدم والحراس ، وكان ذلك بداية عهد البلاط في الدولة الاسلامية ، وكان لهذه التجربة الجديدة آثارا هامة علـى التاريخ السياسي الاسلامي في الفترات اللاحقة ، كما أن لنشوء البلاط أسبابـــا ومبررات سيتناولها الباب التالي •

٢- البـــلاط والمراســم الاداريـــــة :-

لم يكن الرسول والخلفاء الراشدين يتميزون على الناس أو يحتجبـــون عنهم ، وكانت مشاركتهم للناس في حياتهم اليومية معلما هاما من معالم البساطـة التي امتازت بها الخلافة الراشدة والتي ادهشت المراقبين من غير العرب ، نظرا لما حققه الخلفاء من انتصارات ضد خصومهم الساسانيين والبزنطيين رغم البداهة والبساطة في التدبـــير والحكــم •

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ٧٩ •

وقد شاهد المسلمون الذين ساهموا في الفتح ما كانت عليه الدولتان المجاورتان من الترتيب والتنظيم في شؤون الحكم والادارة ،كما أن الفاتحين رأوا ما كانت عليه قصور المدائن وعمائر الشام ومدنها ، والغريب في الأمر أن عنصر التقليد لم يكن بنظرهم ذو شأن كبير رغم الفارق الكبير بين حياتهم البدوية الشاقة وحياة الحضارة والتمدن التي اكتسحوها بما فيهما من رغد العيش والراحة .

وقد يكون لسياسة الخلفاء في فرز المقاتلين العرب عن سكان المناطق المفتوحة له أكبر الأثر في الحد من التمازج مع الحضارات المغلوبة ، مما قلل وخفف من حدة التقليد الا بالقدر الذي يخدم أغراض الدولة الناشئة ، ولم يكن الخلفاء ليحذوا حذو ملوك الفرس أو قياصرة الروم رغم أنهم كانوا على علم بما يتمتع به هؤلاء الملوك من الأبهة ورغد العيش ، ولا شك أن للتقوى ومخافة الله أثر في زهد الخلفاء وميلهم الى حياة البساطة رغم غزارة الغنائم والاموال .

ويمكن تفسير هذه الظاهرة اعتمادا على ثقة الأعراب بأنفسهم وارتباطهم بطبيعة معينة من الحياة يصعب تغييرها ، هذا بالاضافة الى أن العرب قد وجدوا في الفتوح متنفسا لتخليص الجزيرة العربية من النزاعات الداخلية وغزو القبائل لبعضها بعضا ، مما جعل الأمن والاستقرار نتيجة حتمية داخل الجزيرة ، واقترن ذلك بتجانس السكان وقلة العناصر العربية ، كل ذلك منع الخليفة المسلم في فترة الخلافة الراشدة من الاحتجاب عن الناس والخوف منهم .

ولا شك أن وجود البلاط مرتبط أساسا بتقديم الحماية للحاكم من

العناصر المناوئة والخصوم السياسيين والغوغاء من الناس ، ونظرا لتوفر الأمن فلم يكن الامر يقتضي وجود البلاط ولا احتجاب الخليفة عن عامة الناس كما ذكر سابقا ،وهذا ما يفسر سهولة اغتيال عمر بن الخطاب ومقتل الخليفة عثمان ثم اغتيال علي بن أبي طالب، وقد كان السبب في هذه الاحداث تعدد الاتجاهات السياسية بالاضافة الى الشعور بالظلم من قبل عامة الناس ، وكانت هذه فاتحة عهد لصراع طويل على المصالح الاقتصادية والسياسية .

أدرك معاوية هذه الأمور منذ أيام امارته ، وكان له اهتمام خاص بمراسم السلطان والحكم بين الناس ، وذلك في أيام الخليفة المتقشف الحازم عمر بن الخطاب، فعندما كان يزور الشام يستقبله معاوية بالمواكب المزينة والحرس، وقد كان عمر يسأله عن ذلك فيبرره بأن ولايته متاخمة للدولة البزنطية وهو يريد بهذه المراسم أن يجعل لدولة الاسلام هيبة في نفوس أعدائها [(١)] ، كما أن الواقع التاريخي يفرض عليه أن يسلك هذا المسلك ،نظرا لانه يعيش بين سكان بلاد الشام الذين عايشوا الدولة البزنطية والتي كانت تهتم بالمواسم والبلاط ، فجعل معاوية من نفسه بديلا يقتنع به سكان بلاد الشام للسلطات البزنطية الزائلة وحكامها .

وخلال فترة الامارة استطاع معاوية أن يكسب مكانة خاصة وهيبة كبيرة في نفوس سكان بلاد الشام نظرا لما كان يخص به نفسه من الأبهة ، ومن الطرافة بمكان ما يذكره الجاحظ في تفسيره ارتباط الشاميين به ارتباطا وثيقا وتكتلهم

---

(١) الطبرى ، التاريخ ، ج ٥ ، ٥ ، ٢٣١ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ١٦ ؛ الثعالبي ، ثمار القلوب ، ١٥٣ .

أعـــلاه فللعصافـــير ، وأما أسفله فللفأر ، فنقضها معاوية وأعاد بناءهـــا بالتجارة (١) ، وهذا ما يعزز الرأى القائل بأن معاوية اعتبر البلاط وسيلـــة دعائية للدولة الاسلامية وعظمتها في نفوس الأعـــداء .

وفي نفس الوقت كان البلاط وسيلة يترفع بها على خصومه ومنافسيه مـــن الشخصيات المحيطة به في الشام أو في أنحاء الدولة الاسلاميـــة (٢) ، وليـــس أدل على ذلك سوى الحادثة التي قدم بها عمرو بن العاص مع بعض أهل مصـــر الى الشام ، وكان قد طلب من مرافقيـــه عدم التسليم على معاوية بالخلافـــة لكي يصغّروا أمره ويعظّموا صاحبهم عمرو بن العاص ، وكان معاويـــة يـــدرك أبعاد نفسية عمرو وأصحابه ، فطلب من حاجبه أن يؤخر وصولهم اليـــه ، وأن يطيل عليهم ويزعجهم ، ففعل الحاجب ذلك ، فلما وصل المصريون الى معاوية ، سلموا عليه بالنبوة لكثرة ما رأوا من مظاهر الملك والسلطـــان (٣) .

وقد اتخذ الخليفة لقبا لكي يتم على نفسه جوانب الملك ، وكـــان لقبه " الناصر لحق الله " وقد اتبعه الخلفاء في اتخاذ الألقاب (٤) ، وكـــان الحراس يرافقونه في سفره خوفا على حياته خاصة بعد محاولة اغتيالـــه (٥) ، كمـــا

---

(١) ابن عساكـــر ، تاريـــخ دمشق مج ٢ ، ١٢٣/ ١٢٤ .

(٢)

(٣) الطـــبرى ، التاريـــخ مج ٥ ، ٣٣٠ / ٣٣١ .

(٤) القلقشندى ، مآثر الانافة في معالم الخلافة مج ١ ، ٢٢ . وليس هنـــاك من المصادر ما يؤيـــد ذلـــك .

(٥) أبو بكر بن العربي ، العواصم من القواصم ٢١٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ، ٤٤٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب مج ٢٠ ، ٣٧١ / ٣٧٢ .

أنه عمد الى اجراء خاص يظهر احترام الناس له ، وهو أن يلمس الناس يده ، وتطورت هذه العادة الى أن تحولت الى تقبيل يد الخليفة (١) في الفترات اللاحقة.

واعتمد الخليفة على زي رسمي خاص له ولمن حوله من الخدم والحشم ،كما أنه استعمل الستائر في القصر ليضفي عليه رونقا بالغ الوقع في نفوس الزائرين ، واشتهر عنه أنه كان جميل المظهر في لبس عمامة خاصة ،وكان يكتحل (٢) .

واستحدثت وظيفة هامة في البلاط وهي وظيفة الحاجب والتي اشتق اسم صاحبها من عملية احتجاب الخليفة عن الناس ، وصاحب هذه الوظيفة مسؤول عن ترتيب وصول الشخصيات الى الخليفة في القصر ، ويورد ابن خلدون أن وظيفة الحاجب تخدم أكثر من غرض ،أولها حماية الخليفة ثم ان الحاجب يمنع كثرة المراجعين للخليفة لكي يتفرغ بدوره لتصريف شؤون الدولة (٣) ، ويستشف من ابن خلدون أن الحاجب كان يقوم احيانا بتصريف بعض الامور نيابة عن الخليفة ،ويشار أيضا الى أن الولاة زمن معاوية عينوا حجابا (٤).

وقد أدى استحداث هذه الوظيفة الى ردود فعل قوية ،خاصة من قبل الصحابة والتابعين ،الذين كانوا يعايشون الخلفاء قبل معاوية ،ودون أية تعقيدات ،وقد روى عمرو بن مرة الجهني حديثا شريفا بحضرة معاوية قال: " ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من امام يغلق بابه دون ذوي الحاجات

---

(١) غودفروا ، النظم الاسلامية ١٢٧ .

(٢) الطبري ،التاريخ ج ٥ ، ٣٣١ ؛ اليعقوبي ، مشاكلة الناس لزمانهم ، ١٦ ؛ النويري ، نهاية الارب ج ٢٠ ، ٣٧١ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ،م ١ ،ص ٤٢١ .

(٤) ابن عبد الحكم ،فتوح مصر ١٢٣ .

والمسكنة ، الا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته " ، فجعل معاوية رجالا على مصالح الناس ، لكي يقوم مقام الخليفة في معرفة مطالبهم وحل مشاكلهم ومظالمهم درءا لما قد يسببه ذلك من حرج على الصعيد الديني للخليفة (١). ورغم هذا الموقف الشرعي من هذه الوظيفة فان الصحابي أبو الدرداء قد شغل هذا المنصب لمعاوية (٢).

وبالقدر الذى يدلنا عليه تعيين أبي الدرداء في هذه الوظيفة من أهميته في نفس معاوية ، نجد أن معاوية كان يحترم الحجاب ، فقد اشتكى بعض الأشراف اليه أحد حجابه بأنه يأذن لمعارفه بالدخول ومقابلة الخليفة قبله ، فأقره معاوية على ذلك ولم يعاقبه (٣).

ونستطيع القول عن هذه الوظيفة بأنها عكست لنا صورة عن كثرة أعداد الذين كانوا يزورون الخليفة ويقابلونه ، كما أننا نستشف أن معاوية كان يحسب مجالسة الخاصة والعامة من الناس ، كما تشير المعلومات الى الدقة في تنظيم المواعيد لمقابلة الخليفة (٤).

ويبدو أن وظيفة الحاجب لها رتب معينة ، فهناك الحاجب الأول والحاجب الثاني ولكل منهما دور في ايصال الخاصة الى مجلس الخليفة دون سواهم

---

(١) القلقشندى ، مآثر الانافة ج ٢ ، ٦١،٦٢ ؛ ابن عساكر ، تهذيب التاريخ ج ٦ ، ١١٤ مع وجود اختلاف في نص الحديث والمعنى واحد .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ١ ، ٨٣ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، ٣٦٤ .

(٤) الدينورى ، عيون الاخبار ج ١ ، ٨٢/٨٣ .

ومن أبرز الاجراءات الأمنية التي اتخذها ، بناء المقصورة التي تحمي الخليفة أثناء الصلاة في المسجد من عامة الناس ، وقد خصصت للخليفة وحاشيته (١) وتعزو احدى الروايات سبب اتخاذ معاوية للمقصورة بأنه رأى كلبا على منبره مما دفعه الى تطويق المنطقة التي يصلي فيها بالحديد (٢) ، ولكن الواقع يؤيد خدمتها لأغراض حماية الخليفة خاصة بعد محاولة اغتياله أثناء أداء الصلاة (٣).

وكان أول من اتخذ سريرا خاصا لجلوسه ، وصف بأنه يشبه العرش (٤) ، كما أنه عندما كان يسير في موكب من المواكب كان يحمل على مقعد كبير ، ويفسر ذلك بكبر سنه وثقل بدنه في أواخر أيامه (٥) ، ولم يدخر معاوية جهدا في مراسم حكمه لتوفير أقصى درجات الراحة لنفسه ، ويذكر انه استأذن في أن يلقي خطبه جالسا ، وهو أول من فعل ذلك ، لأسباب صحية حينما بدأت صحته بالتدهور في أواخر أيامه (٦) .

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ٦ .

(٢) ابن رستة ، الأعلاق النفسية ، ج ٧ ، ١٩٢ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ٣٥٣ ؛ المبرد ، الكامل ، ج ٢ ، ١٥٠ .

(٣) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢١٥ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ٣٥٣ ؛ النويري نهاية الارب ، ج ٢٠ ، ٣٧١/٣٧٢ ؛ ابن خلدون ، العبر ، م ٦ ، ٤٧٦ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ٣ ، ٤٤٦ ؛ ابن الطقطقا ، الفخري في الآداب السلطانية ، ١٠٦ .

(٤) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ٦ .

(٥) القلقشندي ، مآثر الانافة ، ج ٢ ، ٢٢٨ .

(٦) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ٤٢١ .

ويمكن القول أن البلاط رغم حداثته أصبح بذرة أولى وقوية لمؤسسة ادارية وسياسية لها دور كبير في الدولة الأموية والعباسية التي تلتها ، ومن أبرز معالم هذه المؤسسة أن الخليفة كان يقسّم القصر الى أجنحة متخصصة لتسهيل عملية الادارة والتنظيم ، فهناك مجلس لمعاوية يجتمع فيه بضيوفه وولاته وعماله وموظفيه ، وهناك جناح للحريم[١] ، كما أنه استخدم الخصيان لادارة الخدمات في القصر ، وهو أول من يعمل ذلك من الخلفاء[٢] ، ولا شك أنه تأثر بالبلاط الساساني الزائل والبلاط البزنطي المعاصر .

وأدرك الخليفة ضرورة تربية وتثقيف ابنه يزيد ، فكان أثناء اقامته في دمشق يستقدم له أناسا يعلموه ، ومنهم دغفل بن حنظلة بن زيد بن عبد بن ربيعة الدوسي[٣] ، ولعل ما يميز الاتجاه القبلي عند معاوية في بلاطه هو الاهتمام بأنساب القبائل وأصولها وفروعها ، فكثيرا ما استقدم النسابين وتحدث معهم عن القبائل العربية المختلفة ومن ضمنهم دغفل المذكور والذى استقدمه ليعلم يزيد ويثقفه بثقافة العصر التي أرادها معاوية ، وهي الاتجاه نحو العنصر العربي بكل ما يستطيع من جهد وقوة ، وذلك بغرض خلق هوية عربية لدولته الناشئة أمام الأمم المغلوبة على إمرها من قبل الدولة الإسلامية . كما أنه كان يحاول استذكار تاريخ دول اليمن العربية عن طريق النسابين والاخباريين مثل عبيد بن شريه الجرهمي[٤] .

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ١١٥ .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ١٥٨ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ١٣٤ .

(٣) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، ج ٥ ، ٢٤٢ ؛ الالوسي ، بلوغ الارب ، ج ٣ ، ١٩٨ ؛ القلقشندى ، نهاية الارب ، ٩ .

(٤) ابن قتيبة ، المعارف ، ٥٣٤ .

وكان للقصاصين دور بارز في البلاط ،فإضافة الى كونهم وسيلة للتسلية والسمر ، فقد كان لهم دور سياسي اعلامي كبير في الدعاية للخليفة والبيت الاموي ، ولعب هؤلاء القصاصون دورا كبيرا في السنوات الأولى من خلافته ، وهذا الدور يشبه دور الدعاة الذين اشتهروا في الدعوة العباسية ،وخير دليل على هذا ما لعبه القاص سليم بن عتر عند وفاة معاوية وتولي ابنه يزيد حينما امتنع عبد الله بن عمرو بن العاص في بيعة يزيد (١) .

وعلى الأغلب فان للبلاط دوراً في تحديد موقف الناس من خلافة معاوية ، واعتباره ملكا دون من سبقه من الخلفاء ، نظرا لما تمتع به من أبهة واعتزال عن عامة الناس ، حتى أن مكانة خلافة معاوية كانت مثالا لأحاديث من تلاه من الخلفاء ، خاصة العباسيين منهم ، ومن ذلك قول المنصور " الملوك أربعة ، معاوية وكفاه زيادا وعبد الملك وكفاه حجاجا وهشام وكفاه مواليه وأنا ولا كافي لي ...." (٢) كما أن معاوية اهتم كثيرا بالقبائل العربية وشيوخها باعتبارهم السند القوي والوحيد لخلافته .

---

(١) ابو عمر محمد بن يوسف ، الولاه وكتاب القضاه ، ٣٠٤ .

(٢) الهمذاني ، تكملة تاريخ الطبرى ،ج ١ ،"١" .

ب . الادارة والدواويـــن :ـ

الادارة :ـ

لو حاول المرء أن يحكم على دولة ما ، فليس هناك مقياسا يعتمد ه خيرا من الحكم على ادارتها ، ولا شك أن الدولة القوية يقف وراء قوتها جهاز اداري محكـم التنظيم ، فيتعكس ذلك على مظهر تلك الدولة ، وقد أصبحت الدولة الاسلاميـة في خلافة معاوية دولة امبراطورية واسعة ، شملت ثقافات متعددة على نطـاق محلّي ودولي ، وأشير سابقا عن استفادة المسلمين من الثقافات التي سيطـروا عليها بالقدر الذى يخدم مصلحتهم مع احتفاظهم بهوية مستقلة تبعـد عـن ذواتهم صفـة التقليـد .

وقد بدأت الدولة الاسلامية حكمها من خلال أجهزة ادارية مبسطة تتناسب مع حجم الدولة الناشئة ، ثم أخذت هذه الأنظمة تتطور وتصبح أكثر اتساعـا وتعقيـدا ، وفق تزايد الاحتياجات واتساعها ، وقد تطورت الادارة الاسلاميـة من مرحلة النظام المركزى والذى ساد في عهد النبوة وبداية عهد الخلافـة الراشدة ، الى أن أصبحت الأنظمة المركزية لا تستطيع التحكم بارجاء الدولـة الواسعة فأصبح الحكم بحاجة الى عدد أكبر من الموظفين موزعين حسب اختصاصات معينـة ، كالادارة والتنظيم وقيادة الجند وشؤون المال والجبايـة .

وقد بدأت الأنظمة الادارية التي وضعها عمر بن الخطاب تكشف عن ضعفها في خضم الظروف المتغيرة والمتجددة ، خاصة وأن الأجهزة الادارية في خلافة عثمان استغلت الى أبعد الحدود نظرا لوجود عدد كبير من أقربائه الأمويين فيها .

كما أن البعد المكاني عن المركز وضعف أجهزة الرقابة الادارية جعلت هذا الاستغلال يتزايد ، وانعكس ذلك على شكل سخط عام في الولايات كانت محصلته فتنة عامة أدت الى قتل الخليفة ، وأسفر ذلك عن صراع دام بين المسلمين كانت نتيجته وصول معاوية للحكم (١).

ولم يقم معاوية ابتداء بأية اجراءات جذرية في الأنظمة الادارية السائدة ، ولكنه بدأ تدريجيا ببناء جهاز اداري له مواصفات معينة وكوادر تتمتع بالكفاءة والتدريب ، وعمل على زيادة صلاحيات العمال والولاة وأغناهم من الناحية الاقتصادية ، لكي يتفرغوا لشؤون الحكم والادارة باعتبارها وسيلة للوصول بالامة الى ما هو أفضل ، ولا نعلم مقدار ما حققه الخليفة من نجاح في هذا المجال الا بالقدر الذى توفرت فيه المعلومات في المصادر الأولية عن ادارة الولايات المختلفة نظرا لقلة المعلومات عن الادارة في بلاد الشام .

وقد قسمت بلاد الشام اداريا الى ست مناطق هي قنسرين وحمص ودمشق والاردن وفلسطين وعمان ، وخضعت هذه المناطق لدمشق باعتبارها مركزا لدار الخلافة (٢) ، وقد بذل معاوية جهدا بالغا في تنظيم هذه المناطق وادارتها نظرا لما تشكله هذه البلاد من أهمية عضوية مرتبطة باستمرارية وجوده منذ عهد الامارة وحتى أواخر أيام خلافته ، وكانت هذه البلاد الضمان الوحيد لخلافته .

---

(١) ابراهيم العدوى ، النظم الاسلامية ، ص ٢١٠ .

(٢) أنظر جغرافية بلاد الشام في الفصل الثاني .

ورغم الاهتمام الزائد من قبل الخليفة فلا نلاحظ بروز أية شخصية سياسية أو ادارية فيها [1] ، فقد جعل معاوية من نفسه السياسي والاداري والقائد الأول خوفا من بروز زعامة أخرى تنسد عليه أهل الشام •

وقد حاول معاوية أن يتبع في ادارته للشام نمطا اداريا يشبه الى حد كبير في صفته مشيخة القبيلة في المهام الرسمية ، فكان يجمع رؤساء القبائل ويستشيرهم في كل تدبير أو اجراء يريد اتخاذه لكي يضمن رضاهم أولا ، ولكي لا يشعر الشاميون نحو معاوية باستبداده بالامر دونهم ، وقد تقدم ذكر حوادث كثيرة شاور فيها معاوية زعماء القبائل الشامية في مطلع هذا البحث •

وسنحاول في البداية استقراء معالم الادارة بشكل عام نظرا لقلة المعلومات عن هذا المجال في بلاد الشام خاصة في العهد الأموي ، ولعل ذلك يجيز لنا القياس على النواحي الادارية في مناطق أخرى غير بلاد الشام ، نظرا لأن دمشق هي مركز الخلافة ، وما ينبثق منها بالضرورة سيكون ملزما لباقي الولايات الاسلامية على اختلافها •

وقد أضفت تجربة معاوية وثقافته على الادارة في الدولة معالم جديدة لم يسبقه اليها أحد ، وقد اطلع الخليفة الجديد منذ حداثة عهده على أجهزة الدولة منذ عهد النبوة وحتى نهاية الخلافة الراشدة ، كما أن لديه تجربته سياسية تعود الى أيام الجاهلية ، فقد كان والده سيدا من سادات قريش،

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ٤٢٠ •

وهناك جانب آخر في ثقافة معاوية الادارية وهو اتصاله بالدولة البزنطية عن طريق السفارات ، وتعرف على نواح عديدة من ادارتها [١] ، وقد ساهمت هذه الثقافة في خلق شخصية ادارية ناضجة أثمرت سياسة ادارية انتهجها معاوية في خلافته .

أدرك الخليفة أهمية الكتابة والتدوين منذ سنوات حياته الأولى ، حين كان كاتبا للرسول ، علما بأن حرفة الكتابة كانت نادرة الوجود آنذاك ، واقتصرت على عدد محدود من الرجال ، وكان معاوية قد تعلمها عن أبيه الذى كان من القلة القليلة الذين يجيدون الكتابة في الجاهلية [٢] .

ولا بد أن لارتباط الادارة بالكتابة دور كبير في انجاحها ، لضرورة التدوين في السجلات الخاصة بالدولة ، كما أن للكتابة دور كبير في المراسلات لربط نواحي الدولة ببعضها البعض ، وقد أدرك معاوية أهمية ذلك في مراسلاته مع علي بن أبي طالب ، وساهمت رسائله الى علي في ترجيح كفته على خصمه نظرا لما احتوته هذه الرسائل من دهاء وحيلة ادت الى تفكك جبهة علي وفتحت آفاقا حسنة أمام معاوية وأنصاره [٣] .

وكانت فترة الامارة مرحلة تدريب جيدة لمعاوية على شؤون الادارة والحكم ، وقد ساهمت علاقته بالخلفاء الراشدين الذين سبقوه في الاستفادة

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ٢٠١ / ٢٠٢ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ٤٠ ، ٩٢ ، ج ٣ ، ١٠ .

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ٢٢٨ .

الى أبعد الحدود في هذا المجال ، مما سهل عليه كثيرا من الأمور حينما أصبح خليفة ، وتجنب بالطرق المختلفة - والمشار اليها سابقا - الأخطاء التي تسببت في وقوع مشاكل كثيرة للخلفاء السابقين .

وساهمت طبيعة بلاد الشام وسكانها في نجاح معاوية في اتخاذ التدابير الادارية ، نظرا لما يتمتع به الشاميون من تجانس ، بالرغم من اتساع اطراف هذه البلاد كولاية واحدة على اتساعها في الدولة ، وقد ساهمت سمة بلاد الشام في نمو فكرة اللامركزية في الحكم التي برزت في خلافة معاوية ، فكان يراسل عماله في مناطق الشام وينظم أمور الولاية عن طريق المراسلة ، ولم يكن ليتورع من اجراء ما يراه مناسبا في سبيل المصلحة العامة .

ومن نماذج تدابير معاوية الادارة في فترة الامارة أن عامله على نصيبين كتب اليه يشكو أن جماعة من المسلمين ممن معه تعرضوا للدغ من العقارب فأمره أن يوظف عليهم من يراقب العقارب ويمسكها ويقتلها لمنع أذاها عن المسلمين (١) .

وعلى صعيد الادارة السياسية عمل معاوية على تفريغ الشام من الشخصيات البارزة التي تنافسه في منصبه خاصة الصحابة منهم ، وخوفا من تأثير هؤلاء على أهل الشام وتفريقهم من حوله ، ومن أمثلة ذلك اخراج أبي ذر الغفاري بعد أن بدأ بانتقاد تصرفات الخليفة عثمان بين أهل الشام (٢) .

---

(١) البلاذري ، الفتوح ، ق ٢ ، ٢٤٥ / ٢٤٦ .
(٢) ابن أعثم ، الفتوح مج ٢ ، ١٥٥ .

وعلى صعيد آخر ومن ضمن التدابير الادارية الوقائية ، فان معاويــة طلب من الأشتر النخعي ـ وهو من عصاة الكوفة المشاغبين على سياسة بـني أميــة أثناء خلافة عثمان ـ القدوم الى الشــام ، وعندما قدم اليه فرض عليـه ما يسمى بلغة العصر " الاقامة الجبريــة " خوفا مما قد يحدثه مـن الفوضــى والفــتن (١) .

وشكلت الوظائف الادارية جزءا من وسائل الاغراء التي استطاع بهـا الخليفة أن يسكت عددا من المعارضين أو الطامحين الذين يرون لأنفسهم حقـا في السيادة ، وخير مثال هو تولية عمرو بن العاص على مصر واطعامه خراجها مـا عاش ، ولم ينثن معاوية عن قبول ذلك ، لكي يضمن عدم انحياز عمرو بن العاص الى جانب علي ، كما أنه بواسطته يستطيع السيطرة على بلد غني بموارده وسكانـه بالاضافة الى أنه أدرك خطورة المصريين على ضـوء موقفهم من عثمان ومشاركتهـم في الفتنة ، فولى عليهم عمرا هذا ليضبط له ولاية مصـر ، واستطاع أن يقتل عامـل علي عليها ، وسيطر عليها سيطرة تامة طيلة حياتــه (٢) .

وفي المدينة اعتمد معاوية على شخصيات قوية لها وزنها السياسي ـ والاجتماعي في المجتمع الحجازي ، وهذه الشخصيات هي مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عتبة ، وهـم من أقرباء معاوية ، وتمكن كل منهم فـي فترة ولايته أن يضبط المدينة لانها مصدرا يثير القلق بالنسبة للخليفـة لاحتوائها على عدد من الصحابة والتابعــين .

---

(١) ابن أعثم ، الفتــوح ، ج ٢ ، ١٧٣ / ١٧٧ .

(٢) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٩٧ / ٩٨ ؛ البلاذري ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٢٩ .

وفي مكة ولّي عتبة بن أبي سفيان وخالد بن العاص بن هشام وعتبة بن أبي سفيان ، وقد ضمّ معاوية الطائف اليها لتسهيل ادارتها ، وقد جمعت ولايتي مكة والمدينة في احدى المرات لمروان لمدة عدة شهور ، وقد توالت عملية العزل والتعيين في الحجاز بشكل ملحوظ حتى لا يستطيع الوالي في فترة قصيرة أن يشكل خطرا على الخليفة [1] ، وقد ساهمت سياسته في الحجاز الى اعتزال عدد من الصحابة الخوض في غمار السياسة والتفرغ لأمور العبادة والتديّن .

وفي العراق — وهي أكثر منطقة تشكل خطرا على الخليفة — استند الى زياد بن أبيه في ادارة تلك المنطقة ، وقد أدى زياد دوره على أتم وجه ، فكان الادارى الناجح الذى ضمن للخليفة ضبط هذا الاقليم الذى يمتلئ بالحقد والثورة على معاوية خاصة ، وعلى الأمويين عامة .

فقد قدم زياد بن أبيه الى العراق مع جيوش الفتح في خلافة عمر ، وكان يبدى ذكاء وموهبة فائقين وكان يجيد الكتابة ، فولاه القائد عتبة بن غزوان تقسيم الغنائم ، ثم أصبح كاتبا للمغيرة بن شعبة حين ولي البصرة ، وعندما أصبح أبو موسى الأشعرى واليا عليها استكتب زيادا ، فخرج الأول غازيا فاستخلفه على البصرة فعلم عمر بذلك ، فاستدعاه ليمتحنه ، فوجده يصلح لما عُهد اليه ، وبعد خلافة عمر عمل زياد في الكتابة لدى ولاة البصرة حتى قتل علي واستسلم الحسن ، فالتجأ زياد الى فارس ، وبعد مشاورات عدة أعطاه معاوية الأمان ، وأصبحت علاقتهما جيدة .

---

(١) البلاذرى ، الأنساب ، ق١ ، ج ٤، ١٣٥ /١٣٦ ؛ ابن بكار ، الأخبار الموفقيات ، ٢٥٨ .

ورأى معاوية ضرورة الاستفادة من قدرات ومواهب زياد ، فعمل فـي البداية على تخليصه من عقدة نسبه ، التي كانت تزعجه جدا في الوسط القبلـي السائد آنذاك ، اذ أن الناس كانوا يتفاخرون بالنسب والحسب والأصالـة ونقاء العرق ، وتمكن معاوية من استلحاق نسب زياد بأبيه أبي سفيان ، وأجرى شهادة الشهود على ذلـك (١).

ولاقى الخليفة معارضة بالغة من أقربائه الأمويين على هذه الفعلـة ، خاصة مروان بن الحكم الذى قال لمعاوية مستنكرا : " يا معاوية : والله لو لـم تجـد الا الزنـج لاستكثرت بهم علينا قلة وذلة............" (٢) ولكن الأمويين أخيرا رضخوا للأمر الواقـع .

والنواحي الادارية في ولاية زياد واسعة جدا ، وسنتناول القدر الـذى يمكن أن يتوافق مع السياسة الادارية لمعاوية ، فقد ولي زياد البصرة سنة ٤٥هـ بعد وفاة واليها المغيرة بن شعبة (٣) ، وأبدى فيها براعة بالغة في تسيير النظام وضبط الأمور ، وقد حافظ على الأمن بواسطة جهاز للشرطة ومنهـم

---

(١) البـلاذرى ، الأنساب ، ق١ ، ج٤ ، ١٦٢/١٧٠ ؛ الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢١٤ ؛ ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ٢٣٦ / ٢٣٧ ؛ ابن الطقطقا ، الفخرى في الآداب السلطانيـة ، ١١٠ ؛ أبو الفداء ، مختصر أخبار البشر ، ج ٢ ، ٩٩/ ١٠١ .

(٢) النويـرى ، نهاية الارب ، ج ٢٠ ، ٣٠٢/ ٣٠٥ .

(٣) اليعقوبي ، التاريـخ ، ج ٢ ، ٢٢٩ .

الطوافين في الليل لاغراض الحراسة ، كما أنه فرض منعا لتجول الناس في الليل بعد صلاة العشاء ، وقد فرض عقوبة قصوى وهي القتل لمن يخالف ذلك (١) .

ويشار الى اهتمامه بالنظافة العامة وازالة العوائق عن الطرقات وترميم البيوت بعد المطر (٢) .

وقد بهر معاوية بما حقق زياد في البصرة ، فضم اليه الكوفة ، فأعاد تنظيم القبائل فيها (٣) ، وعم الأمن وانتشرت الطمأنينة بشكل لم يعهده الناس من قبل ، وذلك نتيجة للحزم في العقوبات ، وله قول مشهور في هذا المجال " برئت الذمة من رجل أغلق بابه ، ومن ذهب له شيء فأنا له ضامن " (٤) وبات الناس لا يخافون السرقة .

وجعل زياد لولايته مواسم خاصة واهتم بالخدم والحشم والحراس ، وكأنه يقلد معاوية ، حتى انه وصف بأنه أول من شدّ أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس طاعة الخليفة ، وجرّد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة (٥) .

---

(١) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٨٢ ؛ الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢٢٢ .
(٢) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٢٠٦ .
(٣) البلاذري ، الانساب ، ط ١ ، ٢٣٥ .
(٤) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٧١ / ١٧٢ .
(٥) المصدر السابق ، ١٩٢ ؛ الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢٢٢ ؛ ابن خلدون ، العبر ، م ٣١ ، ١٧ / ١٩ .

وقد تناوب زياد في ولايته على كل من البصرة والكوفة ، فكان يقيم بكل واحدة مدة ستة أشهر ، وكان في كل مدينة رجل يستخلفه أثناء غيابه عن احداهما ، فكان نائبه في البصرة سمرة بن جندب الفزاري وفي الكوفة عمرو بن حريث ، واتصف كلاهما بالحزم والقوة (١) ، ويلاحظ من خطب زياد في العراق أنه كان دائما لسان حال معاوية في كل صغيرة وكبيرة ، وكان على اتصال دائم به .

ورغم الصلاحيات الواسعة التي تمتع بها زياد ، لكن الخليفة لم يسمح له بقتل حجر بن عدى نظرا لما له من مكانة اجتماعية ودينية بين المسلمين ، فطلب منه أن يوفده الى الشام ففعل ، وتمكن معاوية من قتله على الطريق وفي ظروف يكتنفها بعض الغموض ، كما أن معاوية كان يحاول في معظم الأوقات أن ينفّذ العقوبات بالمتهمين عن طريق زياد لكي يجنّب نفسه حقد الناس وضغينتهم عليه (٢) .

وقد خلف زيادا بعد وفاته على البصرة سمرة بن جندب ثم عبد الله بن عمرو بن غيلان ثم عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان ، وولي الكوفة بعده عبد الله بن خالد بن أسيد ، فأقره معاوية أشهرا ثم ولى الضحّاك بن قيس ، ومن بعده النعمان بن بشير ، ونستشف من هذا مدى القوة التي تمتع بها زياد الذى استطاع أن يجعل من العراق بقرة حلوباً لصالح الخليفة معاوية ولصالح الدولة الاسلامية عامة ، رغم ما في العراق من

---

(١) البلاذرى ، الأنساب ، ق١ ، ج ٤ ، ١٨٢ / ١٨٣ .

(٢) محمد حمادة ، الوثائق السياسية ، ١٤٩ / ١٥٠ .

مشاكل ، بينما لم يستطع معاوية جمع الكوفة والبصرة لرجل واحد من بعده.

بعد هذا الاستعراض الموجز لأمر ولاة معاوية ، نستخلص أنه رَكَن الى شخصيات قوية ومدربة في شؤون الحكم والادارة ، كما أن المرء يُحِسّ بوجود تشابه بين معاوية وولاته ، من حيث الذكاء والدهاء والقدرة على حل المعضلات فقد كان ثلاثة منهم على الاقل يرون لانفسهم الحق في الخلافة ، وهم مروان وعمرو وزياد ، وتمكن مروان من تحقيق ذلك بعد فترة قصيرة ، لكن الأجل قصّر أعمار الآخرين ، فلم يستطيعا تحقيق مطامحهما السياسية .

وباستمرار نجد أن معاوية كان يكبح جماح الطامحين عن طريق القوة والحجة والمنطق ، فمثلا عندما كان زياد يتفاخر بنفسه امام الخليفة وابنه يزيد يعود معاوية وابنه ليذكراه بفضلهما عليه في نقله من ولاء ثقيف الى عز قريش ومن نسبه الى عبيد الى الحاقه بنسب أبي سفيان ، وذكراه بنقله من وظيفة القلم والكتابة ورفعاه على المنابر ، ويركز كل من معاوية وابنه على أن جميع خصائص زياد وصفاته تعود في أصلها الى معاوية (١).

وامتنع معاوية في غالب الأحيان عن الاعتماد على عدد من الصحابة وأبنائهم في تولية الأمصار ، نظرا لما ينطوي على ذلك من خطورة ، فترد رواية عن المدائني قال : " قال معاوية لعبدالرحمن بن زيد بن الخطاب : لقد هممت بأن اوليك الكوفة غير مرّة ، فما منعني من ذلك الا أني قلت : أوليه فيقول : أنا ابن زيد بن الخطاب أحد أبناء المهاجرين البدريين وعمي الفاروق أمير

---

(١) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ٢٧ / ٢٨ .

المؤمنين ، وأنا أحق بالأمر من معاوية ، قال : لو وليتني لقلت ذلك ، وأنا أقوله الآن ! فضحك معاوية " (١) .

وترد رواية تبين مدى اهتمام معاوية البالغ بولاته لانهم عماد سلطته في الدولة ومفادها أن معاوية حينما يريد تولية رجل من رجاله ، يجربه أولا بتوليته على الطائف ، فان رأى منه خيرا وأعجبه ولّاه مكة معها ، فان أحسن التدبير وقام بما ولي قياما حسنا ، جمع له معهما المدينة ، فكان اذا ولّي رجل الطائف قيل : هو في أبي جاد - أي في أول الطريق - فاذا جمع له معها مكة قيل : هو في القِران ، فاذا جمع معهما المدينة قيل : قد حذق الرجل (٢) .

وكان معاوية يظل على اتصال بولاته يراقبهم ويوصيهم بشكل يحقق من ورائه النفع الذى يريد ، ووصاياه للولاة تدور حول تصرفهم ببصيرة وحكمة ترضي الخليفة (٣) .

وأمثلة تدخل معاوية في شؤون الولايات كثيرة رغم اعطائهم صلاحيات واسعة ، حتى أنه كان ينتقد ساعده الأيمن في العراق زياد بن أبي سفيان ومن ذلك اعتراضه على تعيينه للعمال ، اذ أنه وجدهم في الغالب من بني الحارث بن كعب ، فأوضح له زياد الامر بأنه استعملهم لصفتين توفرتا فيهم وهما الأمانة والكفاية (٤) .

---

(١) البلاذرى ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٢٧ .

(٢) الطبرى ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢٩٦ .

(٣) محمد حمادة ، الوثائق السياسية ، ١٤٦ .

(٤) البلاذرى ، الانساب ، ق١ ، ج ٤ ، ١٣٦ .

وعلاقة معاوية بولاته تقوم على الولاء المطلق من جانبهم ، نظرا للجهد الذى صرفه معاوية في دراسة نفسيات ولاته ، ومعرفة كفاءاتهم وقدراتهم ، وبالتالي فان كلامنهم كان يعرف واجباته خير معرفة ويؤديها على الوجه الاكمل ، من حيث الالتزام بسياسة الخليفة وأوامره واجتناب نواهيه وايصال الواردات المالية الى بيت المال المركزى في دمشق ، ويستثنى من هذا الوضع عمرو بن العاص الذى كان يسير على عهد خاص بينه وبين الخليفة .

ويلاحظ في ادارته أنه فصل بين الولاة وأصحاب الخراج ، لكي يضمن استقلال الجهاز المالي عن الادارة وبالتالي فان مقدرات الجباية لم تكن تصرف في مناطق جبايتها وانما كانت تحت تصرف الخليفة مباشرة ، ويؤيد ذلك رواية وردت عن المدائني عن صاحب خراج همذان وهو عمر بن سعد بن أبي وقاص الذى حاول الوالي أن يضع أموال الخراج في حوزته ، فرفض عمر ذلك وبرر موقفه أمام الوالي النعمان بن بشير بأن معاوية أرسل له كتابا يخبره فيه بأنه لا سلطان لأحد عليه (١) ، وكان الخليفة هو المسؤول عن تعيين صاحب الخراج ، بعكس باقي الوظائف التي كانت من صلاحيات الوالي .

ويفسر الفساد والتعسف في جباية الاموال في الدولة الأموية ، على ضوء اعطاء العمال صلاحيات واسعة في التصرف دون ضوابط أو موانع من قبل الولاة (٢) ، وقد تعامل الخليفة مع ادارييه بمرونة زائدة ، من منطلق ما كان يتمتع به من قدرة على حسن الاختيار ، بالاضافة الى عنصر الحلم وكظم

---

(١) البلاذرى ، الانساب ، ق١ ، ج ٤ ، ١١٤ / ١١٥ .

(٢) الدورى ، النظم الاسلامية ، ج ١ ، ١٣٩ .

الغيظ في سبيل تحقيق قدر أكبر من النجاح على صعيد عامة الناس من جهة ، ومن جهة أخرى ليرى الشاميين نموذجا فريدا في الحكم لضمان استمرار ولائهم لـــــه .

ومن أمثلة مرونة الادارة عنده هو أن أحد عمال زياد كسر الخراج فطلبه زياد فهرب واستجار بمعاوية فأجاره ، فكتب زياد اليه يعاتبه في ذلك لما يسببه هذا العمل من فساد الاداريين ، فأجابه معاوية بأنهما يجب أن يكونا مرنين في الحكم ، اذا اشتد أحدهما لان الآخر ، والعكس صحيح (١).

ومن النماذج الأخرى في مرونة الادارة لدى الخليفة ، أنه فرض لأهل الكوفة زيادة في العطاء بلغت عشرة دنانير للفرد ، وكان الوالي آنذاك النعمان بن بشير الذى كان عثمانيا ويكره أهل الكوفة ، فرفض أمر معاوية في صرف الزيادة ، ولم يستطع الكوفيين أن يصنعوا تجاه ذلك شيئا ، ولم يبد معاوية أى رد فعل (٢).

وخدمت هذه المرونة كسب رضى وولاء العمال والناس في الأمصار ويمكن أن نستشف ذلك من وصية أداها معاوية ليزيد نصحه فيها أن يستجيب للعامة من أهل العراق ، اذا طلبوا أن يعزل واليهم ، وان عزل الوالي أهون أن يشهر عليه مائة ألف سيف (٣) ، وقد حصل هذا فعلا في حياته ، اذ قدم وفد من أهل الكوفة يسألونه عزل ابن أم الحكم واليهم ، فاستجاب لهم وعين

---

(١) ابن عبدربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ٥٠ .
(٢) الأصفهاني ، الاغاني ، ج ١٦ ، ٢٩ .
(٣) البلاذرى ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٢٤ .

بدلا منه النعمان بن بشير(١) .

أما في بلاد الشام فان معاوية لم يضع ولاة يديرون له بلاد الشام، فقد كان هو الخليفة والوالي في آن واحد ، وأشرف بنفسه على ادارتها وفق سياسة محكمة تعود في تاريخها الى أيام امارته الأولى ، ولا بد أن اشرافه المباشر على بلاد الشام جعلها الركيزة الأساسية في بناء دولته ونجاحها ، ولكي يضمن معاوية استمرار ولاء العناصر السكانية ، استبعد عنها الشخصيات التي كان من الممكن أن تشكل خطرا عليه في خلافته .

فقد عمد الى استعمال الأشراف والأمراء خارج الشام وفي المجالات العسكرية أمام جبهات العدو ، مبعدا خطرهم عن نفسه وعن دولته ، ومن أمثلة ذلك أنه استعمل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي على الصائفة لكنه كان يشك في ولائه فعزله وعين بدلا منه سفيان بن عوف الغامدي(٢) ، رغم أنه شارك في غزو الروم أكثر من مرة ، وتشير الأخبار الى أن الخليفة دس له السم عن طريق شخص يدعى ابن أثال وتمكن من قتله(٣) .

واعتمد معاوية في الشام نمطا اداريا يختلف عن ادارة الولايات الأخرى في الدولة ، فبالاضافة الى الموظفين في القصر وما يليه من الشرطة والحراس نجد ألقابا ادارية أخرى في مناطق الشام ، ومن هذه المناصب منصب الأمير الذي هو أدنى مرتبة من الوالي ، ويعينه معاوية مباشرة ليمارس صلاحياته في المنطقة التي يختارها الخليفة ، حتى أنه عين أميرا لدمشق نفسها

---

(١) البلاذري ، الأنساب ، ق١ ، ج٤ ، ١٢٠ .
(٢) ابن بكار ، الاخبار الموفقيات ، ١١٣ / ١١٤ .
(٣) الطبري ، التاريخ ، ج٥ ، ٢٧٧ .

وهو الضحّاك بن قيس الفهري ، وهو من أبرز رجالات الشام الذين وقفوا مع معاوية في صفين (١).

ووجد أمراء آخرون في حمص وبعلبك ، ويبدو أن هؤلاء الأمراء هم قادة الجند في تلك المناطق (٢) ، وكانوا يقومون بغزو بيزنطة صيفا وشتاء ، ويلاحظ أن الأمراء لم يبقوا على مناصبهم ، فقد كان الخليفة يغيرهم بين حين وآخر ، فمثلا الضحّاك بن قيس أصبح فيما بعد مسؤولا عن الشرطة في دمشق ، وكان يزيد بن الحر العنسي على الشرطة فنقله الى قيادة الحرس الخاص به (٣).

وقد أدرك ابن العديم في كتابه مدى سيطرة معاوية على بلاد الشام بقوله : أن الولاة كانوا في أيام معاوية بمنزلة الشرطة ، ولا يستطيعون فعل أى شيء لا يريده الخليفة (٤).

والى جانب الأمراء وأصحاب الشرطة وجد أصحاب الخراج في مختلف المناطق الشامية وكانوا يعينون مباشرة من قبل الخليفة ، وليس بينهم وبينه أى وسيط ، شأنهم شأن باقي عمال الخراج في الدولة .

---

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢ ، ١٣٧ / ١٤٠ .

(٢) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، ج ٤ ، ٣٧١ .

(٣) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٣٦ ؛ الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٣٢٢ ؛ ابن حبيب ، المحبر ، ٣٧٣ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ج ١ ، ٤١ .

يلاحظ عند استقصاء معالم الادارة في بلاد الشام أن أسماء الاداريين تذكر عرضا وبدون أية تفصيلات ، ومن أبرز هؤلاء الاداريين بسر بن أبي ارطأة وشرحبيل بن السمط الكندي والضحاك بن قيس الفهري وأبو الأعور السلمي وحبيب بن مسلمة ويزيد بن الحر العنسي وسرجون بن منصور الرومي ومالك بن هبيرة وسليمان المشجعي من قضاعة وعبيد الله بن نصر بن الحجاج بن علاء كاتب ديوان في دمشق ، وعبد الله بن أوس الغساني كاتب ديوان الرسائل وغيرهم ٠

ويلاحظ من استعراض أسمائهم ومعرفة أصولهم أن الخليفة اعتمد على عناصر محلية في الادارة الشامية ولم يستعمل أحدا من أقربائه الأمويين الا في حالات نادرة ، وقد أولى معاوية رؤساء القبائل جل اهتمامه واحترم التقاليد القبلية مشعرا إياهم بدوام سلطتهم ونفوذهم ، مع ارتباط هذين العنصرين بوجوده كزعيم أعلى لهذه القبائل ٠

ولم تقف علاقته مع اداريين في بلاد الشام عند هذه الحدود ، بل تجاوزها الى المصاهرة والنسب ليوطد هذه العلاقات ويقويها ، فقد زوّج ابنته هند لعبد الله بن عامر بن كريز (١) ، وهذا الزواج من حيث الغرض يشبه زواج معاوية من ميسون بنت بجدل الكلبية ، والذي ترتب عليه ضمان أكبر القبائل الشامية الى جانبه ، كما أنه استفاد أيضا من الموظفين النصارى وأحسن معاملتهم واحترمهم ٠

---

(١) ابن حبيب ، المحبر ، ٥٧ ٠

الـــدواويـن :ـ

الدواويـن هي الأجهزة الادارية التي تشمل كوادر مختلفة لأداء الوظائف الموكلة اليها في الدولة الاسلامية ، ولكل ديوان منها اختصاص معين ، وتعـود نشأتها الى فترة خلافة عمـر ، وكان أول هذه الدواوين ديوان الجند ، الـذى كان ينظم أعطيات الجند وأرزاقهم ، واستمر هذا الديوان ينمو ويتسع ليستوعـب الأعداد المتزايدة من المقاتلين ، واقتضت الحاجة وجود ديوان في المركـز ودواوين فرعية في الولايات لتسهيل تنظيم الأمور المالية للجنـد .

وهناك ديوان الخراج الذى وجد منذ خلافة عمر أيضا والذى يشرف على جباية الضرائب من الولايات المختلفة وباشراف مباشر من قبل الخليفة نظـرا لأهمية الأموال بالنسبة للدولة الناشئة ، ويشار تكرارا هنا أن الاستفادة من الخبرات المحلية أدى الى تدوين سجلات خاصة بالدواوين باللغة التي تتبـع لها المنطقة المفتوحة ، ففي سوريا دوّنت الدواوين باللغة اليونانية وفي مصـر باللغة السريانية ، وفي العراق باللغة الفارسيـة .

واستخدم معاوية في دواوينه رجالا كانوا غالبا من المسيحيين أمثـال سرجون بن منصور الرومـي (١) ، وابن أثال النصرانـي (٢) ، وحميد بن أوس الغسانـي (٣) ، وظلت الدواوين تكتب بغير العربيـة حتى خلافة عبـد الملك الذى عربهـا .

---

(١) مؤلف مجهول ، الامامة والسياسة ، ٦٩ .
(٢) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ٢٦ / ٢٧ .
(٣) خليفة بن خياط ، التاريخ ، ج١ ، ٢١٨ / ٢١٩ .

وأدركت الخليفة وعماله أهمية التدوين في السجلات ، لتسهيل الرجوع اليها وتدقيقها لضبط أمور الدولة ، وأصبحت الكتابة فنا من فنون الادارة ، ويلاحظ أن الدقة أصبحت صفة من صفات الكتب والسجلات الرسمية ، فقد فصل زياد بن أبي سفيان أحد كتابه نتيجة لخطأ نحوي ارتكبه ذلك الكاتب (١).

وامتازت سجلات ورسائل الدواوين باستعمال قراطيس ذات مواصفات معينة ومقاييس معينة كل حسب الجهة المرسل اليها الكتاب (٢) ، وكان كل كتاب يؤرخ حسب تاريخ صدوره ، وكان تأريخ الكتب على مذهبين : أولهما بعد مضي منتصف الشهر فيقال " لست ليال خلت من شهر كذا " ، وثانيهما قبل منتصف الشهر فيقال " لثلاث ليال بقين من شهر كذا " (٣) .

ونظرا لارتباط الادارة بعدد كبير من الرسائل التي يصرّف فيها الخليفة أمور الولايات ، اقتضى الأمر وجود ديوان خاص سمي ديوان الخاتم ، وتعزو المصادر تكوين هذا الديوان الى حادثة تزوير حصلت في احدى رسائل معاوية التي تضمنت منح عمرو بن الزبير هبة مالية قيمتها مائة ألف درهم ، فحولها الى مائتي ألف ، وعند مراجعة الحسابات في نهاية العام تبين معاوية ذلك فأنشأ ديوان الخاتم (٤).

---

(١) اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢٣٤ ؛ الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ٢٥ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٦ ، ١٨٩ .

(٣) المصدر السابق ، ٢٤٧ .

(٤) الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٢٢٩/٢٣٠ ؛ مؤلف مجهول ، تاريخ الخلفاء ، ٧٠ ؛ الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ٢٤ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٢ ، ٣٤٢/٣٤٣ ، ٣٥٦ .

وتبين رواية أخرى أن زياد هو الذى أنشأ هذا الديوان مقلدا الادارة الفارسية في حفظ الرسائل وتصنيفها ، وقلد باقي الاداريين ذلك بأنهم بدأوا يختمون رسائلهم وكتاباتهم حفظا لها من العبث والتزوير (١).

ويستشف من ذلك أن الحاجة العملية كانت دائما لاتخاذ بعض المواقف الادارية وتشكيل أجهزة جديدة لخدمة أغراض الدولة ، ويعكس ذلك مدى الدقة في التعامل في ادارة معاوية .

ووظيفة ديوان الخاتم هي حفظ نسخ من رسائل الخليفة وتوقيعاته ثم يختم الكتاب ويحزم بخيط ويشمع حفظا له من التزوير ، ثم يوسل الى الجهة المنوى ارساله لها (٢) ، وسمي هذا الديوان لاحقا باسم " ديوان الانشاء " حيث كان الخليفة يملي على كاتب الانشاء ، فيكتب هذا ما يريد الخليفة ، فيختمه ويصرفه وفق أصول متبعة (٣).

ويشار هنا أن الختم لم يكن من ابتكار معاوية ، فهو عادة قديمة يقصد منها معرفة صاحب الكتاب ، فقد كان لرسائل الخلفاء الذين سبقوه أختاما ، وكان نقش خاتم معاوية " لكل عمل ثواب " وقيل " لا قوة الا بالله " (٤).

---

(١) البلاذرى ، الفتوح ، ٤٥٠ ؛ ابن الطقطقا ، الفخرى في الآداب السلطانية ، ١٠٧ ؛ ابن خلدون ، العبر ، م٣ ، ٢٨٨ / ٢٩٠ .

(٢) ابن الطقطقا ، الفخرى في الآداب السلطانية ، ١٠٧ ؛ ابن خلدون ، العبر ، م١ ، ٤٧٠ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ١٣٤ .

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ٩٢ .

(٤) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢ ، ٢٧٥ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٦ ، ٣٥٤ .

ولم يكن ديوان الجند مستقلا استقلالا تاما عن ديوان الخاتم ، فقـــد جمع معاوية هذين الديوانين لرجل واحد وهو عبيد بن أوس الفساني (١) .

*وهناك عنصر آخر في الادارة وهو البريد الذى يخدم أغراضا متعـــددة أهمها كونه جهاز رقابة دائم على الولاة والعمال ، بالاضافة الى كونه وسيلة لوصول أخبار الولايات الى دمشق ، ونقل الأموال من الولايات الى المركز (٢) .

ولا شك أن للرقابة الادارية دورا كبيرا في نجاح معاوية كشخصية ادارية ، ونستطيع أن نلمس ذلك من قول ينسب الى المغيرة بن شعبه حين قال : " أحب الامارة لثلاث: أحبها لرفع الأولياء ووضع الأعداء واسترخاص الأشياء ، وأكرههـــا لروعة البريد وموت العزل وشماتة الأعـــداء" (٣) ، فيلاحظ أن للبريد دورا كبيرا في اشعار الولاه والعمال بأنهم تحت سمع وبصر الخليفة ، رغم البعد المكاني بين المركز والولايـــات .

وتمتع بريد معاوية بعدة صفات منها : سرعة وصول الأخبار ، بالاضافـــة الى التكتم والسرية على هذه الاخبار ، واستعملت في البريد الخيل والبغال ، وكانت له محطات منتشرة على الطرق وتبعد الواحدة عن الأخرى مسافة اثـــني عشـــر ميـــلا (٤).

---

(١) خليفة بن خياط ، التاريخ ، ج ١ ، ٢١٨ / ٢١٩ ؛ ابو عمر بن يوســف ، الولاه وكتاب القضاه ، ٣٠٢ .

(٢) ابن الطقطقـــا ، الفخرى ، ١٠٦ .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريـــد ، ج ١ ، ٢٤ .

(٤) ابن الطقطقا ، الفخرى ، ١٠٦ ؛ الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ٢٢٧ .

وقد شمل البريد معظم مناطق الدولة الاسلامية ، وكان يأتي الى المركز على شكل دوري ومنظم لمعرفة امور كل منطقة على حدة [١] ، ولا شك أن البريد استعمل قبل خلافة معاوية ، لكنه لم يكن يخدم نفس الأغراض التي خدمها في خلافة معاوية ، لذا فان المؤرخين والأدباء اعتبروا معاوية أول من وضعه [٢] .

وتعزو احدى الروايات الى أنه قلد الفرس في ذلك [٣] ، ولا بد أن لزياد بن أبي سفيان دوراً في احكام الأمور الادارية التي شاهدها خلال اقامته في المشرق الاسلامي بعد مقتل علي .

والمعلومات الادارية القليلة تحول دون اعطاء صورة واضحة المعالم عن الدواوين وتفصيلاتها .

وقد رافق وجود هذه الدواوين جهازا آخر يمكن مجازا أن نطلق عليه اسم " الجهاز التنفيذي " وهو الشرطة ، ويقوم الشرطة بتنفيذ أوامر الخليفة أو الولاة في الدولة ، بالاضافة الى مهام الحراسة وحفظ الأمن وتنفيذ العقوبات ،

---

(١) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢ ، ٢٤٦ / ٢٤٧ .

(٢) ابو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ١٠٤ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ٣٦٧ .

(٣) البلاذري ، الفتوح ، ٤٥٠ ؛ اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢٣٤ ؛ القلقشندي ، معالم الانافة ، ج ٢ ، ٣٤٢ / ٣٤٣ .

أنظر: D. Sourdel. Art. ' Borid ' Encycl. of Islam. Second Edition .Vol. I. p.p. 1045-1047.

وقد تعاقب على منصب صاحب الشرطة عدد من الشخصيات الشامية أمثال يزيد بن الحر العنسي وقيس بن حمزة الهمداني(١) والضحّاك بن قيس.

ومكانة صاحب الشرطة مكانة مرموقة في نفس الخليفة ، ونستنتج ذلك من أن الذين تولّوها كانوا أصحاب شأن ومكانة رفيعة في نفس معاوية ، فيذكر أن معاوية حين قربت وفاته عهد الى صاحب الشرطة الضحاك بن قيس القيام بالأمور في دمشق الى حين عودة ولي العهد يزيد الذى كان غائبا عن الشام(٢).

وقد أفرد معاوية جزءاً من الشرطة لحراسته في البلاط وفي الأماكن العامة الأخرى وللقيام بمراسم الحكم في الاحتفالات ، وجعل لهم رئيسا يشرف على تنظيمهم ، وهو أول من فعل ذلك من خلفاء المسلمين(٣)، وقد كان هؤلاء الشرطة على رتب مختلفة(٤).

وجعل الخليفة من منطقة الجليل مركزا يسجن فيه من يرى فيهم خطرا سياسيا على دولته ،بالاضافة الى المجرمين على اختلاف التهم الموجهة اليهم ،

---

(١) البلاذرى ، الانساب ، ق١ ، ج ٤، ١٣٦ ؛ خليفة بن خياط، التاريخ ، ج ١، ٢١٨/ ٢١٩ ؛ ابن حبيب ، المحبر ، ٣٧٣ ؛ سعيد ابن البطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ١٩ .

(٢) الطبرى، التاريخ ، ج ٥، ٣٢٢ .

(٣) خليفة بن خياط ، التاريخ ، ج ١، ٢١٨/ ٢١٩ .

(٤) البلاذرى ، الانساب ، ق١ ، ج ٤، ١٧٦ .

ومن ضمنهم من اشتبه بمشاركتهم في الفتنة وقتل عثمان مثل محمد بن أبي حذيفة وكريب بن ابرهة (١)، وجعل الخليفة سجونا خاصة لأسرى الحرب من البزنطيين، ويذكر أنهم كانوا يعاملون معاملة جيدة ويقدم لهم الغذاء والملبس طيلة فترة اقامتهم (٢) في بلاد المسلمين .

ولا بد من الاشارة الى الأسطول الاسلامي الذى أسسه معاوية لمقارعة بزنطة التى كانت تهاجم السواحل السورية من البحر، فكان لا بد له من تطوير قوته بالرغم من محاولات الخلفاء الراشدين منع المسلمين من خوض البحار لأن الاستراتيجية العربية اعتمدت على الجمل أو الحصان والسيف، الأمر الذى يتلاءم مع حياة الصحراء والبادية العربية .

ويمكن أن نفسر الهدنة (٣) التي صالح فيها معاوية الروم على مال يدفعه لهم في أيام صراعه مع علي بأنها تعود الى سببين رئيسيين هما : أولا انشغال معاوية بالقتال في صفين، وثانيهما عدم كفاءة قوات المسلمين من حيث متاخمتها للبحر الأبيض المتوسط الذى جعل منه الروم بحرا يصول أسطولهم فيه، ففي البداية اعتمد معاوية في مقاومتهم على تسليح المدن الساحلية تسليحا قويا لتقف أمام هجماتهم .

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ١٥٨ .
(٢) أبو يوسف، الخراج، ١٦١ .
(٣) المسعودى، مروج الذهب، ج ٢، ٣٧٧ .

في فترة الامارة طلب معاوية من الخليفة عمر أن يبدأ بغزو البحر لكن عمرا رفض طلبه ، وذلك حرصا على عدم اقحام المسلمين في خوض تجربة خطرة ليس لهم فيها خبرة سابقة [1] ، وفي خلافة عثمان جدّد معاوية ابداء رغبته في ركوب البحر ، وتمكن من غزو جزيرتي قبرص وورودس ، وأقام فيها المسلمون فترة طويلة ، وأصبح المسلمون بعد ذلك منافسين أكفاء للروم في البحر ، وبدأوا يناقسون أكبر قوة بحرية في البحر الأبيض المتوسط .

وقد بنيت دور الصناعة في المدن البحرية التي توفرت فيها الموانئ والامكانيات المادية من الخشب والمعادن والعتاد ، واستعان معاوية بخبرات السكان السوريين الذين لهم خبرة واسعة في البحرية ، اضافة الى استضافته عددا من الفرس لنفس الغرض [2] ، وبذلك يكون معاوية صاحب فضل وسابقة في مجال التنظيمات العسكرية في البحر والبر ، وأعطى دفعة جديدة للقوة الاسلامية المتنامية [3] .

---

(١) الطبرى ، التاريخ ، ج ٤ ، ٢٥٦ .

(٢) أنظر موقف معاوية من الأقليات في الفصل الثاني .

3) G.S.Col en. and Cl.Cohen Art. 'Dàr Al-sinàa' Encycl. of Islam Second Edition .Vol.II.p.p. 129.

جـ . التدابير المالية في خلافـــة معاويـــــــة

يشار ابتداء الى ان النظم المالية الاسلامية لم تكن وليدة فترة زمنيـــة محدودة وهي في ذلك شأنها شأن مختلف النظم الاسلامية الاخرى ، والـــتي كانت بذرتها الاولى قد زرعت منذ ولادة الدولة الاسلامية ثم تطورت مع الزمن وفق الحاجات العمليه والظروف المحيطة بها . ويشار ايضا الى ان العرب استفادوا من النظم المتبعة في المناطق المفتوحة لسببين رئيسيين أولهما صعوبة تطبيق أنظمة جديدة لافتقار العرب لمثل هذه الانظمة ، والسبب الثاني ان اهالـــي المناطق المفتوحة الذى يصعب ان تطبق عليهم انظمة جديدة . لكي لا يشعـــروا بتغيّر جذرى يؤثر على مختلف حياتهم . مما يؤخر عملية انسجامهم وخضوعهـــم للدولة الجديدة التي لم تأتهم غازية لمجرد الغزو وانما جاءت تحمـــــــل رسالـــة الاســـلام .

وفي خلافة معاوية اتسعت الدولة واصبحت بحاجة الى كميات كبيرة مـــن الاموال نظرا لتوغل المسلمين الى اواسط آسيا شرقا ،واتجاههم غربا الى مشارف المحيط الاطلسي ،وكثرت حروبهم مع بزنطة بالاضافة الى محاولات فتح القسطنطينية مما شكل ضغطا كبيرا على بيت مال الدولة الاسلامية .

وبلاد الشام اذا ما قورنت بغيرها من المناطق المفتوحة ،فان معظـــم سكانها كانوا من القبائل العربية التي هاجرت اليها وعاشت فيها قبل الفتـــح الاسلامي ،وقد استضافت بعض هذه القبائل الفاتحين وسهلت لهم عملية الفتـــح ، مما سهل طبيعة التعامل الاقتصادى بين الطرفين .

والمعلومات عن التدابير المالية في الشام قليلة اذا ما استثنينا الاشارات الواردة عن ايـــام الفتح الاولـــى التـــي تحـــدد مقدار ما فرضـــه المسلمـــون

على المدن من أموال (١) كما ان المصادر لا تزودنا بمعلومات تفصيلية عن طبيعة توزيع هذه الاموال وطرق جبايتها . بينما في العراق فالمعلومات اكثر نسبيا ، نظرا لما كان للاموال والارزاق والارض ورفي مجريات الاحداث. بالاضافة الى كثرة المشاكل والفتن التي نجمت فن النواحي الاقتصادية نظرا لكثرة القبائل المهاجرة هناك وروادفها التي لحقت بها فيما بعد . هذه المشاكل والاحداث دفعت المؤرخين والرواة لاعطاء معلومات اكثر نسبيا عن المعلومات الواردة عن بلاد الشام.

ففي خلافة عمر وهي فترة الاستقرار الاداري ، التي اتيح للعرب فيها ترتيب امورهم في كل من العراق والشام. نجد بعض الروايات عن واردات الدولة المالية ، وهذه الواردات تشمل ضريبتي الجزية والخراج والزكاة بالاضافة الى واردات اخرى غير منظورة ، وهي ما يكسبه الفاتحون من الغنائم والارزاق في جبهات القتال .

ولا بد من القاء نظرة على الوضع الاقتصادي في بلاد الشام قبل خلافة معاوية، وتفيدنا في هذا المجال كتب الاموال والخراج بشكل خاص ، وتجمع هذه المصادر ان ابا عبيدة وأمراءه الذين اوكل اليهم فتح الشام ، فرضوا ضرائبا على اهل المدن بعقود صلح منفرده مع كل مدينة على حدة ، والظاهره المشتركة في هذه العقود هي انها كانت على طاقة اهل المدن (٢) وهذا الامر يتفق مع المنطق الاسلامي الذى جعل من فتح المسلمين لتلك البلاد فتحا يختلف عن الغزو الذى شهدته هذه المناطق من قبل من معاناة الدمار

1) Cohen. Art. 'Dariba' Encycl. of Islam. Second Edition. Vol. II .p.p. 142-143.

٢) ابو يوسف ، الخراج ، ٤٢/ ٤٤ .

الذى يتركه هؤلاء الغزاة . (١)

ويستشف من روايات الفتح الاولى المرونة الواضحه في التعامل المالي حسب قدرة المكلفين ، ثم ان العرب ابتداء لم يتعاملوا ماديا الا مع اهل المدن وترك اهل الريف (٢) الى فترات لاحقة ، كما ان العرب لم يفرضوا ضربا من ضروب العبودية على السكان مما ادى الى تحسين اوضاعهم بشكل فاق ما كانوا عليه قبل الفتح ، نظرا للانظمة البزنطية في مجال الجباية والتي كانت متبعة سابقا .

وفي خلافة عمر نجد وضوحا نسبيا في تحديد الضرائب وانواعها بالاضافة الى الاعطيات ، فنجد رواية مفادها ان عمر ضرب الجزية على اهل الذهب وهم السكان الذين كانوا خاضعين لبزنطة في الشام ومصر مبلغ أربعة دنانير وفرض على اهل الورق - وهم السكان الذين كانوا خاضعين للدولة الساسانية والورق هو الفضة - أربعين درهما ، ومع هذه الضرائب اقتضت الحاجة ان تفرض ضيافة المسلمين الجنود لمدة ثلاثة ايام مع اعطائهم ما يلزم من الرزق ، ومقدارها من الحنطة مدين ومن الزيت ثلاثة اقساط لكل انسان كل شهر . (٣) وترد رواية مشابهه في كتاب الفتوح للبلاذرى وبها زيادة على الرزق كمية من العسل وتفترض الرواية ان دافعي الضريبة فقط هم من الرجال واعمارهم فوق سن

---

١) ابو عبيدة ، الاموال ، ٥٧ .

٢) ابو يوسف ، الخراج ، ٤٣ .

٣) ابو عبيدة ، الاموال ، ٥٥ .

البلـــوغ . (١) ولكن هذه الروايات لا تفرق بين الجزية والخراج وهما ضريبتي الرؤوس والارض .

وقد كانت الضريبة في الجزيرة الفراتية تختلف فكان الشخص يدفع دينارا ومدين من القمح وقسطين من الزيت وقسطين من الخل . (٢) ويشار الى ضريبة الارض كضريبة مستقلة عن الجزية . (٣)

وقد يفسر عدم التمايز بين ضريبتي الارض والرؤوس بسبب نوعية الارض في بلاد الشام فهي في معظمها تعتمد على ماء السماء ، في الري ، لذا فان ناتجها ليس ثابتا ، بينما كانت ارض العراق مثارا لجدل طويل أثار المشاكل امام الخليفة عمر مما دفعه اخيرا الى اقرار جميع الاراضي المفتوحة في ايدي اهلها لاسباب اقتصادية تتعلق بانتاج الارض واسباب استراتيجية . كما ان القارئ يلمس وجود مشكلة بالنسبة لارض العراق بينما لا يجد مثيلا لذلك في الشام أما بالنسبة للعطاء في الشام فهو ينسحب على اجراءات عمر بن الخطاب في الديوان ، حيث فرض العطاء على اسس عديدة هي القرابة من الرسول والسابقة في الاسلام والبلاء في القتال ، فقد فرض عمر للبدريين من المهاجرين الاولين خمسة آلاف درهم في كل سنة وفرض للبدريين من الانصار اربعة الاف درهم ، وفرض لكل مهاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم وفرض لمن اسلم بعد الفتح الفي درهم لكل رجل ، ولابناء المهاجرين والانصار مثلهم ثم فرض للناس على منازلهم ومن ضمنهم قبائل

---

١) البلاذري ، الفتوح ، ١٢٥ ، ١٥٢ .
٢) ابو يوسف ، الخراج ، ٤٤/٤٥ .
٣) البلاذري ، الفتوح ، ١٧٣ .

الشام والعراق من قيس ويمن لكل رجل منهم الفين الى الف الى خمسمايـــة الى ثلاثمايـــة . (١)

كما ان الارض الشامية خضعت لاجزاء عمر في ابقائها بأيدى اصحابهـا ، وقد سكن العرب الفاتحون في المناطق المجاورة للمدن ، ونظرا لان الشام كانت تتمتع باستقرار عسكرى نتيجة لتوقف الفتح في الجبهة الشمالية ، فان المنطقـة لم تشهد تغيرات او ضغوط سكانية ، وبالتالي كانت اعداد السكان شبه مستقرة ، وانعكس ذلك على الحياة في بلاد الشام فلم تكن مسرحا للمنازعات والفتن الـتي كانت دوافعها في الغالب اقتصادية او اجتماعية كما حدث في العراق .

وقد كانت الارض تعامل حسب طريقة فتحها ، فمنها اراضي الصلح ومنهـا اراضي فتحت عنوة ، وكانت معظم المدن قد فتحت عنوة ، وبعد الفتح وضعت عقـود تنظم العلاقة بين المسلمين وسكان المدن المفتوحة (٢) وقد وجد ان الارض كانت على عدة انواع هي ارض الخراج التي تدفع ضريبة معينة ثم هناك اراضي هرب اصحابها بعد الفتح ، والارض الموات ، بالاضافة الى املاك الحكام السابقين مـن البزنطيين والتي اطلق عليها اسم الصوافي واصبحت حقا في يد الخليفـة ليمنحها لمن يشاء وفق ما يحقق مصلحة للدولة ، اما ارض الموات فهي ملـك لمن يستصلحهـا . (٣)

وبعد تولي معاوية للخلافة اصبحت الاموال على مختلف اشكالها مـن

---

١) أبو عبيدة ، الاموال ، ٢٠٠ / ٢٢٣ ، الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ٢٠٠ / ٢٠١ .

٢) أبو عبيدة ، الاموال ، ١٤٦ / ١٤٨ .

٣) محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية ، ١٦٥ .

نقود أو أراضي أو عروض وسلع ، تلعب دورا هاما واساسيا في مختلف الميادين خاصة وان الدولة بزعامة الخليفة الجديد انتهجت سياسة عملية واقعية كما ان اتساع حدود الدولة أدى الى زيادة متطلباتها من الاموال .

وتفيد بعض الروايات بأن معاوية في سياسته الماليه لم يجر أيه تعديلات مباشرة على الانظمة التي وجدها سارية في بلاد الشام وخارجها . (١) ولكن الاجراءات التي سيتناولها البحث كانت في سنوات لاحقة من تولية الخلافة ، وقد وضعها لخدمة سياسته العامة التي بدأت تتبلور مع مرور الوقت .

كان اقتصاد بلاد الشام لم يكن قويا اذا ما قورنت بغيرها من البلاد الاخرى ، ولم تكن واردات بلاد الشام الزراعية لتشكل ركيزة كبيرة او هامة في اقتصاد الدولة ، مما دفع معاوية الى الاستعانة بالولايات الاخرى لبناء اقتصاد دولته عامة وبلاد الشام خاصة ، نظرا لكون هذه البلاد ركيزته في الحكم وسنده في الملمات . (٢)

وقد كانت صلاحيات الخليفة واسعة ولم تكن لتحدها حدود او تقف امامها عقبات في سبيل رفع شأن دولته من الناحية المالية . خاصة وان الواردات المعهودة لم تعد تكفي ، وذلك بسبب ما انفق من اموال طائلة في عهد الفتنة وما تلاها من استرضاء ابناء علي واقرباءه بالاموال .

وقد حاول معاوية ازاء ذلك ان يعيد النظر في السياسة المالية لدولته من حيث موارد هذه الاموال وابرزها الضرائب الموروثه من عهد الخلافة الراشدة لكنه اصطدم بوجود عهود ومواثيق تعود الى ايام الفتح الاولى ، فلم

---

١) البلاذري ، الفتوح ، ١٧٣ .

٢) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٨٩ / ١٩٠ ، اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢١٨ .

يكن يستطيع تخطيها لرفع المبالغ المفروضة على سكان مصر او العراق او المشرق الاسلامي .

ومن نماذج اصطدام معاوية بالواقع الضريبي ، انه كتب الى عامله على خراج مصر ويدعى وردان أن يزيد ضريبة رؤوس الاقباط هناك ، فرد عليه وردان بانه لا يستطيع ذلك لأن في عهودهم ما يمنع ان يزاد عليهم . (١) ونستطيع من خلال هذا الوضع ان العهود والمواثيق كانت مفتوحة الاجل ، وقد ظلت قائمة ومحترمة حتى خلافة معاوية ، كما ان رفض عامله وردان الامتثال الى أمره يدعونا وبدون مجال للشك في ان معاوية اعتمد في حكمه على اللامركزية . (٢)

وفي الوقت الذى كان الخليفة فيه جادا في البحث موارد جديده للدولة لم يتورّع عن الانفاق لخدمة اغراضه السياسية ، فقد عمل على اسقاط الضريبة الاضافية المفروضة على اهل قرية (الجفن) وهي في صعيد مصر ، ومنها مارية القيطبة زوجة الرسول الكريم ، ولم يفرض عليهم ضريبة جديدة بدلا من اعفائهم من ضريبة العشر . (٣)

ومن خصائص الضرائب في عهده ان سمح للولاة والعمال في التصرف في شؤون الجباية ، الامر الذى يفسر تشددهم على المكلفين وتعسفهم في الجباية . (٤) وقد أثرت اللامركزية في الحكم بحيث اصبح الولاة يشعرون بنوع من الحرية والاستقلال وقد أدى ذلك الشعور الى عدم الالتزام بارسال مخصصات

---

١) ابو عبيد ، الاموال ، ٢١٢ ، محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية ، ١٦٤ ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ٨٦ .

٢) ابو عبيد ، الاموال ، ٢١٢ محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية ، ١٦٤ .

٣) ابو عبيد ، الاموال ، ١٣٥/١٣٤ ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ٥٢ .

٤) البلاذرى ، الانساب ، ق١ ، ج٤ ، ٦٥ .

المركز من الجباية بحجة حاجة البلاد والولايات التي جبيت منها هذه الاموال اليها . (١)

ويشار ايضا الى ان الضرائب التقليدية المعروفة (الجزية والخراج) قد بدأتا تقلان مع مرور الزمن نظرا لتحول مساحات كبيرة من الاراضي من ضريبة الخراج الى العشر بسبب تحول ملكيتها الى المسلمين ، (٢) كما ان عددا كبيرا من دافعي الجزية قد اسلموا واصبحوا يدفعون الزكاة الامر الذى ادى الى ضائقة ماليه تفاقمت مع مرور الزمن .

وهذا ما أشار اليه ابو عبيد في كتاب الاموال بقوله : " أفلا تروون ان هذه الاحاديث قد تتابعت عن أئمة الهدى باسقاط الجزية عمن اسلم ، ولم ينظروا في اول السنة كان ذلك ولا في آخرها ، فهو عندنا ان الاسلام اهدر ما كان قبله ، وانما احتاج الناس الى هذه الآثار في زمان بني امية ، لانه يروى عنهم او عن بعضهم انهم كانوا يأخذونها منهم وقد اسلموا ، يذهبون الى ان الجزية بمنزلة الضرائب على العبيد ، يقولون : فلا يسقط اسلام العبد عنه ضريبة ، ولهذا استجاز من استجاز من القراء الخروج عليهم " . (٣)

والمعلومات المتوفرة عن اموال الضرائب في بلاد الشام ، لا تعدو الاشارات العابرة فيذكر اليعقوبي في تاريخه ان خراج فلسطين كان ٤٥٠ ألف دينار ، وخراج الاردن ١٨٠ ألف دينار ، وخراج دمشق ٤٥٠ ألف دينار ، وخراج حمص

---

١) اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢٣٤ .

٢) الدورى ، النظم الاسلامية ، ج ١ ، ١٧٦ .

٣) ابو عبيد ، الاموال ، ٦٨ .

٣٥٠ ألف دينار . وقنسرين والعواصم الشمالية ٤٥٠ ألف دينار والجزيرة ٥٥ ألف دينار . بينما كان خراج السواد مثلا مائة الف الف درهم وعشرين الف الف . وفارس كان خراجها ٧٠ ألف الف والاهواز اربعين الف الف والري ثلاثين الف الف واذربيجان ٣٠ ألف الف . (١)

التفت معاوية ابتداء الى ارض الصوافي وامر عماله ان يحصروها ويحددوا ناتجها ، واستصفاها لنفسه ، كمورد جيد لخدمة اغراضه الخاصة واغراض الدولة عامة وقد استعمل جزءا من هذه الصوافي لاغراض القطائع لاقربائه ومعارفه . وكان نتاج الصوافي يحمل اليه سنويا وكانت غلاتها كثيرة بلغت في احدى السنين في العراق فقط مائة الف الف درهم . (٢)

ووجد معاوية انه لا بد من ايجاد مصادر جديدة لواردات الدولة منها مثلا اعاد فرض هدايا النيروز والمهرجان والتي كانت تقاليد فارسية قديمة ، وباحياء هذه الاحتفالات بلغت هداياه في احدى السنوات ١٠ آلاف ألف درهم . (٣)
ويشار الى نوع آخر من التعامل في الكوفة ولم نجد له مثيلا في الروايات في مناطق اخرى . وهو ان يدفع الرجل مالا مقابل عدم خروجه الى القتال فقد ضرب معاوية بعثا على اهل الكوفة ، فلم يقبل جرير بن عبد الله واحد ابنائه المشاركة في البعث وقالا : يجعل في اموالنا للغازي . (٤)

---

١) اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢٣٣/٢٣٤ .
٢) المصدر السابق ، ٢٣٤ .
٣) ابو يوسف ، الخراج ، ٢٣/٢٤ ، اليعقوبي التاريخ ، ج ٢ ، ٢١٨ .
٤) الشيباني ، شرح كتاب السير ، ١٣٩ .

وادخل الخليفة اسلوبا جديدا في تحصيل الزكاة من المسلمين ، وذلك بأن يقطعها من اعطياتهم قبل استلامهم لها . (١) وهو بذلك يضمن سيولة نقدية قوية على مدار السنة كما انه يضمن عدم التهرب من الالتزام بالزكاة .

ولا شك ان للتجارة دورا كبيرا في اقتصاد الدولة ، فقد عمد الخليفة الى ترويج بضائع يحرمها الشرع الاسلامي في بلاد اخرى لا تحرم فيها كالهند لتباع هناك باسعار غالية لصالح الدولة الاسلامية . وليس هذا الا دليل على مدى النشاط التجارى للدولة على نطاق خارجي ، والذى يشكل رافدا قويا لاقتصاد الدولة . (٢)

وقد ساهم الخليفة في تشجيع استصلاح الارض وبناء القنوات لزيادة ناتج الاراضي خاصة في العراق . فقد استطاع في منطقة البطائح بين الكوفة والبصرة من استصلاح مساحة من الارض كانت مغمورة بالماء فكانت غلتها ٥ آلاف درهم في احدى السنوات ، (٣) وكذلك الامر في مصر فبنى مقياسا يحدد فيه منسوب نهر النيل لدرء اخطار الفيضان ، (٤) ولزيادة الناتج في الاراضي المروية .

في الوقت الذى يستطيع الباحث ان يجد ارقاما حول ضريبة الخراج (٥) لا يجد بالمقابل ارقاما عن مبالغ اموال الجزية ومقاديرها ، وهذا التدخل والغموض قد يفسر اذا جاز هذا التفسير بان الاموال المحصلة من الناس كانت حصيلة الضريبتين معا ، وقد يكون ما فيها من الغلات العينية دليلا على ما يدفع عن

---

١) اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢٣٢ ، انظر الدورى ، النظم الاسلامية ، ج ١ ، ١٤٤
٢) الشيباني ، شرح كتاب السير ، ج ٣ ، ١٠٥١
٣) البلاذرى ، الفتوح ، ق ٤ ، ٩٩٤ ، الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ٢٤٠
٤) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٣ ، ٢٩٤
٥) اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ٢٣٣ / ٢٣٤

الارض بينما النقود تدفع عن الرؤوس. والتمايز بين الضريبتين قد نجده في مناطق اخرى غير بلاد الشام، ويأتي اكثر وضوحا في الفترات المتأخرة.

كانت تلك هي موارد الدولة ، وبالمقابل فان هناك مصاريفا مختلفة هي اعطيات الجند والموظفين في الدولة. بالاضافة الى تجهيز الحملات الداخلية والخارجية بالسلاح والمال . كما ان هناك مصاريفا تدفع على مشاريع الخدمات التي تعملها الدولة في مجالات مختلفة. هذا من جهة ومن جهة اخرى ان سياسة معاوية المالية والتي شكلت عبئا كبيرا على بيت المال ، لها مبرراتها في ترسيخ خلافته وتقوية دعائم دولته، وذلك بتقريب الشاميين من حوله بالاضافة الى اسكات عدد كبير من المنافسين بالاموال ، كما ان القارئ يجد ان عددا من ولاة وعمال معاوية ، انتهجوا نهجه في الاشراف على اعمالهم وامصارهم مما يعود بنا الى توكيد لا مركزية الحكم في خلافته. وسيعرض البحث فيما يلي للنواحي التطبيقية لمصروفات الدولة في هذه الفترة في بلاد الشام.

لقد أرسى عمر بن الخطاب قواعد الديوان (١) ، الذى ينظم فيه اعطيات المقاتلة على اسس معروفة أشير اليها سابقا ، وظلت هذه القواعد سارية المفعول الى فترة متأخرة نسبيا ، وقد ادت هذه الاسس الى وجود تباين في الثراء بين المسلمين مما ادى الى حدوث مشاكل مالية واقتصادية انعكست على المجتمع الاسلامي سياسيا وعسكريا .

فقد أثرت الطبقة الاولى من المسلمين ثراء كبيرا نظرا لغزارة الموارد المالية في بداية الفتح ، بالاضافة الى قلة عدد المشاركين في القتال نسبيا . لكن الامر يختلف حين بدأت القبائل المهاجره تغادر الجزيرة العربية باتجاه

---

1) Cl. Cohen .Art. 'Atà ' Encycl. of Isalm .Second Edition. Vol. I. p.p. 729-730.

جبهات القتال ،فزادت الاعداد وبات المشاركون في القتال يأخذون قدرا يسيرا اذا ما قورنت باعطيات كبار الصحابة والفاتحين الأول .

ويمكن تفسير الثورة التي قامت ضد عثمان من هذا المنطلق ،اضافة الى السبب المباشر وهو سياسة عثمان المالية والادارية في اقربائه الامويين ويشار في هذا المجال الى الاموال في بداية الحرب بين علي ومعاوية لعبت دورا كبيرا في النتيجة التي ادت الى تفكك جبهة علي وتماسك جبهة معاوية ،نظرا لان عليا التزم قاعدة ثابتة في العطاء لم تتغير ،بينما اغدق معاوية اعطيات انصاره ليظلوا حوله بقوة وتكاتف ،كما ان معاوية جعل من الدوافع الاقتصادية حافزا آخر يحض فيه اهل الشام على القتال ،لان انتصار الشام يعني هيمنته على باقي المناطق سياسيا واقتصاديا . (١)

ويمكن القول بان سياسة الاغراء بالمال لعبت دورا اساسيا وحاسما في الصراع بين الطرفين في الوقت الذى اعتبر فيه معاوية المال وسيلة لتحقيق اهدافه بينما كان عليا يعتبر فيه المال من حق الامة ،ولا يجوز التفريط به الا في وجوهه المشروعة ،ووفق امور الدين والدولة .

وتعرض علي لضغوط عدد من انصاره في سبيل اعطاء الاموال لشيعته وطلبوا ان يفضل الاشراف من العرب وقريش في اعطياتهم على غيرهم قياسا على ما كان يفعله معاويه ،لكنه رفض ذلك . (٢)

---

١) انظر ما يتعلق بعلاقة معاوية بأهل الشام ،الذهبي ،سير اعلام النبلاء ، ج ٣ ، ١٠٣ ،

٢) مؤلف مجهول ،الامامة والسياسة ، ١٦١ .

وتطبيقا للمبدأ القائل ان الخلافة قدر من الله لمعاوية ،فان الحق في التصرف في جميع شؤون الدوله بما فيها النواحي المالية ،فكانت صلاحياته واسعه ويعتبر ان كل ما في الدولة ملك له ،وله الحق في تصريف هذا الملك حسبما يريد على الرعية. وهذا ما تؤيده التدابير الماليه في خلافته. (١) كما ان الباحث يلاحظ ان ارتباط عمال الجباية كان مباشرا مع المركز ،وليس للولاة عليهم سلطة وهذا ما يعرض له البحث في مجال الحديث عن الدواوين.

ويمكن القول ان ولاته وعماله اعتبروا توليهم للوظائف الموكله اليهم تفويضا من معاوية للتصرف ،واعطاهم معاوية صلاحيات واسعة تؤكد ذلك. وكان كل منهم يجعل من نفسه في كل اجراء وتصرف لسان حال لمعاوية في ادارته على الرغم من ان عددا منهم استغل منصبه لاغراض شخصية. ومن امثلة ذلك واليه زياد حيث ولّى احد افراد البيت الاموى في السوس فاصاب ولاية خمسمائة الف درهم فاخذ منه زياد النصف وسوّغ له النصف الاخر. (٢) وقد شارك معظم الولاة زيادا في ذلك التصرف.

وسيّر الخليفة سياسة ماليه من خلال عماله لكي يكسب رضى العامة ، فقد تركزت الاخبار حول زياد في العراق حيث كان يغدّى الناس ويعشيهم من نتاج الف ناقة له ،وكان ينثر التمر على الانطاع ويخلطه باللبن ثم اذا جاء وقت الظهر يغديهم وبعد العصر يعشيهم برفقة الصحابة والشرطة والمقاتلين وكان ذلك في الكوفة والبصرة فاذا حضر زياد احدى الوجبات في احدى البلدين

---

١) ابو عبيد ،الاموال ،٣٥٧.

٢) البلاذرى ،الانساب،ق١ ،ج٤ ،١٧٤/١٧٥.

ناب عنه عماله في البلد الآخر (١) في القيام بهذه الواجبات هناك .

ولم يكن العطاء يقتصر على الاموال فقط وانما شمل عروضا اخرى من الارزاق ،كما ان هناك اعطيات موسمية في الاعياد كالفطر والاضحى التي بلغت خمسين درهما للفرد وتخصص لكل ولد من اولاد المقاتله مائة درهم شهريا . (٢)

وأدرك الخليفة وعماله العبء الكبير الذى شكله الروادف على بيت المال فحاول زياد بن ابي سفيان ان يحل مشكلة القبائل المهاجرة عن طريق اقتسام العطاء بين القادمين الجدد والمقيمين ،أو ان تكفي كل قبيلة او عشيرة مثيلتها من الروادف. فتمكن من تدبير ذلك على الطريقتين السالفتين ،فبعضهم تكفل باقربائه من الروادف ،واقتسم بعضهم الآخر الاعطيات . (٣)

ويصرف العطاء من بيت المال شهريا بالاضافة الى ما يحتويه من أرزاق . والنموذج الواضح في الادارة المالية ما يرد عن بيت مال زياد بن ابي سفيان في العراق ،فكان يجني من كور البصرة ٦٠ ألف الف درهم فيوزع على المقاتلة ٣٦ ألف الف ويعطي الذرية ١٦ ألف الف وللاداريين والموظفين ومراسم الامارة يصرف مبلغ الفي الف درهم ،ويخصص قسم من الاموال قيمته الفي الف درهم للطوارئ . ثم يرسل ٤ آلاف الف الى معاوية في دمشق . وكان زياد يجني من الكوفة ٤٠ ألف الف درهم ويرسل منه ثلثي ما يرسله من جباية البصرة

---

١) البلاذرى ،الانساب ،ق١ ،ج٤ ،٢١٠

٢) المصدر السابق ،٢٠٦

٣) المصدر السابق ،٢٠٦

الى معاويـة . (١)

وقد فرض معاوية العطاء لابناء من كانوا يستشهدون في المعارك ، ولا شك أن في ذلك نوعا من التعزيز ودعم معنويات المقاتلين ،فهم يجدون ضمانا لابنائهم بعد موتهم . (٢) كما ان الغنائم كانت تغدق على المقاتلين تشجيعا لهم في القتال ولتحسين اوضاعهم الاقتصادية . (٣) وفرض الاعطيات للاطفال بعد الفطام ومقدارها عشرة دراهم . (٤) ويشار ان ديوان معاوية كان يحوى سجلات لاربعين الفا من المقاتلين . (٥) وكان من بينهم اربعة آلاف يأخذون مائتين مائتين .

واستنادا الى المبادىء الاسلامية فان الاعطيات كانت تصرف من جباية الجزية والخراج ،بينما كانت الزكاة تخصص للفقراء والمساكين وابناء السبيل في المناطق التي تجبى منها ،وينقل ما يزيد عن الحاجة الى بيت المال المركزى في دمشق . ويدلنا على ذلك موقف الناس عند ما اراد معاوية ان يصرف لهم جزء من عطائهم من اموال الصدقة في اليمن ،فرفضوا وابوا ان يأخذوا حق أناس غيرهم . (٦)

---

١) المصدر السابق، ١٨٩/١٩٠ .
٢) المسعودى ،مروج الذهب، ٣ ،ابن عبد الحكم ،فتوح مصر، ١٠٢
٣) الشيباني ،شرح كتاب السير، ج ٣، ١٠٥١
٤) البلاذرى الفتوح ، ٤٥٩ ،ابو عبيد ،الاموال ، ٣٤٢
٥) ابن عبد الحكم ،فتوح مصر ١٠٢
٦) ابو عبيد ،الاموال، ٣٦٨/٣٦٩ .

وبالاضافة الى الاعطيات الدورية للمقاتلين فهناك اموالا تنفق في المهمات الخاصة التي يوكل فيها الخليفة جيشا لاداء مهمة عسكرية ، ومن امثلة ذلك حينما ارسل جنادة بن امية الازدي لفتح جزيرة رودس فاغدق العطاء لهم ونزلوها واعترضوا الروم في البحر طيلة خلافته ولما توفي اعادهم يزيد . (١)

وتوجد نفقات من نوع آخر وهي هبات معاوية للشخصيات السياسية والعسكرية واصحاب الشعر والادب ، وكثرت هذه الهبات في السنوات الاولى من خلافته ليضمن ولاء اكبر فئة من الناس في دولته ، خاصة الشخصيات التي كانت في كنف خصمه علي . وقد قسم معاوية الخمس من الغنائم بين بني العباس اضافة الى الهبات التي تمكن بواسطتها شراء طاعتهم بعد موت علي . (٢)

وحادثة اخرى من هذا القبيل هي ان معاوية استنشد احد القيسيين شعرا فأنشده ابياتا اعجبته ، فسأله عن عطائه فعلم انه سبعمائة فجعله الفا . (٣)

وقد اضطر معاوية واداريوه من العمال والولاة الى دفع نفقات اخرى في سبيل استثمار بعض المشاريع ، نظرا لزيادة الحاجة الى الاموال لانها اصبحت عصب الحياة السياسية والعسكرية في الدولة ، فعمد معاوية الى استصلاح اجزاء

---

١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٣ ، ٤٩٣ .
٢) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ق ١ ، ٢٨٩ .
٣) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٣ ، ١٠١ .

من اراضي العراق ومصر (١) كما انه انفق اموالا في سبيل بعض المشاريع لخدمة الحجاج في موسم الحج في الحجاز، خاصة في سبيل تأمين المياه للشرب. (٢)

ولم يغب عن بال الخليفة التطلع الى البحر لقهر الاستراتيجية العسكرية البزنطية فعمد الى بناء دار لصناعة السفن في عكا سنة ٤٩هـ فجمع لها الفنيين على اختلاف اجناسهم وهيأ لهم الامكانيات لبناء اسطول اسلامي قوى اصبح الخطر الاكبر بالنسبة للروم في البحر الابيض المتوسط. (٣)

ولو حاولنا الخوض في غمار سياسته المالية لوجدنا انها سياسة مرنة الى ابعد الحدود . اضافة الى كونها سياسة عملية واقعية ولم تكن مقننة اومبرمجة وتتكيف بما يتوافق والظروف المتغيرة وتتطور هذه السياسة بالقدر الذى تؤدى فيه خدمة للخليفة اولد ولته ، فقد اشترى طاعة الحسن بن علي رغم وقوف العراقيين الى جانبه بان اعطاه من بيت مال الكوفة خمسة آلاف الف واشياء اخرى اشترطها الحسن . (٤)

---

1) H.E.Elissieff. Art.' Dinishk ' Encycl. of Islam . Second Edition. Vol. II. p.p. 280.

٢) الواقدى ، المغازى ، ج ١ ، ٢٦٧ ، الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ٣ ، ١٢٧ .

٣) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ١٧٢/ ١٧٣ .

٤) الطبرى ، التاريخ ، ج٥ ، ١٥٩/ ١٦٠ . الديار بكرى ، تاريخ الخميس ، ج ٢ ، ٣٢٤ .

وضمن الخليفة بواسطة الاموال التحالف مع شخصية من اكبر منافسية سرا وعلنا وهو عمرو بن العاص الذى لعب دورا كبيرا في الاحداث التي ادت الى وصول معاوية الى ما وصل اليه من القوة، مقابل اعطائه ولاية مصر طيلة حياته. (١) كما انه تمكن من اخماد حرارة النقمة التي تولدت في نفس مالك بن هبيرة السكوني حين قتل معاوية حجرا واصحابه فارضاه بمائة الف درهم.

ومن خصائص ادارته الماليه الحزم مع عمال الاموال نظرا لاهميتها بالنسبة للدولة. وتظهر احدى الروايات اعتماده على الدهاقين في الجباية يساعد في تسهيل عملهم بين الناس من حولهم، كما انهم لا يكسرون الاموال خوفا من العقاب وهم بذلك عكس العمال العرب، الذين كانوا يشعرون بحقهم في هذه الاموال على اختلاف انواعها (٢) كما انهم يشكلون وحدات سياسية قوية ممثلة بقبائلهم التي تستطيع تقديم الحماية لهم من عقوبة الدولة - كما ان مطالبة الدهاقين أكثر سهولة من مطالبة العرب، نظرا لانهم غلبوا على امرهم اضافة الى انهم من اصحاب الخبرة السابقة في تحصيل الضرائب. ونستشف ايضا اصرار معاوية على ضمان وصول هذه الاموال الى بيت المال في دمشق.

ومن امثلة التعامل بين الخليفة وعمال الاموال، تجربته مع سعيد بن العاص في المدينة فقد صادفت احدى سنوات القحط فصرف جميع اموال بيت المال على الناس واستدان عليها اموالا اخرى وعلم معاوية بالامر فغضب وعزله فكان مجموع ما استدان ثلاثة الاف الف درهم فاشترى معاوية منه بعض العقارات لكي يسدد الديون. (٣)

---

١) الذهبي، دولة الاسلام، ج ١، ٣٣.

٢) البلاذري، الانساب، ج ٤، ق ٢، ١٠٩١، اليعقوبي، التاريخ، ج ٢، ٢٢٣.

٣) ابن عساكر، التاريخ الكبير، ج ٦، ١٤٣/١٤٥.

وحاول معاوية ان يتحلل من التزامه مع عمرو بن العاص تجاه خراج مصر لكي يستعين به في ادارة شؤون الدولة لكن عمرو رفض وعاد يذكره بمواقفه الى جانبه في ايام صفين . (١)

وكانت الاموال والهبات في خلافته وسيلة للتأديب مثلما هي وسيلة للترغيب فقد قطع معاوية صلة الحسين بن علي التي عوده اياها ، وذلك بسبب اظهاره بعض النوايا السيئة لمعاوية وللامويين من خلفه ، مما دفع الاخير للعودة الى اعلان طاعته والعودة من مواقفه المناوئه ، واضطر نتيجة لقطع صلة معاوية ان يتقاسم الهبة التي منحها معاوية لعبد الله بن العباس مناصفة . (٢)

وبالمقابل فان الاموال كثيرا ما استعملت لتشجيع شخص ما على عمل شيء يريده الخليفة او لحفظ الولاء . وكثيرا ما كانت الشفاعة والواسطة وسيلة لرفع عطاء رجل ما . كما حدث للربيع بن خثيم الذى كان عطاؤه الخمسمائة درهم فكلم فيه معاوية فجعله الفين ووجد عند اسمه في سجل الديوان " كلم فيه يحيى بن طلحة امير المؤمنين فلحق بالفين" (٣)

وقد كان لبلاط معاوية نفقات باهظة كانت تأخذ من بيت المال ولم يكن ليتورع عن الاسراف على القصر ومن فيه من الموظفين والخدم والحشم ، وقد خصّص يزيد ابنه في احدى هباته الف درهم ومائتي ثوب ، (٤) وقد استن لنفسه

---

١) محمد حمادة ، الوثائق السياسية ، ١٦٣ .

٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ٣٤١ .

٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ٣١٨ .

٤) المصدر السابق ، ٣٧٢ .

حرية التصرف بخمس اموال الغنائم . (١)

وكانت الوحدات النقدية المستعملة في الدولة هي الدنانير الرومية والدراهم الفارسية . وكانت الدراهم تصنع من الفضة بينما كانت الدنانير ذهبية . وقد أقر الخلفاء الراشدون هذه النقود وظلت مستعملة الى ايام متأخرة من الخلافة الاموية . ولم يكن لهذه النقود وحدات منافسه . (٢)

ويوجد عدد من الروايات تفيد بان معاوية ضرب دنانيرا اسلامية ،لكن الآثار المكتشفة لم تؤيد ذلك بعد ،ويذكر ناصر النقشبندى (٣) ان معاوية اول من ضرب الدنانير الاسلامية . وقد سكت وعليها صورة له وهو متقلد اسيفا .،فوقع منها دينار ردىء بيد احد الجند فجاء الى الخليفة وقال يا معاوية انا وجدنا ضربك شر ضرب ،فقال له معاوية لا حرمنك عطائك ولا لبسنك القطيفة .

اما الاوزان المستعملة فهي القيراط وهو اصغرها والمثقال ويزن ٢٢قيراط والدرهم ويزن ٧ مثاقيل ،والوقية وتزن ٤٠ درهما والرطل ويزن ١٢ وقية (٤) . وقد كانت هذه الاوزان مستعملة قبلا في الجزيرة العربية في ايام الجاهلية واستمر استعمالها في الدولة الاسلامية .

ويشار في امور الاقتصاد والاسعار الى ان عمال معاوية كانوا على اتصال بالسوق ويعرفون الاسعار باستمرار للاطلاع على حالة الناس . (٥)

---

١) ابو عبيد ،الاموال ،٤٥٥/٤٥٦

٢) البلاذرى ،الفتوح ،٤٥٢ ،٤٦٦ .

٣) ناصر النقشبندى ،الدينار الاسلامي ،ج ١ ،٩ ،١٧ .

٤) البلاذرى ،الفتوح ،٤٦٦ .

٥) البلاذرى ،الانساب ،ق ١ ،ج ٤ ،١٨٦ .

واستفادت بلاد الشام من وضعها السياسي ، نظرا لان معاوية كفل لسكان هذه البلاد الدعم الاقتصادي في سبيل بقاء الشام والشاميين الى جانبه فكثرت مطالبات معاوية من عماله لتزويده باموال الخراج والجزية نظرا لتزايد مصاريف الدولة بشكل كبير وكثرة الوفادات على بلاطه من الشام وخارجها . (١) ويرد أن واردات منطقة دمشق من بيت المال بلغت اربعمائة الف دينار . (٢) وبذلك يكون الخليفة قد حقق وعوده للشام وللشاميين عند ما وعدهم بان انتصارهم على العراقيين انصار علي هو غنيمة كبرى تخدم اغراضا اقتصادية كثيرة .

واحتلت الاراضي في خلافته مكانة بارزة في اقتصاد الدولة ، فقد اتيح للعرب ان يشتغلوا بالزراعة ، فكانت الاراضي في بلاد الشام في معظمها تقع خارج المدن وعند ما تمت عملية الفتح ركز الفاتحون على المدن واحتلوها صلحا او عنوة ولكن اراضي الريف الزراعية لم تدخل في التعامل الا بعد الاستقرار .

فالتفت العرب الى اهمية الارض وغلاتها ، لكن عمر بن الخطاب كما ذكر سابقا أقرّ الارض بأيدي اصحابها لاغراض استراتيجية واقتصادية . ومع الزمن بدأت ملكية الارض تتحول تدريجيا الى العرب الفاتحين ، اما عن طريق الشراء او عن طريق احياء الموات منها . بالاضافة الى املاك الحكام البزنطيين التي تحولت الى املاك الدولة الاسلامية وسميت ارض الصوافي ، لانها حصرت واستصفاها معاوية لنفسه وتصرف فيها لخدمة اغراض سياسته العامة . كما ان العرب استولوا على الاراضي التي جلا عنها اصحابها . (٣)

---

١) محمد حمادة ، الوثائق السياسية ، ١٦٣ ، ١٦٥ .
٢) البلاذري ، الفتوح ، ٢٣٩ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، م ١ ، ٢٣٩ .
٣) البلاذري ، الفتوح ، ١٥٢ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢ ، ٥٩٥ .

وقد كانت الدولة تتقاضى ضريبة على الارض على نوعين : الاول وهو العشر ويدفع من قبل المسلمين على اراضيهم وتعتبر قسما من الزكاة . والنوع الثاني وهو ضريبة الخراج الذي لا نستطيع من خلال المعلومات المتوفرة معرفة تفاصيلها وتمييزها عن ضريبة الرؤوس المساة الجزية .

ولم تقتصر ملكيات معاوية على الاراضي الشامية ،فقد اشترى ضياعا في مناطق مختلفة من الحجاز والعراق ، وبنى قصورا ودورا في الحجاز خاصة في مكة ليقيم فيها اثناء الحج واعتمد في بنائها على بنائين من الفرس، واطلق عليها اسماء مميزة كالدار البيضاء والدار الرقطاء ودار الحمّام . (١)

وليس أدل على اهمية الاراضي واعتماد معاوية عليها الا انه كان يقطع في عهد امارته على الشام من هذه الاراضي ،تحت سمع وبصر الخليفة عمر ومن بعده عثمان ،ومن ذلك اقطاعه لعبد المطلب حين قدم اليه دارا في دمشق للاقامة فيها . (٢) وقد استثمر معاوية اراضيه في الحجاز عن طريق وكلاء له هناك . (٣)

ويلاحظ ان عطية اقطاع الخلفاء الذويهم ولغيرهم من الشخصيات البارزة كان ذا شأن كبير في العراق ،بينما لم يكن بالخ الاثر في حجمه في بلاد الشام فالامثلة على القطائع نادرة في هذه البلاد ،وقد يعود ذلك الى استقرار الملكيات

---

١) الاصفهاني ،الاغاني ،ج ٣، ٢٨١ .

٢) ابن عساكر ،تاريخ دمشق ،ج ٢، ١٣٩/ ١٤٠ .

٣) اليعقوبي ،مشاكلة الناس لزمانهم، ١٦/ ١٧ .

في خلافة معاوية ولم يعد هناك مساحات كبيرة من الاراضي لهذا الغرض، ولم يبق سوى مساحات بسيطة من الصوافي التي كان الخليفة يتصرف بها . (١)

وكان لا بد له من ايجاد مساحات اخرى لوضعها تحت تصرفه ، فعمد الى الاستيلاء على اراض هلك اهلها مثل املاك بني "فوقا" في الغوطة التي ماتوا عنها ولم يكن لهم وارث فصادرها ووضعها تحت تصرفة . (٢) كما انه صادر ايضا ارض الجماء قرب القصر وكانت ملكا لسعيد بن العاص . (٣) ويشار الى ان معظم القطائع التي اداها معاوية كانت دورا في الشام ولم تكن اراض مما يدل على قلة الاراضي واستقرار الملكيات. (٤)

وكان على معاوية ان يجرى عددا من القطائع خارج الشام في كل من الحجاز والعراق وغيرهما ، ومن ذلك اقطاعه منطقة "فدك" لمروان بن الحكم عامله على المدينة (٥) كما انه خول عماله لتدبر امورولا ياتهم بصلاحيات واسعة لحل الازمات ولتخفيف الضغط عن الشام بتقليل عدد الوافدين الى معاوية .

وتبدى الروايات ان الشخصيات البارزة في خلافته كانت تهتم بالارض وتحب امتلاكها عن طريق الشراء او عن طريق الهبات والهدايا من قبل الخليفة . وكان معاوية يشاركهم في هذه الصفات . ومن امثلة ذلك انه اشترى من عبد الله بن جعفر

---

١) ابو عبيد ، الاموال ، ٤٠٠/٤٠١ .
٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ١٣٠ ، محمد كرد علي ، غوطة دمشق ، ١٤٤ .
٣) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١ ، ١١ .
٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢ ، ١٣٨/١٣٩ ، ١٤٠ ، تهذيب التاريخ الكبير ج ٦ ، ٤٢٧ .
٥) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ق ١ ، ٢٨٦ ، البلاذري ، الفتوح ، ٣٢ .

ارضا من شمال الحجاز تسمى ارض الغابة ، وهي قريبة من الشام بمبلغ الفي الف درهم (١) واشترى دارا من احدى الصحابة وبنى فيها قصر "الدارين" في المدينة (٢) واشترى دارا اخرى في الحجاز باربعين الف درهم. (٣)

وخدمت القطائع مثلها مثل الاموال في السياسة المالية لمعاوية فقد عزز بها ولاء عماله وولاته في الامصار لنفسه ، كما انه تمكن من اسكات عدد من المعارضين بواسطة هذه القطائع ، وعلى رأس هؤلاء الشخصيات الحسن بن علي الذى اعطاه اقطاعا في الحجاز ليبعده عن العراقيين منعا للفتنة . (٤)

كما ان هذه الدور والاراضي ساهمت في التفاف الشاميين حوله بشكل قوى ، ساعد على تنفيذ سياسته بالشكل الذى يريده فكان عندما يرضي وجهاء ورؤساء القبائل بواسطة القطائع يضمن ولاء كل من يسير في فلكهم من القبائل والاعوان الى جانبه . ولم تقتصر هذه القطائع على قبائل معينة انطلاقا من مبدأ خلعه التوازن بين الكتلتين الكبيرتين القيسية واليمنية في بلاد الشام. ومن ذلك اعطى الضحاك بن قيس في ايام امارته دارا بدمشق ، وكان هذا من ابرز شخصيات بلاد الشام آنذاك. (٥) كما انه اقطع نمران بن يزيد المذحجي قرية له ولعشيرته . (٦) .

---

١) الزبير بن بكار ، جمهرة النسب ، ج ١ ، ٣٦٥ .
٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٤ ، ١٥٦ .
٣) الزبير بن بكار ، جمهرة النسب ، ج ١ ، ٣٦٨ ، ابن قتيبة ، المعارف ، ٢١١ ، الاندلسي ، جمهرة انساب العرب ، ١٦٨ .
٤) البلاذرى ، الفتوح ، ٢٩٦ .
٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢ ، ١٤٠ .
٦) محمد كرد علي ، غوطة دمشق ، ٢٤٧ .

وقد كسب معاوية رضى المسيحين في بلاد الشام ،واحترمهم واحترم كنائسهم كوسيلة اخرى من وسائل خلق الانسجام والتجانس بين سكان اهل الشام من المسلمين والمسيحين فقد اقطع مسيحين في دمشق لبناء كنيسة لهم. (١)

كما انه اكرم كثيرا من الوافدين اليه ،فاقطع احد الشعراء الكلبيين منزلا في المزة له ولعشيرته ، (٢) ووفد عليه احد اقربائه واسمه صفوان ابن امية فاعطاه زقاقا في دمشق نسب اليه . (٣) واكرم الصحابة الوافدين امثال ابي الدرداء فوهبه دارا في دمشق نسبت اليه فيما بعد . (٤) كما انه كان يكرم اصحاب السوابق في المعارك الكبرى في الفتح مثل حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب الذي وهبه زقاقا . (٥)

ومن ضمن الهبات الدعائية فقد سمع معاوية ان بالبصرة رجلا يشبه رسول الله (ص) فكتب الى عامله عبد الله بن عامر بن كريز ان يوفده اليه ،فاوفده الى دمشق فلما دخل عليه نزل معاوية من سريره ومشى اليه وقبّل جبينه واقطعه في دمشق منطقة تسمى المرغاب. (٦)

ويشار في هذا المجال الى ان معاوية اقطع عددا من المناطق للقبائل على الثغور البزنطية للقيام باغراض عسكرية كالحماية والهجوم(٧) وقد يكون هذا تقليدا لنظام المسالح البزنطية المسمى " الثمياتا ".

---

١) ابن عساكر ،تاريخ دمشق ،ج ٢ ، ١٢٧

٢) محمد كرد علي ،غوطة دمشق ، ١٢٢

٣) الذهبي ،سير اعلام النبلاء ،ج ٢ ، ٥٦

٤) ابن عساكر ،تاريخ دمشق ،ج ٢ ، ١٣٨ / ١٣٩ .

٥) ابن عساكر ،تهذيب التاريخ الكبير ، ٤٢٧

٦) ابن حبيب ،المحبر ، ٤٦ / ٤٧ . (٧) البلاذري ،الفتوح ، ١٩٧ / ١٩٨ .

د ـ القضـــــــاء

القضاء هو المؤسسة الاسلامية الوحيدة التي احتفظت في تطورهـا بالتزامها خطا دينيا صرفا خال من المؤثرات الاخرى التي غيرت مجـرى الخلافة الاسلاميـة وباقي النظم الاخرى . وذلك نظرا لارتباط هـــذه المؤسسة بمبدأ اسلامي وهو العدل .

والقاضي بناء على ذلك سيقف ممثلا للشرع في حسم المنازعـــات والخصوم ورد المظالم ، ويذكر في هذا المجال أن القاضي يقف بين العبــد وربه دون وجود أى مسؤول يتدخل في حكمه من الناحية النظرية ، وقـــد كان القضاة في الغالب من كبار الفقهاء المتضلعين بأمور الشرع والفقـه .

وقد أدرك هؤلاء الفقهاء كبر المسؤولية الملقاة على عاتقهم ، فكانـوا يقبلون هذا المنصب بعد تردد وحذر شديديـن ، ويذكر أن كثيرا منهـــم رفض هذه الوظيفة خوفا من نتائجها على الصعيد الديـني .

وكان الخلفاء الراشدين يكثرون من وصاياهم لعمالهم وولاتهـــم ، لكي يعدلوا بين الرعية ، ويدعونهم الى وضع مخافة اللـــه في خلقه نصـــب أعينهم ، ومن ذلك ما كتب عمر بن الخطاب الى معاوية في الشام : " أما بعـد ، فاني كتبت اليك في القضاء بكتاب لم آلك فيه ونفسي خيرا ، فالزم خصالا يسلم دينك وتأخذه فأفضل حظك عليك ، اذا حضر الخصمان فالبينة العدول ـ والايمان القاطعة ، أدن الضعيف حتى يجرى قلبه وينبسط لسانه ، وتعاهـد الغريب فانه ان طال حبسه ترك حقّه وانصرف الى أهله ، وانما أبطل حـــق من لـم يرفـع بـه رأسا ، واحرص علـى الصلـح بـيـن النـاس مـا لم

يستبين لك القضاء " (١) .

ولا شك أن القضاء جهاز خطير في يد رجل يريد ممن حوله من أتباع أن يظلوا أنصارا له ، فكان لا بد من العناية الفائقة بحل الخلافات والفصل فيها وقطع أسبابها ، لكي يضمن جبهة قوية متماسكة أمام الأعداء والخصوم ، وقد روى معاوية عن الرسول حديثا شريفا يبين ضرورة القضاء بالحق ، ويعتبر الأمة التي تخرج عن العدل أمة لا قدسية لها (٢) .

وقد كان القضاء في بداية الخلافة الاسلامية جزءا من مهمات الخليفة فكان يبث في القضايا ويستصدر أحكاما لها ، ولكن الأمور اختلفت بعد أن أصبح وقت الخليفة لا يتسع للمزيد من الواجبات ، فاضطر الخلفاء الى تعيين قضاة وارسال بعضهم مع الجيوش تحسبا لما ينتظرهم من مشاكل جديدة حول الغنائم والميراث والجرائم والجنايات على اختلاف أنواعها ، بالاضافة الى اجراء معاملات الزواج والطلاق وغيرها .

ونظرا لأهمية القاضي ومكانته في نفس معاوية ، فانه عندما خرج من دمشق الى صفين استخلف عليها قاضيه فضالة بن عبيد الأنصاري ، ليعمل على الاشراف على شؤون المدينة خلال فترة غيابه عنها (٣) .

---

(١) وكيع ، أخبار القضاة ، ج١ ، ٧٤ / ٧٥ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج١ ، ٩٨ .

(٢) وكيع ، أخبار القضاة ، ج١ ، ٢٧ .

(٣) ابن سعد ، الطبقات ، ج٤ ، ق١ ، ٣١ ؛ وكيع ، أخبار القضاة ، ج٣ ، ٢٠١ .

وتذكر بعض الروايات أن معاوية هو أول من استقضى القضاة من الخلفاء ، وسبب ذلك يعود الى أن الرسول فقط اعتمد على عدد من الصحابة في مجال القضاء (١) ، ولم يباشر الخلفاء الراشدون ذلك في المدينة ، وانما اعتمدوا على أنفسهم ، وبالرغم من أن معاوية استقضى لكن ذلك لم يمنعه من التحكيم بين الخصوم بنفسه ، خاصة في أمور المنازعات البسيطة على المتاع والأرض (٢) .

واعتمد الخليفة على عدد من الشخصيات الاسلامية العريقة في صحبتها مع الرسول ، وكان ذلك مجالا للتفاخر بهؤلاء الصحابة بصفتهم جزء من بطانته ويقول فيهم : "صحبي أربعة من الأنصار ، النعمان بن بشير فوليته حمص ، ومسلمة بن مخلد فوليته مصر ، وعمرو بن سعيد فوليته فلسطين ، وفضالة بن عبيد فوليته القضاء ، ولو زادوني لزدتهم ، ولأنا خير لهم من أبي بكر وعمر" (٣) ، وكان من أبرز قضاته أيضا ابو الدرداء وسليم بن عتر في مصر .

وقد عانى الخلفاء الأمويون في الفترة اللاحقة من امتناع كبار الصحابة عن قبول منصب القضاء ، أمثال الحسن البصرى وسفيان الثورى ، وكان هذا الامتناع دليلا ضمنيا على رفضهم للسياسة الأموية ، والتي رأوا فيها خروجا على الدين والشرع الاسلاميين .

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٤ ، ق ١ ، ٣١ ؛ وكيع ، أخبار القضاة ، ج ١ ، ١٠٥ ، ١١٠ / ١١١ ؛ ابن عساكر ، تهذيب التاريخ الكبير ، ج ٦ ، ٣٠٧ / ٣٠٨ .

(٢) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، ج ٤ ، ٨٤ .

(٣) البلاذرى ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٣٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ١١ ؛ ابن حبيب ، المحبر ، ٢٩٥ ؛ الذهبي ، دول الاسلام ، ج ١ ، ٢ ، ٢٦ .

وحاول معاوية أن يضرب من نفسه مثلا يقتدى به في العدل في مختلف شوءون الحياة من خلال نظرته لنفسه بأن الله قدر له حكم المسلمين على الشريعة الاسلامية، وله في هذا الخصوص قول مشهور: " اني لأستحيي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصرا الا الله" (١) ، وقد شكلت مثل هذه الاقوال جزءا من سياسته في فرض نفسه وتحبيب الناس له ، ولكي يجعل من خلافته استمرارا لما عهده الناس من الخلفاء الذين سبقوه .

وليس أدل على رفعة منصب القاضي ومكانته ، سوى أن الخليفة نفسه كان طرفا في خصومه أمام أحد قضاته ، فقد كان لعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أرضا الى جانب أرض لمعاوية في الحجاز ، فضم وكيل معاوية هذه الأرض الى أرض معاوية وادّعى أنها لأمير الموءمنين ، فقال له عبد الرحمن أن عنده بينة تثبت أن أبا بكر بن أبي قحافة أقطعه اياها ، فاختصما الى مروان بن الحكم وهو والي المدينة ، فطلب منهما التصالح ، وذلك كي لا يقضي بحكم ضد الخليفة ، فأتى عبد الرحمن هذا الى الشام وقابل معاوية ، واحتكما الى القاضي فضالة بن عبيد الأنصاري ، فذهبا اليه في بيته فطرح لهما وسادة للجلوس عليها ، فتكلم عبد الرحمن بحجته ولما تكلم معاوية قال بأن هذه الأرض كانت مواتا فاستصلحها واستثمرها بزراعته فيها خمسة آلاف عود من الكرم ، فحكم فضالة بأن الحق الى جانب عبد الرحمن ، فقبل معاوية الحكم ووهبه غراس الكرم ، والحق بشرف العطاء لقرابته من الفاروق عمر (٢) .

---

(١) الدينوري ، عيون الأخبار ، ج١ ، ٧٥/ ٧٦ .

(٢) البلاذري ، الانساب ، ق١ ، ج٤ ، ١١١ .

ويمكن الحكم من خلال هذه الرواية ان بيت القضاء هو منزل القاضي ، وقد يكون المسجد احيانا مكانا له كما ان هذه الرواية تحمل معان اخرى من العدل وذلك بجلوس الخليفة وخصمه امام القاضي وعلى وسادة واحدة ، وهذا ما يعكس قوة القاضي ومكانته المرموقة واحترام الخليفة له ولحكمه .

ومن جوانب الحذر التي ابداها معاوية تجاه قاض مشهور وهو شريح الذى كان مقيما بالبصرة ، فأتى الشام في طلب حق له من احد الرجال . فقابل احد القضاة لمعاوية وذكر له قصته مع ذلك الرجل ، فقال القاضي الشامي له : أرى حقك قديما ، قال شريح : الحق اقدم منك ومنه ، فقال : اظنك ظالما ، فقال شريح ما على ظنك رحلت من العراق ، قال : ما اظنك تقول الحق ، قال : لا اله الا الله فوصل خبره الى معاوية فطلب ان يقضى له ما يريد ويعجل في سفره الى العراق(١)

ويذكر ان عمال الخليفة انفسهم كانوا يقضون في الخصومات والجنايات وينفذون الحدود ، وهذا المظهر يؤيد تداخل الصلاحيات في الانظمة الاسلامية الاولى . ومن امثلة ذلك ان روحا بن زنباع الجذامي عامل معاوية على بعلبك رجم امرأة ورجلا ، فبلغ ذلك الامر الخليفة عن طريق ابيات شعر سمعها من اعرابي فكتب اليه معاوية : (لا تعجل باقامة الحد حتى يثبت في أمره ، فيكون اقامتك اياه باقرار ظاهر او باربعة شهود مستورين)(٢)

وقد كان للخليفة دور في اثبات بعض التشريعات القانونية المتعلقة بقضايا جديدة لم يكن لها سوابق ومنها قاعدة توريث المسلم من كافر ، وكان سبب تثبيت هذه القاعدة ان جاء رجل الى معاوية يقول : " عز الاسلام ينفعني ام يضرني

---

١) ابن عساكر ، تهذيب التاريخ الكبير ، ج ٦ ، ٣٠٤ ، وكيع اخبار القضاة ج ٢ ، ٢٢٢ .

٢) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٧٠ .

قال : ينفعك ولا يضرك؟ فقال ابي كان نصرانيا وله اولاد نصرانيين ، واني اسلمت ومات والدي ، وترك مالا كثيرا ، فذكر اخوتي ان المال لهم دوني . فقال معاوية : انت وهم فيه شرعا سواء ، وكتب الى زياد ورّث المسلم من الكافر فقضى بذلك" (١)

وصلاحية تعيين القاضي خوّلت للولاة (٢) ، كما ان القاضي قد يجمع بالاضافة الى منصبه منصبا آخر ، فمنح شريحا القاضي في ولاية زياد على العراق اوكل اليه القيام باعمال بيت المال اضافة الى القضاء ، في محاولة لزيادة رزقه ، وكذلك القاضي سليم بن عتر التجيبي في مصر الذي كان قاصا فجمع له معاوية القضاء مع وظيفته الاولى . (٣)

ومن ابرز خصائص القضاة في خلافة معاوية ، انه كان يختار الرجال الاكفاء في الامكنة والاختصاصات المناسبة . وكانت قوة دولته تنبع من قوة اداريبها فمنذ ما ولّى معاوية القضاء لسليم بن عتر في مصر ولمدة طويلة شملت ولاية اربعة ولاة ، هم عمرو بن العاص وعتبة بن ابي سفيان وعقبة بن عامر ومسلمة بن مخلد . وقد اكسبته هذه المدة الطويلة تدريبا وخبرة عملية واسعة ، صادق من خلالها مسألة استئناف الاحكام التي يصدرها بحق المتهمين واصحاب القضايا وضرورة العودة للنظر مرة اخرى . مما كان يقتضي تسجيل القضايا في سجلات خاصة لمراجعتها حين الضرورة .

---

١) المصدر السابق ، ٢٠٤ .

٢) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ق ١ ، ١١٧ ، ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ١٦٧ ، الاندلسي ، جمهرة انساب العرب ، ١٦٧ .

٣) البلاذري ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٢٠٥ ، ابو عمر محمد بن يوسف ، الولاة وكتاب القضاة ، ٣٠٣ .

ومن ثمار خلافة معاوية ايضا بروز فكرة تدرج العقوبات في الجراح الناتجة عن مشاكل الناس مع بعضهم بعضا ، فكان الجريح يأتي الى القاضي ويشكوا اليه قصته ، فيرفع القاضي الامر الى صاحب الديوان فاذا حضر العطاء ، اقتص له من اعطيات عشيرة المسبب في الجراح . (١)

---

١) ابو عمر محمد بن يوسف ، الولاة وكتاب القضاة ، ٣٠٩ .

الفصـــل الخامـــس

تقييم خلافة معاوية وشخصيته وأثرها علـى الشـــام

تعتبر فترة تولي معاوية لبلاد الشام فترة طويلة نسبيا ، اذا ما قورنـــت بخلافة الراشدين ، خاصة اذا ما أخذنا بالاعتبار فترة الامارة .

وتتفاوت المصادر في معلوماتها عن بداية خلافته ، نظرا لمـــا اعتراها من قلق بسبب الاقتتال والفتنة ، وهذا التفاوت في تحديد تاريخ خلافته بسيط ولا يتعدى شهورا قليلة ، فالبعض القليل من المؤرخين يعتبرونه خليفة منذ بدء استعداده للقتال في صفين ، والبعض الآخر يعتبر بداية خلافته منذ انتهاء عملية التحكيم بينه وبين علـــي .

ولكن التاريخ الفعلي لخلافته هو بعد تسليم الحسن بن علـــي لـــه (١) ، فأصبح خليفة من غير منازع ، واعترفت به البلاد الاسلامية عـــن رغبة أو عن رهبة سنة ٤١هـ ، وسمي هذا العام باسم "عام الجماعـــة" نظرا لاجتماع الأمة ودخولها تحت طاعة امام واحد ، بعدما اعتراها من الفرقة والتمزق والاقتتال بعد الفتنـــة .

---

(١) البـــلاذري ، الانســاب ، ق١ ، ج٤ ، ١٣٢ ؛ الطـــبري ، التاريـــخ ، ج٥ ، ٣٢٤ ؛ المسعودي ، مروج الذهـــب ، ج٣ ، ٣٠ ؛ الدينوري ، الأخبار الطوال ، ٢٠٢ ؛ القلقشـــندي ، مآثر الانافـــة ، ج٦ ، ١١١ .

أما عن وفاته ، فان المصادر تجمع على سنة واحدة وهي سنة ٦٠هـ (١) ، فكانت مدة خلافته عشرين عاما تقريبا (٢) ، وكان قد بلغ من العمر حوالي ٨٠ عاما (٣) .

وقد ترتب على خلافة معاوية أمورا كثيرة في بلاد الشام وخارجها ، فقد جعل من هذه البلاد مركزا للامبراطورية قوية الاركان ، ومهيبة الجانب بين جاراتها من الدول المعاصرة ، وكانت هذه الدولة تتمتع بمزايا عصرية في مختلف الميادين . وقد تطورت مؤسسات هذه الدولة ونمت ، لتخدم حاجاتها المتزايدة في مختلف الميادين .

ويمكن القول بأن مجيء معاوية للخلافة في هذه الفترة المبكرة من تاريخ صدر الاسلام ، جعل الدولة الاسلامية تسابق الزمن في خطوات تطورها الواسعة التي قطعتها في فترة زمنية قصيرة نسبيا .

كما أن شخصية الخليفة الجديد ، كانت فريدة من نوعها ، بين الشخصيات السياسية والادارية الاسلامية ، ولعبت دورا كبيرا في تحول عدد من المفاهيم والأسس الموروثة عن عهد الخلافة الراشدة ، وكانت المفاهيم الجديدة التي أرساها الخليفة جديدة عليهم ، ولم يعهدها المسلمون من قبل .

---

(١) البلاذري ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٣٢ ؛ الطبري ، التاريخ ، ج ٥ ، ٣٢٤ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ٣ ؛ الدينوري ، الأخبار الطوال ، ٢٠٢ ؛ القلقشندي ، مآثر الانافة ، ج ١ ، ١١١ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٥ ، ٣٢٥ .

(٣) البلاذري ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٣٢ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ٣ .

وقد تمتعت شخصية معاوية بمزايا خاصة ،خرجت عن مزايا شخصيات الخلفاء الراشدين والتي كانت على اختلافها تتشارك بطابع موحد من الالتزام بما خلّفه السلف من المبادئ المرتبطة بالشرع والتقوى ، وقد كان الدين والسياسة في عهودهم ممزوجين مع بعضهما بعضا ويصعب الفصل بينهما ، ولكن معاوية استطاع أن يخرج الى حيز الوجود دولة لها طابعا سياسيا جديدا يتمشى مع الاطار الديني الذى يفرضه الشرع الاسلامي ،وغلب على سياسة هذه الدولة اطارا يتوافق مع المصلحة الخاصة والعامة .

فقد وضع الخليفة معاوية موازينا جديدة يقيس بها الأمور ،تختلف عن الموازين السابقة ، وقد تمكن من خلق توازن بين مصلحته الخاصة ومصلحة قومه من بني أمية من جهة ، وبين مصلحة باقي الأمّة الاسلامية من جهة أخرى ولا يشاركه في ذلك من الراشدين سوى قريبه الخليفة عثمان بن عفان ، ولكنه لم يكن ليستطيع ضبط الأمور لمدة طويلة ،بينما كان غيره من الخلفاء الراشدين يتقيدون بالزهد والتقوى ويضعون مصلحة الأمّة فوق كل الاعتبارات الشخصية أو الجماعية على نطاق العشيرة أو القبيلة .

وعلى نطاق أضيق حاول معاوية أن يوافق بين مصالحه الخاصة ،ويربطها بمصالح أنصاره الشاميين ،ليكونوا سندا له في الملمات والمصاعب ،ومن هنا فان اعتماده عليهم كان له أكبر الاثر في تحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ، وقد استمر في الحفاظ على علاقته هذه بالشاميين ،لكي يضمن استمرار الخلافة في بنيه وقومه من الأمويين (١) بمساعدتهم .

---

(١) الطبري ،التاريخ ، ج ٥ ، ٣٣٢ .

ومن خصائص خلافته أنه أدخل الى معرك الحياة السياسية مواهبا جديدة تمتع بها ، وكان لها كبير الاثر في نجاحه وتفوقه على خصومه ، ومن هذه المواهب: الحلم والحزم والدهاء (١) .

وقد كانت هذه المواهب مدعاة لجلب انتباه والديه منذ حداثة عهده ، فقد ورد عن أبي سفيان أنه أقسم بأن ابنه سيسود قريش ، لكن أمه هند بنت عتبة أردفت بقسم آخر بأنه سيسود العرب قاطبة (٢) .

وترتب على هذه المواهب نجاحا كبيرا في الحياة السياسية للخليفة ، فقد كان يحقق أكثر ما يريد في كل خطوة يخطوها ، أو في أى تدبير يتخذه ، وهذا النمط من الحكم لم يكن معهودا في الخلافة الاسلامية من قبل .

فقد كانت تدابير الخلفاء قبله تتمشى وفق الحاجات العملية ، وقليلا ما نسمع عن التخطيط المحكم للمستقبل ، بينما كان معاوية يقدّر الأمور حق قدرها ، ويبدو ذلك واضحا من خلال الأحداث الواردة عنه في هذه الدراسة .

صيغة موضوعية * وتميزت سياسة الخليفة بالمرونة ، فهو قوى في المواقف التي تقتضي الشدة ، واللين في المواقف التي تقتضي اللين ، وكان يعترف بذلك بنفسه

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ٢٨٢ ؛ مؤلف مجهول ، تاريخ الخلفاء ، ٥٥ .

(٢) البلاذرى ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٢٨ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ٢٨٧ ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج ١ ، ٣٣٨ .

في أحاديثه ومجالسه ، والمتتبع لسياسته لا يرى خطا سياسيا واحد يلتـــزم بـــه ، فكان يواجه كل موقف بأسلوب يناسبه ، لكي يحقق الغرض الذى يهدف اليـــــه .

وخير ما يشار اليه في سياق الحديث ، المثل المعروف على النطـاق الشعبي والذى يدل دلالة واضحة على مرونته ، وهذا المثل هو " شـــعرة معاويـــة " (١) والتي ترمز من ضمن دلالاتها الى خلق توازن دقيـق بـين الحاكم والمحكـــوم .

ولهذه المرونة بعد انتصار معاوية على خصومه وتوليه الخلافـــة ، فلسفة عميقة يمكن أن نستدل عليها من خلال علاقاته مع خصومه ومداراتـــه لهـــم واعتماده على أسلوب المسالمة ، اختصارا للجهد والدماء ودرءا للفتنـــة ، الأمر الذى جعل منه سياسيا مقبولا على نطاق العامة من الناس والخـواص من الأعوان والأنصار ، كأهل الشام وباقي فئات المسلمـــين .

ومن أشهر أقواله في هذا السياق قوله : " ضبطت رعيتي بالحلم والحجى وتوددت ذوى الضغن بالبدل والاعطاء ، واسطت العامة بأداء الحقـــوق وغفضت بين أهل الثغور ، فسلمت لي الصدور عفوا ، وانقادت لي الأخشة طوعا . (٢)

ولعل أبرز الأمثلة على لينه ومداراته ، قصته مع عامل خراج زيـــاد ابن أبي سفيان الذى كسر الخراج فطلبه زياد ، فهرب الى معاوية واستجـار

---

(١) البلاذرى ، الانساب ، ق١ ، ج٤ ، ٦٩ ؛ موءلف مجهول ، تاريـــخ الخلفـــاء ، ٥٥ .

(٢) البلاذرى ، الانساب ، ق١ ، ج٤ ، ١٧٧ .

بـه في الشام فأجاره وأمّنه على نفسه ، فكتب اليه زياد لائما له على استجارته له ، ويخبره أن عمله هذا مفسدة للعمال والموظفين ، فرد عليه معاوية برسالة يقول فيها :" انه لا يصلح أن أسوس وتسوس الناس سياسة واحدة ، انّا ان نشتد جميعا ، نهلك الناس ونحرجهم ، وان نكن جميعا بنظرهم ، ولكن تلين وأشتد ، وأشتد وتلين ، فاذا خاف أحدهم وجد بابا فدخله " (١) .

وتبنى معاوية عددا من المفاهيم وطبقها في سياسته ، لتدعيم مركزه كأعلى رجل سياسي في الدولة ، وقد ساهمت هذه المفاهيم والمبادئ في بلوغه قمما عالية في النجاح على صعيد الحكم والسياسة .

ومن أبرز هذه المبادئ حرصه الدائم على كتمان السر ، وذلك انطلاقا من مبدأ أن من كتم سره كان الخيار له ، ومن أفشاه كان الخيار عليه (٢) ، وله قول آخر في هذا الموضوع جاء فيه " اني لا أرفع نفسي عن أن تكون ذنب أعظم من عفوى ، وجهل أكبر من حلمي ، وعورة لا أواريها بسترى ، واساءة أكبر من احساني " (٣) .

كما أنه قال " استعينوا على الحوائج بالكتمان ، فان كل ذى نعمة محسود " (٤) ، وتكمن وراء هذا القول وغيره من الاقوال المماثلة فلسفة

---

(١) البلاذرى ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٦٨ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ٥٠ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ١٣٥ .

(٢) البلاذرى ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ٢٠ .

(٣) المصدر السابق ، ٢٠ ؛ الثعالبي ، ثمار القلوب ، ٤٣٤ .

(٤) البلاذرى ، الانساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٧ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ٢٧٨ .

ترفع الحاكم عن المحكوم وتحيطه بنوع من الغموض ، الأمر الذى يرفع من قيمته في نفوس رعيته ويزيد في هيبته .

ومن الأقوال التي تدل على دقة معاوية في التصرف واتخاذ المواقف قوله : " لا أضع لساني حيث يكفيني مالي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، فان لم أجد من السيف بدا ركبته "(١)

ومن خلال القول السابق نستطيع أن ندرك أسلحة معاوية التي استعملها في وجه خصومه السياسيين ، وهي المال والاقناع بالحجة أو استعمال القوة ، وكل من هذه الأسلحة يستعمل في حالة ليؤدى الغرض على أكمل وجه .

ومن خصائص خلافة معاوية ، أنه ولأول مرة في التاريخ الاسلامي يتبنى الخليفة فئة معينة من المسلمين ، ويستطيع بواسطتهم أن يسيطر على باقي الأمة الاسلامية ، وذلك بعد أن أصبحت الخلافة هدفا يسعى اليه الطامحون عن طريق اكثار أعوانهم وأنصارهم ، وقد اعتمد بنو العباس على هذه الظاهرة في القضاء على بني أمية .

ويذكر أن علاقة الخليفة بالمسلمين في العهد الراشدى كانت تقوم على رابطة العقيدة أولا ، ويليها الروابط الاجتماعية الأخرى كالرابطة القبلية وقرابة الدم .

---

(١) البلاذرى ، الأنساب ، ق ١ ، ج ٤ ، ١٧ ؛ مؤلف مجهول ، تاريخ الخلفاء ، ٥٥ .

لكن معاوية أوجد رابطة جديدة تقوم على الولاء والطاعة ، نظرا لما يترتب عليهما من التوافق في المصلحة والمنفعة المتبادلة بينه وبين أهل الشام ، وبذلك استطاع أن يضمن جوا مناسبا لتنفيذ سياسته بعيدا عن معارضة الحجازيين .

وقد ترتب على نقل مركز الخلافة من المدينة الى دمشق ، بروز نوع جديد من التعصب وهو التعصب الاقليمي نحو المصر ، بعد أن أصبحت الخلافة ووجودها في ذلك الاقليم منفعة أهله ومصلحتهم ولم تخل أحاديث معاوية من التلميح لهذا النوع الجديد من الانتماء للاقليم (١) .

ولو حاولنا تتبع الآثار الفكرية المتمخضة عن خلافة معاوية ، فانها انعكست في المصادر الأدبية على الأصعدة السياسية والفكرية والاجتماعية .

فالمصادر الأولية تتناول خلافته بين معارضة ومؤيدة ، كل حسب هواها وميولها ، فالكتب الموسوعية الكبرى ليس لها اتجاها محددا نظرا لتعدد مصادرها ، وبالتالي تعدد الميول والأهواء ، ويغلب عليها الطابع الشيعي العلوي لأن الغالبية العظمى منها كتبت في العهد العباسي ، وقد شكلت تراثا فكريا ضخما في النواحي السياسية .

وقد أفرد عدد من المؤرخين كتبا تتناول العلاقة بين العباسيين والأمويين نظرا لما اعترى هذه العلاقات من مشاكل مختلفة تسببت في كثير من المآسي على الأمة الاسلامية ، ومن هذه المصادر كتاب " تاريخ العباس وولده " لمؤلف مجهول من القرن الثالث الهجري ،

---

(١) البلاذري ، الانساب ، ط١ ، ج٢ ، ٣٠٧ .

وكتاب " العواصم من القواصم " لأبي بكر بن العربي ، وكتاب " النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم " للمقريزى ، وتعكس هذه المصادر دور معاوية وآثاره في المجالات السياسية .

ويشار في هذا المجال الى الشعر والأدب ، فكثيرا ما قيلت القصائد وعمرت المنابر بالخطب المؤيدة أو المعارضة لمعاوية وخلافته (١) .

ومن أمثلة ما أشير اليه من التراث ، موقف ابن خلدون الذى يتناول خلافة معاوية مناقشا ومحللا للنواحي السياسية والاجتماعية ، ولا يرى ضيرا في اعتباره خليفة راشديا خامسا ، ويضع ابن خلدون المبررات التي دفعت معاوية للتصرف في شؤون الحكم والخلافة فيقول :

"وقد كان ينبغي أن نلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة ، ولا ينظر في ذلك الى الحديث (الخلافة بعدى ثلاثون) فانه لم يصحّ ، والحق أن معاوية في عداد الخلفاء ، وانما أخرته المؤرخون في التأليف عنه لأمرين : الأول : أن الخلافة لعهده كانت مغالبة لأجل ما قدمناه من العصبية التي حدثت لعصره ، وأما قبل ذلك فكانت اختيارا واجماعا ، فميزوا بين الحالتين فكان معاوية أول خلفاء المغالبة والعصبية الذين يعبّر عنهم أهل الأهواء بالملوك ويشبهون بعضهم ببعض ، وما شاء الله أن يشبه معاوية بأحد ممن بعده ، فهو من الخلفاء الراشدين ، ومن كان تلوه في الدين والفضل من الخلفاء المروانيّة ، ممن تلاه في المرتبة كذلك ، وكذلك من بعدهم من خلفاء بني العباس.

---

(١) دائرة المعارف ، " مقتبس الأثر ومجدد ما دثر " ، ج ٢٨ ، ١٣/٦ .
أنظر ابن عبد البر ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ١٤٢٢/١٤١٦
(٢) الحميرى ، الروض المعطار ، ٣٦٥ .

ولا يقال الملك أدون - أدنى - مرتبة من الخلافة ، فكيف يكون خليفة ملكا ؟ وأعلم أن الملك الذى يخالف بل ينا في الخلافة ، هي الجبروتية والمعبر عنها بالكسروية التي أنكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها .

وأما الملك الذى هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة ، فلا ينافي الخلافة ولا النبوة ، فقد كان سليمان بن داود وأبوه - صلوات الله عليهما - نبيين وملكين ، وكانا على غاية الاستقامة في دنياهما وعلى طاعة ربهما عزّ وجلّ .

ومعاوية لم يطلب الملك ولا أبهته للاستكثار من الدنيا ، وانما ساقه أمر العصبية بطبعها لما استولى المسلمون على الدول كلها ، وكان هو خليفتهم ، فدعا الى ما يدعو الملوك اليه قومهم عندما تستعمل العصبية وتدعو لطبيعة الملك ، وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده اذا دعتهم ضرورة الملك الى استعمال دواعيه وأحكامه .

والأمر الثاني في ذكر معاوية مع خلفاء بني أمية دون الخلفاء الأربعة انهم كانوا أهل نسب واحد عظيمهم معاوية ، فجُعل مع أهل نسبه. والخلفاء الاولون مختلفوا النسب للحوق بهم قريبا في الفضل ، والله يحشرنا في زمرتهم ويرحمنا بالاقتداء بهم (١) .

ومن المؤرخين الذين أبدوا رأيا ايجابيا في خلافة معاوية ، المؤرخ التنوخي الذى وصفه بأنه لا يدفع عن علم بالدنيا (٢) ، وكذلك أبو بكر

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، م٢ ، ١١٤١/ ١١٤٢ .

(٢) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ج ٢ ، ١٢٢ .

بن العربي الذى يصفه بحسن السيرة في ادارة الدولة وحماية الثغور واصلاح الجند والظهور عليهم وسياسته الحسنى في الخلق (١) .

ومن أمثلة ذلك قول المؤرخ المشهور الذهبي " .... وطالت دولته ، وكان ملكا مهيبا حازما شجاعا جوادا حليما ، كأنما خلق ليملك ويعد من أفراد الملوك حزما وحلما ودهاء ورأيا .... "(٢) .

ومن المصادر التي وقفت في مجمل مادتها موقفا سلبيا من معاوية خاصة والأمويين عامة هي كتب الفرق والأحزاب بالدينية ، وكتبت في معظمها لتحمل ميول وآراء أصحاب هذه الفرق شيعة كانوا أم خوارجا وغيرها من الاتجاهات التي تفرعت عنها ..

ومن أبرز هذه الكتب كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى ، والذى يناقش قضية شرعية خلافة معاوية من ناحية سلبية باعتباره وليها اغتصابا ، وبعد فتنة دامية اقتتل فيها المسلمون (٣) .

ومن كتب الفكر والأدب كتاب رسائل الجاحظ التي كتبها في كنف الخلفاء العباسيين ، فاتخذ من معاوية وخلفاء بني أمية موقفا معاديا ، فاعتبر معاوية مغتصبا لحقوق الأمة ومستبدا بها ، وتطرق الى أعماله ، ووصفها بأنها معاص وآثام ، كاستلحاق نسب زياد بن أبيه ، واختياره العمال والولاه

---

(١) ابو بكر بن العربي ، العواصم من القواصم ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ .

(٢) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ١ (٢) ، ٢٢ .

(٣) البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ١٤٩ / ١٥٠ ؛ انظر ابن سعد الطبقات الكبرى ، ج ٤ ، ٨٥ .

على الهوى وتعطيله الحدود بالشفاعة والقرابة (١).

ومن كتب الادب التي تقف موقفا معاديا لخلافته كتاب شرح نهج البلاغة ، وهو من الكتب ذات الميول العلوية ، والذى يشرح فيه موالفه خطب علي بن أبي طالب من خلال مواقفه ضد معاوية أثناء الفتنة (٢).

وقد خلّف معاوية آثارا معنوية ومادية عاشت بين الشاميين لعدة أجيال بعد وفاته ، ومن أبرزها أن دمشق خاصة وبلاد الشام عامة اكتسبت أهميتها السياسية والتاريخية من جراء نقل مركز الخلافة من المدينة اليهـا .

وقد ترك معاوية في نفوس الشاميين مكانة كبرى ، نظرا الى ما وصلت اليه بلادهم من مكانة رفيعة انعكست عليهم خلال خلافته وخلافة الأمويين من بعده ، كما أنه ترك آثارا مادية عديدة منها الحصون والمسالح بالاضافة الى المباني والقصور والمساجد (٣).

ومن جملة الأسباب التي جعلت من معاوية شخصا محبوبا بين أهل الشام أنه كان يخالطهم ويجتمع بهم رغم وجود الحجاب والمقصورات ، كما يرد عنه أنه كثيرا مـا كان الناس يوءاكلونه في وجباته

---

(١) الجاحظ ، الرسائل ، ج٢ ، ٢٣/٩ ؛ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج٥ ، ١٣١ .

(٢) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج١ ، ٣٣٥ / ٣٣٨ ؛ وفي معظم الصفحات تتناول علاقة علي بمعاوية .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢ ، ٩١ .

اليوميـــة (١)، ويجتمع بهم في المسجد بعد الصلوات ، ويسألهم عن شؤونهم الخاصة والعامة (٢)، وكان يخرج معهم في المواسم والأعياد، ومن ذلـــك خروجه معهم للاستسقاء في مواسم القحط والجفـاف(٣)، كما أنه كان يحج بالناس في عديد من المرات خلال سنوات خلافتـــه (٤).

وليس أدل على أهمية خلافة معاوية سوى مذاكرة سيرته بعد وفاتـــه بسنوات طويلة على السنة الخلفاء العباسيين، ففي أحد مجالس المأمـــون همّ الخليفة بلعن معاوية ، فاستوقفه أحد رجال حاشيته المسمى يحي بن أكثم قائلا " ان العامة لا تحتمل هذا سيما أهل خراسان ، ولا تأمن أن تكـون لهم نفرة ، وان كانت لا تدري ما تكون عاقبتها ، والرأى أن تدع الناس علـى ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل الى فرقة من الفرق ، فان ذلك أصلح في السياســـــة (٥) .

وتجدر الاشارة الى حركة ظهرت في بلاد الشـــام تعود فـــي جذورها الفكرية الى ما أحدثه الخليفة معاوية في نفوس الشاميين ، وهذه الحركة تدعى " النابتة " وقد ظهرت في العهد العباسي ، وهي في محـــور

---

(١) البلاذري ، الانساب ، ق١ ، ج٤ ، ١٠٦ ؛ الطبري ، التاريـــخ ، ج٥ ، ٣٣٧ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ١٥ .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ٢٩ / ٣٠ ؛ الحميري ، الروض المعطار ، ٥١٦ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ١٣٥ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج٢ ، ١٠٥ .

(٤) ابن خياط ، التاريخ ج٢ ، ١٩١ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ .

(٥) ابن بكار ، الاخبار الموفقيات ، ٤١ / ٤٢ ؛ وردت رواية عن المعتضد حول سيرة معاوية في كتاب السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ٢٤٧ ؛ ابـــن حبيب ، المنمـــق ، ٤٤٧ .

أفكارها على غرار الافكار الاثنا عشرية من حيث انتظار بطل يعود بعد أن اختفى وسيعود ليصلح الأحوال ، وسمي هذا الشخص المنتظر عند النابتة باسم السفياني المنتظر ، الذى سيقود قبائل الشام لاستعادة أمجادها السابقة في خلافة معاوية .

والمعلومات عن هذه الحركة قليلة ولا تعدو الاشارات البسيطة في عدد محدود من المصادر الأساسية (١) ، وقد يعود ذلك الى موقف الخلفاء العباسيين من هذه الحركة ، باعتبارها حركة مناوئة لحكمهم ، وقد يكون لها خطر كبير عليهم ، اذا نجحت في بلاد الشام اثر أية محاولة من قبل الشاميين لاستعادة الخلافة التي استولوا عليها بعد أن كانت بأيديهم ، خاصة وأن الدعوة العباسية بعد نجاحها لم تحقق للذين قامت على أكتافهم العدالة التي وعدوا بها بدلا من الجور والظلم الذى لحق بهم من قبل الخلفاء الأمويين ، وكان هذا السبب يقف وراء معظم الثورات التي قامت ضد العباسيين خاصة من قبل الموالي .

وخلاصة القول في تقييم خلافة معاوية ودولته ، فان التقليد التاريخي في قيام الدول وتطورها ، يقوم على التدرج من فترة الولادة فالنمو الى القوة والعظمة ، لكن هذه القاعدة لا تنطبق على دولة

---

(١) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ٢٩١ ؛ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج ١ ، ٣٤٠ ؛ الجاحظ ، الرسائل ، ج ٢ ، ٩ / ٢٣ ؛ ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، ج ٥ ، ٢١٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ٢٣٩ .

معاوية بشكل دقيق ، فقد عمل معاوية على خلق دولة ولدت قوية بسياسييها وادارييها وجيشها وأسطولها .

وقد يقول قائل بأن هذه الدولة ليست وليدة عهد معاوية ، وانما هي استمرار لخلافة الراشدين من قبل ، فرغم ذلك فان الفتنة وما تلاها من أحداث مزّقت البلاد الاسلامية شرّ ممزّق ، فجاء معاوية لينظم قيام الدولة من جديد وبأسلوب ومفاهيم تختلف عن المفاهيم الموروثة عن الخلافة الراشدة .

ثـ ــ المصادر والمراجع المستخدمة مرتبـــة هجائيــــــــــا ــ

المصــــادر :

ابن الأثير ، عز الدين أبي الحسن الشيباني ، ت ٥٥٥ ــ ٦٣٠ هـ
" الكامل في التاريخ " ، بيروت (١٩٦٥)
" اللباب في تهذيب الأنساب " ، بغداد ٠

الأزدي ، محمد بن عبد الله ، القرن الثاني الهجري ٠
« فتوح الشام » تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٧٠

الاصطخري ، ابراهيم بن محمد الفارسي ٣٠١ـــ ٣٥٠ هـ
" المسالك والممالك " تحقيق محمد جابر ، القاهرة ١٩٦١٠

الأصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين ، ت ٣٥٦ هـ ، ٩٦٧ م
" الأغاني " بيروت ١٩٥٨٠

ابن البطريق ، سعيد ، ت ٣٢٨ هـ
" التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق " ، بيروت ١٩٠٩

البغدادي ، عبد القادر بن طاهر ، ت ٤٢٩ هـ ، ١٠٣٧ م
" الفرق بين الفرق " بيروت ١٩٧٣٠

البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر ، ت ٢٧٩ هـ
" أنساب الاشراف "
الجزء الرابع القسم الثاني ، القدس ١٩٧١
الجزء الرابع القسم الاول ، تحقيق محمد حميد الله
الجزء الثاني القسم الرابع ، القدس ١٩٧١
" فتوح البلدان " الأقسام الأول والثاني والثالث والرابع والخامس
تحقيق عبد الله الطباع وعمر الطباع ، بيروت ١٩٥٨

أبو تمام ،
" نقائض جرير والأخطل " ، بيروت ١٩٢٢ .

التنوخي ، القاضي أبو علي المحسن بن علي ، ت ٣٨٤ هـ .
" نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة " تحقيق عبود الشالجي ، بيروت ١٩٧١ .

الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد ، ت ٤٢٩ هـ .
" خاص الخاص " ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٠٨ .
" ثمار القلوب " ، القاهرة ١٩٠٨ .

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، ١٥٠ـ ٢٥٥ هـ .
" رسائل الجاحظ " تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٤ .
" رأي أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في معاوية والامويين " نشر عـــزت الحسيني ، القاهرة ١٩٤٦ .

الجهشياري ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس ، ت ٣٣١ هـ .
" كتاب الوزراء والكتاب " تحقيق محمد السقّا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٣٨ .

ابن حبيب ، أبو جعفر محمد ، ت ٢٤٥هـ ، ٨٥٩م .
" المحبّر " رواية أبي سعيد الحسن السكري ، بيروت ١٣٦١ هـ .
" المنمق في أخبار قريش " الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٤ .

ابن أبي الحديد ، عز الدين أبو حامد بن هبة الله المدائني ، ت ٦٥٥ هـ .
" شرح نهج البلاغة " تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الأولى ، القاهـرة ١٩٥٦ .

ابن حزم ، علي بن أحمد بن سعيد الاندلسي ، ٣٨٤ـ ٤٥٦ هـ .
" جمهرة أنساب العرب " ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧١ .

الحميري ، محمد بن عبد المنعم ،
" الروض المعطار في خبر الاقطار " ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ، ت ٨٠٩هـ ، ١٤٠٦م .
" العبر وديوان المبتدأ والخبر "
المجلد الأول ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٦١ .
المجلد الثاني ، بيروت ١٩٥٦ .
المجلد الثالث ، بيروت ١٩٥٧ .

الخولاني ، عبد الجبار بن عبد الله ، القرن الرابع الهجري .
" تاريخ داريّا " دمشق ١٩٥٠ .

ابن خياط ، خليفة بن خياط العصفري ، ت ٢٤٠ هـ ، ٨٥٤م
" تاريخ خليفة بن خياط " الطبعة الأولى ، تحقيق اكرم العمري ، النجف ،
١٩٦٧ .

الديار بكري ، حسين بن محمد بن الحسن ،
" تاريخ الخميس " الطبعة الأولى ، ١٣٠٢ هـ .

الدينوري ، أحمد بن داود ، ت ٢٨٢ هـ .
" الاخبار الطوال " تحقيق عبد المنعم عامر ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٦٠ .

الدينوري ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، ت ٢٧٦ هـ .
" عيون الأخبار " الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٣٠ .

الذهبي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد ، ت ٧٤٨ هـ .
" سير أعلام النبلاء " تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ .
" دول الاسلام " الطبعة الثانية ، حيدر أباد ١٩٢٤ .

ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر ، ت ٢٩٠ هـ .
" الأعلاق **النفيسة** " د. **غويه** ، ليدن ١٨٩١ .

الزبير بن **بكــار** ، ١٧٢ـ ٢٥٦ هـ .
" جمهرة نسب قريش واخبارها " تحقيق ، محمود شاكر ، القاهرة ١٢٨١ هـ .
" الأخبار الموفقيات " تحقيق ، سامي العاني ، بغداد ١٩٧٢ .

ابن سعد ، محمد بن سعد ، ت ٢٣٠ هـ .
" الطبقات **الكبرى** " جمع ادوارد سخو ، برلين ١٣٤٧ هـ .

السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ، ت ٩١١ هـ .
" تاريخ الخلفاء " الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٥١ هـ .

ابن شداد ، عز الدين أبي عبد الله بن محمد بن علي ، ت ٦٨٤ هـ .
" الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة " تحقيق سامي الدهـــان ، دمشق ١٩٦٢ .

الشيباني ، محمد بن الحسن ، ت ١٨٩ هـ .
" شرح كتاب السير الكبير " تحقيق ، صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٧١ .

الطبري ، محمد بن جرير ، ت ٣١٠ هـ .
" تاريخ الرسل والملوك " تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الثانيـــة ، القاهرة ١٩٧١ .

ابن الطقطقا ، محمد بن علي
" الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية " بيروت ١٩٦٦ .

ابن عبد البر ، يوسف بن عبد الله بن محمد ،
" الاستيعاب في معرفة الاصحاب " تحقيق ، علي محمد البجاوي ، القاهرة

ابن عبد الحكم ، أبي القاسم عبد الرحمن ، ت ٢٥٧ هـ .
" فتوح مصر واخبارها " ليدن ١٩٢٠ .

ابن عبد ربه ، أبو عمر بن محمد ، ت ٣٢٧ هـ .
" العقد الفريد " شرح وتنظيم أحمد أمين ورفاقه ، القاهرة ١٩٤٠ .
بالاضافة الى القسم المنشور بعنوان " أنساب العرب " من العقد الفريد
شرح كرم البستاني ، بيروت ١٩٥٢ .

ابن العبري ، غريغوريوس الملطي ، ١٢٢٦ ــ ١٢٨٦ م .
" تاريخ مختصر الدول " ، بيروت ١٩٥٨ .

أبو عبيد ، القاسم بن سلام ، ت ٢٢٤ هـ .
" الأمــــوال " تحقيق محمد خليل هرّاس ، القاهرة ١٩٦٨ .

ابن العديم ، عمر بن احمد ، ٥٨٨ ــ ٦٦٠ هـ .
" زبدة الحلب في تاريخ حلب " تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥١ .

ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد ، ٤٦٨ ــ ٥٤٣ هـ .
" العواصم من القواصم " تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٧٥ هـ .

ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسين ، ت ٥٧١ هـ .
" تاريخ دمشق " تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥١ .
" تهذيب تاريخ ابن عساكر " دمشق ١٣٥٠ هـ .

أبو الفداء ، الملك المؤيد عماد الدين ، ت ٧٣٢ هـ .
" تاريخ المختصر في اخبار البشر " المجلد الأول ، بيروت .

ابن قتيبة ، ابي محمد عبد الله بن مسلم ، ٢١٣/٢٧٦ هـ ، ٨٢٨/٨٨٦ م .
" المعارف " تحقيق ثروت عكاشة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٦ .

القلقشندي ، أحمد بن علي ، ت ٨٢١ هـ ، ١٤١٨ م .
" مآثر الانافــة في معالم الخلافة " تحقيق عبد الستار فراج ، الكويت ١٩٦٤ .
"صبح الأعشى في صناعة الانشا " نسخة مصورة عن الطبعة الاميريّة ، القاهرة ،
١٩٦٣ .

" نهاية الارب في معرفة أنساب العرب " تحقيق ابراهيم الأبياري ، الطبعة
الاولى ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

الكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف المصري ، ت ٣٥٠ هـ ،
" الولاة وكتاب القضاة " تهذيب دنس نسست ، بيروت ١٩٠٨ .

الكوفي ، أحمد بن أعثم ، ت ٣١٤ هـ ، ٩٢٦ م .
" الفتــوح " الطبعة الأولى ، ١٩٦٩ .

الماوردي ، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب ، ت ٤٥٠ هـ ،
" الأحكام السلطانية والولايات الدينيــة " تحقيق مصطفى الحلبي ، الطبعة الثانية ،
القاهرة ، ١٩٦٦ .

المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد ، ت ٢٨٥ هـ ،
" الكامل في اللغة والأدب " بيروت .

المسعودي ، علي بن الحسين ، ت ٣٤٦هـ ، ٩٥٧ م .
" مروج الذهب ومعادن الجوهر " الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٦٥
" التنبيه والاشراف " تصحيح ومراجعة عبد الله الصاوي ، القاهرة ، ١٩٣٨ .

المنيري ، عبد الرحمن بن محمد بن زيد ،
" الآداب المنتخب في ذكر قبائل العرب " باشراف ابراهيم الابيلي ، القاهرة ، ١٩٦٢

المقدسي ، محمد بن أحمد بن ابي بكر البشاري ، ت ٣٧٥ هـ .
" أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " طبعة بريل ١٩٠٦ .

المقريزي ، أحمد بن علي ، ت ٨٤٥ هـ ، ١٤٤١ م .
" النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم " ، ليدن ، ١٨٨٨ م .

مؤلف مجهول من القرن الثالث الهجري .
" الإمامة والسياسة " تحقيق سعيد صالح ، عمان ، ١٩٧٨ .

مؤلف مجهول من القرن الثالث الهجري .
" أخبار الدولة العباسية " وفيه أخبار العباس وولده ، بيروت ، ١٩٧١ .

مؤلف مجهول من القرن الحادي عشر الهجرة .
" تاريخ الخلفاء " مخطوط . موسكو ، ١٩٦٧ .

النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، ٦٧٧ــ ٧٣٣ هـ .
" نهاية الأرب في فنون الأدب " تحقيق أبو الفضل ابراهيم ومحمد عبد الله ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

الهمداني ، الحسن بن أحمد ، ت ٣٣٤ هـ .
" صفة جزيرة العرب " تحقيق محمد عبد الله النجدي ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

الهمذاني ، محمد بن عبد الملك ، ت ٥٢١ هـ ، ١١٢٧ م .
" تكملة تاريخ الطبري " ، بيروت ، ١٩٦١ .

الواقدي ، ابو عبد الله محمد بن عمر ، ت ٢٠٧ هـ .
" فتوح الشام " بيروت .
" كتاب المغازي " تحقيق مارسدن جونس ، اكسفورد ١٩٦٦ .

[illegible] ، محمد بن خلف بن حيّان ، ت ٣٠٦ هـ .
" اخبار القضاة " الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

ياقوت ، شهاب الدين أبي عبد الله البغدادي ، ت ٦٢٦ هـ .
" معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٥٧ .

يحيى بن آدم القرشي ، ت ٢٠٣ هـ .
" كتاب الخراج " الطبعة الثانية ، ١٣٨٤ هـ .

اليعقوبي ، أحمد بن واضح ، ت ٢٦٢ هـ ، ٩٠٥ م.
" مشاكلة الناس لزمانهم " تحقيق وليام الورد بيروت ، ١٩٦٢ .
" البلدان " ليدن ، ١٨٦١ م.
" تاريخ اليعقوبي " بيروت ، ١٩٦٠ م.

أبو يوسف ، القاضي يعقوب بن ابراهيم ، ١١٣ ـ ١٨٢ هـ .
" الخراج " الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٣٩٢ هـ .

المراجــــــــع

ابراهيم أحمد العدوي .
" النظم الاسلامية " ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

الألوسي ، محمود شكري .
" بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب " شرح محمد الأثري .

أنيس زكريا النصولي .
" الدولة الأموية في الشام " الطبعة الاولى ، بغداد ، ١٩٢٧ .

ترزية ، برو .
" الدولة العربية الكبرى " ، حلب ، ١٩٧٣ .

ثريا عبد الفتاح ملحس .
" الخلفاء الأمويون " ، بيروت ، ١٩٧٧ .

دكسن ، عبد الأمير .
" الخلافة الاموية " ، الطبعة الاولى ، بيروت ، ١٩٧٣ .

دائرة المعارف ، " متيمن الأثر وجد ما دثر " ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٢ .

الدكتور الدوري ، عبد العزيز .
" النظم الاسلامية " الجزء الاول ، بغداد ، ١٩٥٠ .

سميرعبد الرزاق القطب .
" أنساب العرب " الطبعة الاولى ، بيروت ، ١٩٦٨ .

شكري فيصل .
" المجتمعات الاسلامية في القرن الاول " ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

صبحي الصالح .
" النظام الاسلامية " الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٨ .

صلاح الدين المنجد .
" معجم بني أمية " بيروت ، ١٩٧٠ .

عباس محمود العقاد .
" معاوية بن ابي سفيان " القاهرة .

فود نسرزا .
" النظام الاسلامية " ترجمة فيصل سامر ، بيروت ، ١٩٦١ .

فالح حسين .
" الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي " عمان ، ١٩٧٨ .

فلهاوزن .
" تاريخ الدولة العربية " ترجمة محمد أبو ريدة ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

فيليب حتي .
" تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين " بيروت ، القاهرة ، بغداد ، نيويورك ، ١٩٥٩ .

الدكتور مصطفى الحياري .
" الامارة الطائية في بلاد الشام " عمان ، ١٩٧٧ .

" مؤتمر تاريخ بلاد الشام " عمان ، ١٩٧٤ .

مصطفى حلمي .
" نظام الخلافة في الفكر الاسلامي " القاهرة .

محمد ماهر حمادة .
" الوثائق السياسية والادارية العائدة للعصر الاموي " الطبعة الاولى ، دمشق ، ١٩٧٤ .

ناصر السيد محمود النقشبندي .
" الدينار الاسلامي " الجزء الأول ، بغداد ، ١٩٥٣ .

الدكتور نبيه عاقل .
" خلافة بني أميّة " دمشق ، ١٩٧٢ .

يوسف العـــش .
" الدولة الأموية " دمشق ، ١٩٦٥ .

المقالات :

اعتمدت الدراسة على عدد من المقالات المنشورة في الموسوعة الاسلامية في الطبعتين الأولى والثانية .

ABSTRACT.

This study is the product of an attempt to understand the history of early Islam following the establishment of the Umayyad caliphate. It olso tries to focus the atten - tion on the majer potentralities which enabled Muawiya to establish a modern state by the standards of the time.

The unsuperseded Islamic expansion required certain new concepts in administration and novel ideas in politics, and Muawiya as a leader was a match to such requirements.

Having in mind the heterogenous nature of the Islamic state, Muawiya was capable to meet all the new chaneges , espicially the reprecassions of the famous Fitnah following the assassination of Caliph Othman.

In order to get a fair understanding of Muwiyyah era, one has to asses the history of Bilad al-Sham, the base of Muawiya which was faithful to him. Muawiya was able to gain not only the loyalty of the chiefs of Arab tribes , but also the confidence of the local people as well.

Muawiya was the centre of the political activities in the various fields. The study tries to asses and analyse his policies in administration , taxation, and judicial system.

It has been also intended to asses the role of Muawiya as a person and a leader.